البير كامو

المنفى والملكوت

نقلها إلى العربية

خيري حماد



المنفى والملكوت

البير كامو

المنفى والملكوت

مجموعة قصص

نقلها إلى العربية

خيري حماد





الاهداء

الى .... فرانسين





كلمة المترجم

البير كامو هو اديب فرنسا الكبير ، الذي خرج عن نطاق فرنسيته ، ليصبح انسانياً في ادبه وانتاجه وفكره .

ولد في الجزائر العربية عام ١٩١٣ من ابوين فرنسيين ، في حي بلكور في المدينة المناضلة ، المكتظ بالسكان ، ودخل مدرسة الحي الأولية ، فاظهر نبوغاً منقطع النظير سرعان ما ضمن له الدراسة المجانية في مدارس الليسيه .

نشأ لا يعرف والده ، فقد توفي عنه وهو صغير ، ونشأ في حضن امه الارملة ، يرعاه عمه العجوز سانتيز ، صانع البراميل ، الذي لا يعرف القراءة . وكانت أمه ، تقوم ببعض الاعمال ، لتضمن الحياة لنفسها ولولديها، البير وشقيقه الاكبر ، وامها العجوز ، وشقيقتها المشلولة الخرساء .

والتحق بمدارس الليسيه عام ١٩٣٠ ، ولكنه سرعان ما اصيب بنزلة رئوية حادة تحولت الى درن رئوي ، ضعضع كيانه ، واضعف روحه المعنوية ، فاضطر الى التوقف عن الدراسة والبحث عن عمل فحصل على وظيفة كاتب صغير في دار المحافظة في مدينة الجزائر . وأخذ يقرأ في هذه الفترة كل ما يقع تحت يده من الكتب الادبية ولا سيما من المسرحيات العالمية الخالدة ، وكان اكثرها تأثيراً في نفسه مسرحيات الكاتب الروسي الكبير دوستويفسكي .

وتعرف الى شخص يدعى باسكال بيا ، كان يعمل في الصحافة الجزائرية ،

فبعث هواية الصحافة في نفس كامو ، الذي شرع يكتب في مجلة فرنسية تصدر في الجزائر ، ويظهر في كتاباته عطفاً واضحاً على الجزائريين .

وانتقل الى باريس ، قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ، حيث بدأ يدرس الاشتراكية ، لا من كتب كارل ماركس بل من الحياة نفسها . وعين عام ١٩٣٩ سكرتيراً لتحرير جريدة باري سوار ، بعد ان انضم الى الحزب الشيوعي ، ولكنه سرعان ما انفصل عنه ومن هذه الفترة ، وضع كامو كتابيه العظيمين « الابرار » و « الغريب » .

ووقعت الحرب ، واحتل الالمان فرنسا ، فانضم الى حركة المقاومة واصبح عضواً في هيئة تحرير صحيفة « لاكومبا » السرية ، وظل يعيش مختفياً عن الانظار مدة من الزمن .

وعندما تحررت فرنسا عام ١٩٤٠ ، اصبحت « لاكومبا » ، صحيفة يومية ، اسندت رئاسة تحريرها الى كامو . وبرزت في هذه الفترة شهرة كامو فاصبح اشهر كتاب فرنسا قاطبة ، ومن كواكب الادب الساطعة في العالم .

وفي عام ١٩٤٥ ، منح جائزة نوبل للادب ، واصبح علماً من ابرز اعلامه .

وانفصل كامو عن « لاكومبا » التي اضحت مثل غيرها من الصحف اليومية الاخرى ، واخذ يكتب في عدد من الصحف والمجلات .

وتوفي كامو في حادث سيارة في عام ١٩٦٠ وهو في السادسة والاربعين من عمره ، بعد ان ترك في تراث الادب العالمي ، اثاراً خالدة خلود الدهر .

ـ المترجم ـ

المرأة الزانية



حوّمت ذبابة في الدقائق الاخيرة في فضاء سيارة « الباص » على الرغم من ان نوافذ السيارة كانت مغلقة تمام الاغلاق طيلة الوقت . وكان منظرها عجيباً فهي تطير غادية ، رائحة ، بجناحيها ، المتعبين ، دون ان يسمع لها صوت . وكانت جانين ترقبها بعينيها ، ثم ما فتئت ان فقدت أثرها ، لتعثر عليها بعد قليل ، وقد هبطت على كف زوجها ، الهادئة . وكان الطقس بارداً ، والذبابة ترتعش مع كل دفقة من دفقات الرياح الرملية ، التي تهب على زجاج النافذة . ومضت السيارة ، في تلك الساعة المبكرة ، من صباح يوم من ايام الشتاء ، الخافتة الضوء ، تملأ الارض ، بضوضائها ، واصوات احتكاك الواحها المعدنية بدواليبها ، وهي تتدحرج وتخطو ببطء شديد ، وكأنها لا تسير . ورنت جانين الى زوجها مارسيل ، الذي بدا ، وقد خط الشيب فوديه ولمّته ، التي انسدلت فوق جبينه الضيق ، وبانفه المفرطح ، وفمه الرخو ، وكانه انسان سكير ، علا التجهم وجهه . وكانت تحس بجسمه ، يصطدم بها ، عندما تمر السيارة ، فوق كل حفرة ، في تلك الطريق الموحشة ، ثم لا يلبث جذعه الضخم ، ان ينكفىء فيستقيم ،

على ساقيه المنفرجتين ، ويعود الى غيبوبته ، وقد تطلع بعينيه الجامدتين الى الفضاء البعيد . ولم يبد فيه ، ما يوحي بالحركة ، الا يداه الغليظتان الخاليتان من الشعر ، وقد بانتا اكثر قصراً من حقيقتها ، بما استطال من اكمام ملابسه الداخلية ، حتى انها غطت رسغيه . وأمسكت هاتان اليدان ، بقوة ، بحقيبة صغيرة من الخيش وضعها بين قدميه ، حتى بدتا وكأنهما لا تحسان بحركة تلك الذبابة وتوقفها على احديها .

واشتد عويل الرياح ، فجأة ، كما تكاثف الضباب المحشوّ بالحصى ، يلف السيارة لفاً . وأخذ الرمل ، يقرع نوافذها ، في مجاميع كبيرة ، وكأن يداً خفية تقذف بها . وهزّت الذبابة ، جناحها ، المتجمد ، ومدت ساقيها ، ثم طارت من المكان الذي اختارته . وهدأت حركة السيارة ، وظهرت وكأنها على وشك الوقوف . ولكن ما لبثت الرياح ان خفتت ، وارتفع الضباب الى حد ما ، وعادت السيارة تغذّ سيرها . وانتشرت فجوات من الضياء ، في ذلك البلقع الذي غمره الغبار ، واندفعت أمام العيون ، بعض اشجار النخيل ، السامقة ، وقد اصبحت بيضاء ، وكأنها ، اقتطعت من المعدن البراق ، لتعود وتختفي بعد لحظات .

وقال مارسيل : « يا لها من بلاد ! » .

وكانت السيارة ملأى بالاعراب ، الذين التفوا بعباءاتهم . وراحوا يتظاهرون بالنوم العميق . وكان بعضهم ، قد ثنى ساقيه ، على المقعد تحته ، وأخذ يتأرجح مع حركة السيارة واهتزازها . وشرعت جانين تضيق بهذا الصمت الذي يلفّهم ، وذلك التجاهل الذي يبدونه لكل ما حولهم ، وخيل اليها ، انها قضت اياماً طوالاً ، في سفر مع هؤلاء الرفاق من البكم . مع انها لم تكن قد استقلت السيارة الا فجر ذلك اليوم من المحطة الاخيرة التي

ينتهي اليها القطار أي قبـــل نحو ساعتين ، ماضية في طريقها ، فوق هضبة صخرية ، غير مطروقة ، تمتـــد خطوطها المستقيمة ، الى الافاق الحمراء .
وما عتمت الزوابع الصحراوية ان هبت ، وغطت برمالها ، الافاق البعيدة ، ومنذ تلك اللحظة ، لم ير المسافرون شيئاً مما حولهم ، فتوقفوا عن الكلام واحداً اثر آخر ، وبدوا وكأنهم يعيشون في ليل طويل من الارق يمسحون شفاههم وعيونهم ، بين آونـــة وأخرى من الرمال التي تسربت الى السيارة عبر نوافذها .

وانتفضت جانين عندما سمعت زوجها يهتف لها ، وخيّل اليها من جديد ان هذا الاسم لا يتفق مع شخصية امرأة لها مثل طولها وصلابتها ، وكان مارسيل ، يريد ان يعرف مكان الحقيبة التي اودعها نماذجه . وبدأت جانين تبحث بقدمها ، في الفراغ القائم تحت مقعدها ، فعثرت على شيء قررت أنه لا بد ان يكون الحقيبة التي يبحث عنها . ولم يكن في وسعهـــا ان تنحني دون ان تمسك بشيء يقيها من السقوط . وتذكرت مع ذلك ، انها عندمـــا كانت في المدرسة ، كانت تنال دائمـــاً الجائزة الأولى في الالعاب الرياضية ، ولا سيا في « الجمناستيك » ، آه ، لا شك ان وقتاً طويلاً قـــد مر على ذلك خمسة وعشرون عاماً . لكن هـــذه الاعوام الخمسة والعشرين لا تعني شيئاً .
فقد بدت لها وكأنها أمس ، عندما ترددت بين الزواج، والبقاء حرة مستقلة، واخيراً تغلبت فكرة الزواج ، فقد قلقت من مجرد تخيل ، الوصول الى سن الشيخوخة ، وهي وحيدة ، لا يرعاهـــا انسان . ولكنها الآن ، ليست وحيدة ، وها هو طالب الحقوق ، الذي كان يتوق دائماً ، الى البقاء بجانبها ، يجلس معها في هذه اللحظة . وقد رضيت به زوجاً على الرغم من انه كان يقصر عنها في القامة ، ولم تكن لتحب منه ضحكته ، العالية ، الطويلة ، ولا عينيه البارزتين السوداوين . ولكنهـــا احبت فيه شجاعته في مواجهة

الحياة ، التي اشترك فيها مع الفرنسيين الآخرين المقيمين في البلاد ، كما احبّت نظرته اليائسة ، عندمـــا تسير الاحداث او الناس على هواه . وكانت فوق هذا ، كله ، تريد ان تشعر بأنها محبوبة ، وقد ابدى لها كل اهتمام وحب ، وجعلها تحس دائماً ، انها موجودة بالنسبة اليه ، وهـــذا ما حفزها على الاحساس بالوجود . لا . انها ليست وحيدة ...

ومضت السيارة ، وهي تنفخ بوقها بين آونة واخرى ، تشق طريقهـا ، عبر عقبات غير مرئية . وظل الجميع هادئين داخـــل السيارة . وأحست جانبين فجأة بعينين ، تكادان تلتهمانها ، فالتفتت الى المقعد ، القائم ، بجانبها عبر الممر ، ورأت انساناً . انه ليس من الاعراب ، وقد أدهشها ، انهـا لم تحس بوجوده منـــذ البداية . كان يرتدي زي الفوج الفرنسي العامل في الصحراء ، وقد وضع على رأسه قبعة من الكتان غير الابيض ، تعلو وجهـاً لوحته الشمس ، وقد بدا بطوله وذقنه المدببة وكأنه وجـــه ابن آوى . وكانت عيناه الرماديتان ، ترقبانهـا بنوع من الامتعاض العبوس ، في نظرة حادة ثابتة . وشعرت فجأة بحمرة الخجل تعلو وجنتيها ، وأدارت رأسهـا الى زوجها ، الذي كان لا يزال على حاله يتطلع بعيداً ، عـــبر الضباب والرياح . واسترخت بجسمها في معطفها الثقيل ، ولكنهـــا ما فتئت ترى ذلك الجندي الفرنسي الطويل القامة والنحيف البنية ، وقـد بدا في زيّه الرسمي ، وكأن جسمه قُدّ من مادة جافـــة مشوبّة هي مزيج من الرمل والعظم . ورأت آنذاك ، ايدي الاعراب النحيلة ، ووجوههم التي حرقتهـا الشمس ، فأدركت انهم على الرغم من ثيابهم الفضفاضـــة ، لا يملأون المقاعد التي يحتلونهـــا ، بينما تكاد تشعر بالاختناق في المقعد الذي تحتله مع زوجها . وسحبت معطفها ، فغطت به ركبتيها . انها تعرف انهـــا ليست بالبدينة ، وانما هي ممشوقة القد ، ملفوفة البدن . وهذا الالتفاف يجعلهـا ،

محط رغبات الرجال التي تحس بها ، عندما تراهم ينظرون اليهـــا ، والى وجهها الذي تبدو عليه براءة الطفولة ، وتتألق فيــه عينان تنطقان بالسذاجة ، لا تنسجمان مع ذلك الجسم الضخم ، الذي تعرف هي ما فيه من دفء واغراء .

ولم يحدث في رحلتها أي طارىء كما توقعت ، فعندما اراد مارسيل ، ان يأخذها معه في هذه الرحلة ، اعترضت ، واحتجت . فهو يفكر فيها ، أي في رحلته ، منذ انتهت الحرب . وعادت الاعمال التجارية الى سابق عهدها . فقد كانت تجارة السلع الصغيرة التي ورثها عن والديه ، تؤمن له قبل الحرب الاخيرة ، حياة محترمة هنيئة ، فعلى سواحل البحر . تكون سنوات الشباب عادة ممتعة سعيدة ، لكنه يكره كل مجهود بدني ، ولذا فسرعان ، ما عدل عن المضي بها ، الى الشواطىء واقتصرت نزهاته ، على اخذها في سيارته الصغيرة ، بعد ظهر كل يوم من ايام الآحاد الى خارج المدينة . وكان يفضل قضاء بقية اوقاته ، في حانوته المليء بمختلف السلع ، المتنوعة الالوان . والذي تظلله قناطر هذا الحي الذي يجمع بين الأوروبيين وأهل البلاد . وكانا يقيمان في منزل من ثلاث غرف . يقع فوق الحانوت . وقد زانته الستائر العربية ، وفرشاه بالاثاث الذي ابتاعاه من « معرض باربيه » . ولم يكن لديها اطفال . فمرت الأعوام ، رتيبة ، في حالة اشبه بالظلمة المخيّمة ، تقضيها وراء درفات النوافذ المغلقة . أمـــا الصيف ، والشواطىء والرحلات ، ومشهد السماء بزرقتها ، فقد غدت كلها من أمور الماضي البعيد . ولا يهتم مارسيل الا بتجارته واكتشفت جانين ، ان حبه الحقيقي إنما ينحصر في المال ، فلم يعجبها ذلك ، دون ان تدري لاحساسها سبباً او علة . فالمال الذي يسعى لطلبه ، انما هو لها ، ولم يبخل قط عليها بشيء ، بل كان كريماً سخياً ، ولا سيما بالنسبة الى الامور المتعلقة بهـــا .

وكثيراً ما سمعته يقول لهـــا . « اذا حدث لي حادث ، فسيكون لك ما يكفيك » . وفي الحق ، فالضرورة تحتم ان يتوفر للانسان ما يؤمن له حاجاته . ولكن كيف يمكن تأمين الاشياء الباقية ، ولا سيا تلك التي لا تتناول الاحتياجات الاولية . هذا ما كانت تحس به في فترات متقطعة . ولكنها مع ذلك مضت تساعد مارسيل في ضبط حساباته ودفاتره ، وكثيراً ما حلت محله في الحانوت اذا ذهب لأمر ما . وكان الصيف بالنسبة اليها ، أقسى الاوقات ولا سيا عندما يخمد الحر ، جميع المشاعر العذبة حتى احساس الضيق والملل .

وفجأة ، وقعت الحرب في فصل الصيف ، واستدعي مارسيل للخدمة العسكرية ، ولكنه ، لم يقبل ، لاسباب صحية ، ووجد مارسيل ، تجارته تتوقف لسبب ندرة البضائع ، كما اضحت الشوارع خالية من الناس ، يكاد يحرقها القيظ . وادركت انه لو حدث لزوجها شيء في هذه الآونة ، فلن تجد ما يؤمن لها حياتها . وهذا هو السبب الذي حمل زوجها على التفكير ، بعد انتهاء الحرب ، وعودة السلع الى الظهور في الاسواق ، في القيام بهـــذه الرحلة التي يطوف فيها المنطقة الجبلية وارجاء الجنوب ، ليبيع الى التجار العرب بضائعه دون حاجة الى وسيط . واراد ان تصحبه في رحلتـــه ، وكانت تعرف ما في الترحـــال من متاعب . لا سيا وانهـــا تشعر بضيق في التنفس ، وكانت تفضل لو سمح لها بالبقاء في البيت . ولكنه اصر على رأيه ، الذي قبلت به ، لأنها لم تجد في نفسها الحيوية الكافية للرفض . وها همـــا يمضيان الان في رحلتها ، وقد وجدت كل شيء يختلف عمـــا توقعته أو تصورته . فقد كانت تخشى من الحرارة ومن اسراب الذباب والفنـــادق القذرة التي تفوح منها رائحة « اليانسون » . ولم يخطر ببالها ، انها ستجد الطقس بارداً ، والرياح شديدة تعضّ الابدان ، وانها سترى هذه الهضاب

التي تشبه المناطق القطبية ، تعج بالجلاميد من الصخور . وقد حلمت باشجار النخيل والرمال الناعمة ، ولكن ما تراه الان ، صحراء ، مختلفـــة ، من الصخور ، المنتشرة في كل مكان ، والسماء ملأى بتراب هـــذه الصخور ، الذي يخدش الابدان ، ويجمّدها ببرودته ، بينما الأرض ، تخلو من كل شيء ، الا من الاعشاب الجافة نامية بين الحجارة .

وتوقفت سيارة الباص بغتة . وصرخ السائق بعض كلمات ، باللغة التي سمعتها طيلة حياتها ، دون ان تفهم منها حرفاً واحداً . وسأله مارسيل : « ما حدث » ، فرد السائق بالفرنسية هذه المرة ، قائلاً ، ان الاتربة قد اغلقت « الكاربوراتير » كما يبدو ، وصدر عن مارسيل ، سباب مقـــذع ، لتلك البلاد اللعينة ، فضحك السائق ، بمرح زائـــد ، وطمأنه بان المشكلة بسيطة للغاية ، وانه سيزيل ، ما علق بالانبوب من تراب ثم يستأنف السير . وفتح الباب ، فهجمت الرياح ، الباردة على السيارة ، تقرع وجوه الركاب بسياط من ذرات الرمل ، التي تحملها . وغطى الاعراب انوفهم ، بعباءاتهم بهدوء ، وظلوا في اماكنهم . وصرخ مارسيل : « اغلق الباب » وضحك السائق عندما عاد الى الباب ، وبكل هدوء وتؤدة ، اخرج بعض المعدات والالات ، من سيارته ، ثم خرج ثانية الى الضباب ، دون ان يغلق الباب . وتنهد مارسيل وقال : « في وسعك ان تثقي بأنه لم ير جهـــاز سيارة في حياته » وردت جانين قائلة : « اهدأ يا مارسيل » . وفجأة هبت جانين من مقعدها ، فقد رأت على كتف الطريق ، وعلى مقربة من السيارة ، اشباحاً جامدة ، وقد غطت نفسها بعباءات من الصوف ، لا تبدو منها الا عيونها ، وهذه الاشباح التي ظهرت من العدم ، تتطلع الى المسافرين بحملقة غريبة . وقال مارسيل . « انهم من الرعاة » .

وخيّم سكون شامل ، داخل السيارة ، وبدا جميع المسافرين ، وقـــد

اطرقوا برؤوسهم ، ينصتون الى صوت الرياح ، التي اطلقت من عقالها ، لتهب على تلك الهضبة ، التي لا يحدها النظر . أحسّت جانين فجأة ، بنوع من الدهشة ، لعدم وجود أمتعة ، للركاب في السيارة ، وتذكرت ان السائق في محطة القطار الأخيرة ، قد حمل حقيبتها وبعض الرزم الاخرى الى سطح السيارة . ولم تر داخلها الا بعض العصي المعقوفة ، وسلال الحاجيات . وبدا لها ان جميع هؤلاء المسافرين من اهل الجنوب ينتقلون خالي الوفاض ، ولا متاع بايديهم .

وعاد السائق الى السيارة ، وهو في اتم النشاط والحيوية . وكانت عيناه تضحكان وقد بانتا ، من وراء هذا النقاب الكثيف الذي اسدله على وجهه ليمنع عنه الغبار . واعلن لركاب سيارته ، انها ستستأنف سيرها بعد لحظات ، ثم اغلق الباب ، وأخذ صوت تساقط الرمال على زجاج النافذة يسمع واضحاً . وسعلت الآلة ، سعالاً قوياً ، ثم خفت صوتها . وأعاد السائق المحاولة ، وسرعان ما دبت الحياة فيها ، ومضت في طريقها ، وارتفعت ذراع ، من تلك الزمرة من الرعيان ، ذوي الثياب الرثة ، الواقفين جامدين كالاصنام ، الى جانب الطريق ، ولكنها سرعان ما اختفت وراء سدف الضباب الكثيف . وشرعت السيارة تتأرجح على الطريق التي غدت سيئة للغاية ، وكان الاعراب من ركابها ، يتمايلون معها ذات اليمين وذات الشمال . وأحست جانين رغم ذلك بالنعاس ، يدب الى جفنيها عندما رأت امامها فجأة صندوقة صغيرة صفراء ملأى باللوزينج ، وابصرت بالجندي - ابن اوى ، يتطلع اليها مبتسماً . وترددت لحظة واحدة ، ثم حزمت امرها ، والتقطت قرصاً منها ، وشكرته . ووضع الجندي العلبة في جيبه ، وابتلع ابتسامته ثم ادار وجهه متطلعاً الى الطريق أمامه . والتفتت جانين الى مارسيل ، فلم تر منه ، الا مؤخرة رقبته . فقد كان

يرقب عبر النافذة ، تكاثف الضباب متصاعداً من الرصيف المتعرّج .

وكانت قد انقضت ساعات طويلة على بـدء الرحلة ، وأخذ الاعياء كل حياة داخل سيارة الباص ، عندما انفجرت هتافات عالية خارجها ، ورأت جانين اطفالاً يرتدون العباءات ، يحوّمون حـول السيارة ، كالنحلات الدوّارة ، التي يلعبون بها ، ويقفزون ، مصفقين بايديهم ، ويتراكضون جيئة وذهاباً . وكانت السيارة تعبر الآن شارعاً طويلاً ، اصطفت البيوت الخفيضة على جانبيه ، هو شارع الواحة . أما الريح فما زالت على شدتها وعنفهـا ، وان كانت جدران البيوت قد حالت بين الرمال الـتي تحملها ، وبين القاء ستار كثيف على ضوء النهار . وظلت السماء ملبدة بالغيـوم . ووقفت السيارة ، وسط هذا الضجيج من الصراخ ، بعد ان زعقت « فراملها » ، أمام الأقواس المبنية من الطوب ، الـتي يقوم عليها فندق ، تبدو نوافذه القذرة . وخرجت جانين من السيارة ، وما كادت تصل الى الرصيف ، حتى ترنحت في مشيتها . ورأت منارة صفراء ، رفيعة ، تعلو البيوت التي امتدت امامها . وأبصرت الى شمالها . أشجار النخيـل الأولى ، مشيرة الى ابتداء الواحة ، فودّت لو ذهبت اليها . ولكن على الرغم من الظهيرة ، فقد كان البرد قارساً ، وارتعدت اوصالهـا من شدة الرياح . والتفتت الى مارسيل ورأت الجندي ، يخطو باتجاهها . وتوقعت منه ان يبتسم لها أو يحييها ، ولكنه مر بها دون ان يتطلع اليهـا ، ومضى في طريقه فاختفى عن انظارها . وكان مارسيل مشغولاً ، بانزال الحقيبة التي تضم بضائعه ، عن سطح السيارة ولم يكن هذا بالامر الهين ، فالسائق هو الوحيد ، الذي بوسعه ، إن يعنى بالحقائب ، وقد انشغل عنها ، ليبعد هذه المجموعات من العباءات عن سيارته . ورأت جانين نفسها محاطة بوجوه وكأنها قدت من العظام والجلود ليس الا ، وكلها تصرخ في آن واحد ، فاحست فجأة

بالانهاك يكاد يحطمها وقالت لمارسيل ، الذي كان مشغولاً ، بالصراخ مع السائق ، ، « انا ذاهبة الى الفندق » .

ودخلت الفندق . وهب المدير الفرنسي ، وهو رجل نحيـل البنية ضئيلها ، يستقبلها فقادها الى شرفة في الطابق الثاني تطل على الشارع ، ومنها الى غرفة لم تر فيها الا سريراً حديدياً ، ومقعداً ابيض مطلياً بالميناء ، وخزانة للملابس ، لا ابواب لها وستاراً يخفي وراءه طشتاً للاغتسال ، غطاه الغبار . وشعرت جانين عندما مضى المدير ، بعد ان اغلق الباب ، بالبرد ينفذ الى بدنها ، من الجدران العارية « المطروشة » بالـكلس . ولم تدر اين تضع حقيبتها أو تلقي بنفسها . وتحتم عليها اما ان تستلقي او تظل واقفة ، وفي كلتا الحالتين ، ترتجف اوصالها من البرد . فآثرت الوقوف ، ممسكة بحقيبتها ، وهي تتطلع الى ما يشبه النافذة ، قرب السقف ، تنظر عبرها الى السماء . إنها تنتظر ولـكنها لا تدري ما الذي تنتظره . وكل ما أحست به ، شعور طاغ بالوحدة ، وبرد قارس ينفذ الى بدنها ، وثقل كبير في ناحية فؤادها . انها ولا شك تحم ، وقد اصمّت اذنيها ، عن الاصوات المتصاعدة من الشارع ، مختلطة بصراخ زوجها مارسيل وانفعالاته ، ولـكنها تصيخ السمع ، لذلك الصوت ، الذي يشبه هدير النهر ، قادماً من النافذة ، وناجماً عن ارتطام الرياح باشجار النخيل ، التي بدت الآن قريبة منها . وبدا لها ان ازيز الرياح يشتد ، وان الهدير قد اصبح موجاً صاخباً . وتخيّلت وراء الجدران التي تحيط بها ، بحراً من اشجار النخيل ، الفارعة العود ، المرنة القوام ، تتأرجح مع الرياح . وعلى الرغم من ان كل ما رأته ، لم يكن متفقاً مع ما توقعته ، لكن هذه الامواج ، غـــير المرئية ، بعثت في عينيها التعبتين ، شعوراً من الارتياح . وكانت تقف في مكانها جامدة ، وقد تدلى ذراعاها ، وانحنت قامتها بعض الشيء ، بينما اخذت البرودة ، تتسلق ،

ببطء ساقيها المكتنزتين . انها تحلم باشجار النخيل الفارعة العود ، المرنة القوام ، وبالفتاة ، التي كانتها في يوم خلا .

* * *

ونزلا الى قاعة المائدة بعد ان اغتسلا . وكان على الجدران صور اشجار النخيل ، والابل وقد ضاعت في محيط غامر من الازاهير ، القرمزية ، ومن الخزامى . ونفذ الضوء الباهت ، من النوافذ المقوّسة ، وأخذ مارسيل يسأل المدير عن تجارة البلدة . وقام نادل عربي ، كبير السن ، يحمل وساماً عسكرياً على صدره ، بتقديم الطعام اليهما . وقطع مارسيل خبزه الى أجزاء صغيرة ، وحال بين زوجته وبين شرب الماء قائلا انه غير معقم ، طالباً اليها ، ان تستبدله بالنبيذ . ولكنها لا تحب النبيذ ، لأنه يبعث الرغبة بالنوم في اوصالها . وتضمنت قائمة الطعام شرائح من لحم الخنزير ، فقال مارسيل : « انهم لا يأكلونه ، لأن القرآن يحظر أكله ، ولكنهم لا يعرفون ان لحم الخنزير اذا اجيد طهيه ، لا يسبب مرضاً ، ونحن الفرنسيين ، خير من يجيد الطهي . آه . بماذا تفكرين ؟ » ولم تكن جانين تفكر بأي شيء . لا سيما ، بتلك الفكرة التي جاء بها زوجها عن انتصار الطباخين على الانبياء . ولكن عليها ان تسرع ، فسيغادران الواحة في صبيحة اليوم التالي الى الجنوب ، وعليهما ، ان يجتمعا بعد ظهر ذلك اليوم بجميع التجار من ذوي الأهمية في البلدة . وحث مارسيل النادل ، على الاسراع بالقهوة فاحنى رأسه دون ان يبتسم ، وخرج من القاعة . وقال مارسيل معلقاً وهو يضحك « انهم بطيئون في الصباح ، وغير سريعين بعد الظهر » . ومع ذلك ، فقد أتى النادل بالقهوة ، ولم يكن لديهما الوقت الكافي لازدرادها ، ومضيا الى الشارع ، الشديد البرودة ، الكثيف الغبار . واستدعى مارسيل صبياً عربياً ليحمل له الحقيبة ، وساومه على الاجر كالعادة

او تطبيقاً لمبدأ من مبادئه . وكان رأيه دائماً ، الذي سبق الافصاح به لجانين ، والذي أعاد ترديده اليوم ، انهم يطلبون عادة ضعف الأجر ، ليحصلوا في النهاية على ربعه . ومضت جانين ، وهي تحس بالملل والضجر ، تتبع حاملي الحقائب ، وكانت قد ارتدت ثوباً من الصوف تحت معطفها الثقيل ، وودت لو انهم لا يسرعون الخطو في مشيهم ، لا سيا وقد أثر عليها النبيذ الذي شربته ، ولحم الخنزير الذي أكلته ، على الرغم من اجادة طهيه .

وسارا ، يحاذيان حديقة عامة صغيرة ، انتشرت فيها الاشجار وقد علاها الغبار . وكانا يلتقيان في طريقها باعراب ، سرعان ما يتنحون لهما عن الطريق ، دون ان يبدو عليهم انهم قد رأوهما ، اذ التفوا بعباءاتهم ، وبدا لها ان هؤلاء العرب يختلفون عمّن عرفتهم في مدينتها ، اذ على الرغم من رثاثة ثيابهم ، تلوح على وجوههم سيماء النبل والاعتزاز بالنفس . وتبعت جانين الحقيبة التي كانت تفسح لها طريقاً بين الجماهير المزدحمة . وعبرا من بوابة في سور ترابي الى باحة صغيرة ، تكسوها الاشجار ، وقد انتثرت الى جوانبهـــا في الطرف البعيد ، حيث تتسع الباحة ، الحوانيت ، والاقواس . ولكنهما توقفا فيها أمام بناء صغير على شكل قذيفة مدفع ، وقد صنع بلون أبيض يميل الى الزرقة . ووجدا داخل الغرفة اليتيمة في هذا البناء ، التي لا ينيرها الا الضوء المتسرب من الباب رجلا عربياً طاعناً في السن ، ذا شارب اشيب ، يقف وراء لوح برّاق من الخشب . وكان يصب الشاي ، رافعاً ابريقه ، وخافضاً اياه ، فوق الاقداح المختلفة الالوان . وتدفقت الى انفيها ، قبل ان يتبينا أي شيء آخر عبر الظلام المخيّم على المكان ، رائحة الشاي المعطر بالنعناع ، ولم يكد مارسيل ، يجتاز عتبة الباب ، وينساب بين مجموعات اباريق الشاي واقداحه ومعداته ، ولوحات

الاعلان المتناثرة هنا وهناك ، حتى وجد نفسه ، أمام حاجز خشبي .وظلت جانين واقفة بالباب . ولكنها مالت قليلاً عن المدخل ، لئلا تحول بجسدها ، بين الضوء والنفاذ الى المكان ورأت في تلك اللحظة ، وعبر الظلام ، عربيين يجلسان وراء ذلك التاجر العجوز ، وقد اقتعدا الاكياس التي تغص بها مؤخرة الحانوت ، وهما يتطلعان اليها ويبتسمان . ورأت على الجدران بسطاً ذات الوان سوداء وحمراء ، وطيلسانات موشاة ، بينما اختلطت في ارض الحانوت الاكياس والصناديق الصغيرة ، ملأى ببذور المواد العطرية . وعلى الحاجز الخشبي ظهر ميزان من النحاس الاصفر ، ومتر من المعدن الباهت اللون ، وقد اختفت عنه الارقام ، وعدد من رؤوس السكر ، وقد رفع الورق الازرق عن احدها ، واقتطع جزء من هامته المخروطية . وعندما وضع الرجل العجوز ابريق الشاي ليرحب بها ، اختلطت في انفيهما ، رائحة الصوف والتوابل ، ممزوجة مع رائحة الشاي .

وشرع مارسيل ، يتحدث بسرعة ، ولكن بصوت خفيض ، في لهجة رجال الاعمال ، ثم فتح حقيبته ، واخرج ما فيها من اصواف وحرائر ، اخذ يعرضها على الرجل العجوز ، بعد ان ازاح الميزان والمتر جانباً . ودبّت فيه الحماسة ، وعلا صوته ، وأخذ يضحك بعصبية ، وكأنه امرأة تريد ان تفرض اغراءها على شخص وغير واثقة من نفسها . ومضى ، وقد فتح يديه ، على اتساعها ، يخوض معركة البيع والشراء . وهزّ الرجل العجوز رأسه ثم سلم ، معدات الشاي الى الشابين اللذين يقفان وراءه ، وفاه ببضع كلمات بدت غير مشجعة لمارسيل . وسرعان ما التقط هذا بضاعته ، وحشرها في حقيبته ، ثم مسح عن جبهته ، بيده عرقاً توهم انه يصبب منها . واستدعى الحمّال الصغير ، ثم مضوا جميعاً ، باتجاه الاقواس ، وعلى الرغم من ان التاجر ، قد ابدى في البداية نفس المظاهر والاسلوب ،

الا ان مارسيل ، كان أحسن حظاً هنا . وقال مارسيل : « انهم يعتقدون انهم في عظمة الله ، ولكنهم يعملون في التجارة ايضاً ، ويبدو ان الحياة شاقة للجميع .

وتبعته جانين دون ان تفوه بحرف واحد . وكانت الريح قد توقفت تقريباً وأخذت السماء تصفو في بقاع معينة ، وينبعث من هذه الفرجات العميقة بين السحب الكثيفة ، ضوء ، شديد ، بارد . وكانوا قد غادروا الآن ، الباحة العامة ، ومضوا يسيرون في شوارع ضيقة ، تحيط بها اسوار من التراب ، انتشرت فوقها ، ورود برية ، او بعض شجيرات الرّمان الجافة . وانتشرت في هذا الحي الذي مضوا فيه رائحة الغبار . والقهوة ، وسحب الدخان المتصاعدة من نيران الحطب المشتعل مختلطة مع روائح الماشية . وكانت الحوانيت ، المنبثقة عن الاسوار متباعدة ، وأحست جانين بقدميها وقد اضناهما السير ، لكن زوجها ، أخذت تبدو عليه علائم الانشراح ، فقد بدأ يبيع بضاعته ، فرهف احساسه ، وشرع يلاطفها الحديث داعياً اياها « يا طفلتي » ، ويؤكد لها ان الرحلة ستكون مجدية مثمرة ، فترد عليه بالايجاب ، ويمضي هو الى القول ، بأن من الخير ، التعامل مع التجار مباشرة ودون وسيط .

وعادا من شارع آخر ، الى مركز البلدة ، وكان النهار ، قد كاد ينصرم ، وصفت السماء تماماً . وتوقفا في الباحة . وتطلع مارسيل الى الحقيبة جذلاً وفرك يديه بسرور . وقالت جانين « انظر » ، فقد جاء من طرف الباحة ، عربي فارع العود ، نحيل القامة ، نشيط المشية ، وقد ارتدى عباءة في زرقة السماء ، ونعلين بنيين من المطاط ، وفي يديه قفازان ، يرفع وجهه الهادىء الذي لفحته الشمس بكبرياء . ولم يكن يميزه عن هؤلاء الضباط الفرنسيين ، الذين يعنون بالشؤون المحلية لأهل

البلاد ، والذين طالما اعجبت بهم جانين كل الاعجاب ، الا هذه العمامة التي وضعها على رأسه . كان يتقدم باضطراد منهما ، ولكن نظرته كانت تمتد الى ما وراءهما ، وقال مارسيل : « حسناً » ، انه يعتقد نفسه « جنرالاً » . ومن الحق ، ان جميع من رأتهم جانين في هـذه البلدة ، يبدو عليهم الكبرياء ، لكن هذا الشخص بالذات ، غـالى في كبريائه وتعاليه . وعلى الرغم ، من ان الباحة كانت خـالية ، وليس حولهما أي انسان ، الا انـه بدا متجهاً تماماً نحو الحقيبة دون ان يراها ، او يراهما . وتقلصت المسافة التي تفصلهما عنه ، ووصل العربي اليهما ، وفجأة امسك مارسيل بالحقيبة ، وابعدها عن طريقـه ، فمر العربي ، وكأنه لم يلاحظ شيئـاً ، متجهـاً الى الاسوار . وتطلعت جانين الى زوجها ، فرأت في عينيه تلك النظرة اليائسة وقال : « انهم يعتقدون الآن ، ان بوسعهم ان يعملوا ما يحلو لهم . » . ولم ترد جانين . فقد امتعضت من تلك الحماقة البليدة التي ابداها العربي ، وأحست فجـأة بشعور من التعـاسة . وودت لو تعود الى شقتها الصغيرة . ولم تطرب ، لفكرة العودة الى الفندق ، والى تلك الغرفة المتجمّدة . وتذكرت فجأة ان مدير الفندق نصحها بالصعود الى الشرفة المحيطة بالقلعة ، لترى الصحراء منها . واقترحت الفكرة على مارسيل ، ذاكرة ان بوسعه ترك الحقيبة في الفندق ، ولكنه كان تعباً ، وقد اراد ان ينـام قليـلاً قبل العشاء . وقالت جانين : « ارجوك » . فتطلع اليها ، وكله اهتمام وقال « طبعاً ، يا عزيزتي » .

ووقفت في الشارع أمام الفندق ، تنتظر عودته ، فرأت الجمهور من ذوي الملابس البيضاء . يزداد عدده شيئاً فشيئاً ، ولم تظهر امامها امرأة واحـدة ، وخيل لجانين ، انهـا لم تر مثل هـذا العدد الكبير من الرجـال من قبل . لكنهم جميعاً لا ينظرون اليها ، ورأت بعضهم ، دون ان يبدو

عليهم ، شعور بوجودها ، يلتفتون نحوها ببطء ، وابصرت فيهم جميعاً نفس ذلك الوجه النحيل ، الذي لفحته الشمس والذي رأته في الجنـدي الفرنسي في السيارة ، أو في ذلك الرجل العربي الذي مر بهما في الباحة . انه وجـه واحد ، تبدو فيه الصلابة والكبرياء . وكانوا يتطلعون بهذا الوجه الى المرأة الغريبة ، ولا يبدو عليهم احساس بوجودها ، ثم يمرون بها هادئين صامتين . واشتدت بهـــا الرغبة العاصفة الى الخروج من هذا المكان ، فقد احست بالضيق ، وساءلت نفسها : « لماذا جئت » ؟ . ولكن ها هو مارسيل قد عاد .

وكانت الساعة الخامسة عندما ارتقيا السلم الى القلعة . وكانت الرياح قد توقفت تماماً ، وظهرت السماء صافية زرقاء ، وتحوّلت البرودة الى جفاف شديد ، الهب وجناتهما . وعندما وصلا ، الى منتصف السلم ، انبرى لهما عربي عجوز ، كان يستند الى الجدار ، يعرض عليهما خدماته كدليل ، دون ان يلحّ ، وكأنه كان واثقاً من رفضهما لهذه الخدمات مقدماً . وكان الدرج طويلاً وعمودياً ، على الرغم من بعض الفسحات ، من الارض الترابية ، ومضيا في صعودهما ، وأخذ مدى النظر يتسع امامهما الى ان وجدا نفسيهما يغمرهما فضاء شامل ، فيه برودة ، وفيه جفاف ، وعبر هذا الفضاء ، تصل الى مسامعهما كل نـأمة تصدر عن الواحة ، واضحة ، صافية . وبـدا الهواء الذي يلفهما ، يهتزّ ، وقد طالت الاهتزازات ، مع صعودهما وكان سيرهما ، يحدث في الضوء البلوري ، موجات صوتية ، آخذة في الانتشار . وعندمـا وصلا الى الشرفة ، وضاعت نظراتهما ، عبر الافق الواسع الممتد وراء غابة النخيل ، خيل لجانين ، ان السماء كلها ، تردد نغمة قصيرة حادة ، يملأ رجعها الفراغ الذي يعلوها ، ثم سرعان ما يختفي ، ويضيع ، تاركاً اياهـا ، تواجه بصمت الفراغ الذي لا حدود له .

وسرحت نظرتها من الشرق الى الغرب ببطء ، دون ان تلقى ، ما يعترضها ، في انحناءة كاملة . ورأت تحتها الشرفات البيضاء والزرقاء في البلدة العربية ، تحتضن بعضها بعضاً ، وقد رصعتها بقع حمراء داكنة من الفلفل الذي يجففه اهل البلدة في الشمس . ولم يكن في وسعها ان ترى احداً ، ولكن من الباحات الداخلية ، انبعثت مع اريج البن الذي « يحمّصونه » ، اصوات ضاحكة ، او وقع اقدام خافتة . وهناك ، في غابة النخل البعيدة ، رأت الواحة مجزأة الى مربعات غير متساوية ، تفصلها اسوار من الطين ، تعلوها ، اوراق خضراء ، تتلاعب بها الرياح التي لم تحس بها ، وهي في مكانها . ووراء تلك الغابة ، والى الافق البعيد ، تمتد سلاسل رمادية وسوداء من الصخور ، لا اثر للحياة فيها . ومع ذلك ، فقد ابصرت عن كثب من الواحة ، وعلى مقربة من ذلك الوادي الذي يحد غابة النخيل من ناحية الغرب ، خياماً سوداء واسعة ، تحيط بها جماعات من الابل ، لا حراك بهـا ، تبدو صغيرة لبعدها الشاسع ، وكأنها تخط على الارض الرمادية ، احرفاً سوداء ، من لغة غريبة يحتاج تفسيرها الى حل وشرح . وانتشر السكون فوق الغابة واسعاً ، شاملاً ، كاتساع الفراغ وشموله .

واتكأت جانين بجميع جسمها على جدار الشرفة ، صامتة ، لا تستطيع ان تفصل نفسها عن هذا الفراغ البعيد الممتد امامها . ووقف الى جانبها مارسيل ، وقد بدأ يشعر ، بفروغ الصبر ، ويحس بالبرد ، تواقاً الى الهبوط والعودة ، ولم يدر ما الذي يستهويها في هذا المكان . ولكنها لا تستطيع ، ان تعود ببصرها عن الافق البعيد ، وبدا لها ، ان هناك ، في الافق ، ناحية الجنوب ، حيث تلتقي السماء بالارض في خط واضح ، شيئاً ينتظرها ، كانت تفتقده دائماً ، ولم تحس به الا في هذه اللحظة . ومع مضي النهار بدأ

الضوء يسترخي ، ويتحول من صورة الاشعاع الى حالة السيولة . وفي الوقت نفسه ، أخذت تلك العقدة ، التي القى بها الحظ في فؤادها ، والتي تشابكت بفعل السنين ، والعادة والضجر ، تنحل شيئاً فشيئاً . انها تتطلع الى مخيم البدو . وهي لم تر رجاله من قبل ، كما لم تر الآن ، اية حركة داخل الخيام السوداء،ولكن فكرها لا ينصرف عن وجود هؤلاء الذين يقيمون فيه والذين تجهل عنهم كل شيء ، الا انهم حفنة من الناس لا وطن لهم ، انقطعوا عن العالم ، واخذوا يتجولون ، في تلك الارض الفسيحة التي تراها ، والتي ليست في الحقيقة الا جزءاً صغيراً ، من فراغ شامل لا ينتهي الا بعد ألوف الاميال في الجنوب ، حيث يروي ، أول نهر من الانهار ، الغابات المحيطة به ، ومنذ بداية الازل ، ظلت هذه الحفنة من الرجال ، تتجول في هذه الارض الجافة التي لا حدود لها ، لا تملك شيئاً ، ولكنها لا تخضع لانسان ، وتعيش في ضنك وفاقة ، ولكن مسيطرة على ملكوت غريب . ولم تدر جانين لماذا بعثت فيها هذه الفكرة احساساً من الحزن العميق العذب ، حتى انها اغلقت عينيها ، وعرفت انها منذ الازل قد وعدت بهذا الملكوت الغريب ، الذي لن يكون لها فيما بعد ، الا في هذه اللحظة العابرة الطائرة ، عندما تفتح عينيها ، ثانية لترى السماء الساكنة ، وترى امواج ضوئها الهادئة ، بينما تخفت الاصوات المنبعثة من البلدة العربية بصورة مباغتة . وبدا لها ، ان سير الزمن قد توقف ، وانه منذ هذه اللحظة لن تدب الشيخوخة الى انسان ، او يلحق الموت ببشر . فقد تجمّدت الحياة منذ الآن في كل مكان الا في فؤادها ، حيث تحس فيه بانسان يبكي بحرقة ودهشة .

لكن الضياء بدأ بالحركة . وأخذت الشمس وقد خلت من دفئها تهبط باتجاه الغرب ، الذي غدا الى حد ما قرمزي اللون ، بينما تشكلت في الافق

الشرقي موجة رمادية ، تتأهب للزحف على المدى الفسيح . وعوى أول كلب ، وارتفع نباحه ، البعيد في الهواء البارد ، ولاحظت جانين ان اسنانها اخذت تصطك ، وقال مارسيل « لا ريب في اننا سنموت من شدة البرد ، لا تكوني حمقاء ، دعينا نعود » . وأمسك بيدها ، بصورة غريبة . وغدت الآن طيعة ، فأدارت وجهها عن الحاجز ، وتبعته . واخذ العربي العجوز الواقف على السلم ، يرقبها وهما نازلان ومتجهان الى المدينة دون ان يتحرك . ومشت وكأنها لا ترى أي انسان ، واخذت تجر جسمها الذي شعر باعياء شديد يحل به ، وأحست بأنه قد غدا اثقل مما تطيق . وتخلى عنها ذلك الاحساس بالعظمة ليحل محله احساس آخر بأنها أكثر طولاً وبدانة وبياضاً مما يتفق مع هذا العالم الذي دخلته . وخيل اليها ، ان الطفل ، والفتاة ، والرجل النحيل وابن آوى السارق المخادع ، هي المخلوقات الوحيدة التي يمكن لها ان تسير بهدوء فوق تلك الارض . وماذا بوسعها ان تعمل هنا . بعد الآن إلا ان تجر نفسها الى النوم ، والى الموت .

وجرت نفسها على الرغم منها الى المطعم ، مع زوجها الذي غدا فجأة ، صامتاً لا يفوه بشيء الا القول بأنه متعب للغاية ، بينما كانت هي تجاهد بضعف ضد برد أحست به ، مصحوباً بارتفاع في درجة حرارتها . وسحبت نفسها الى سريرها ، حيث جاء مارسيل لينضم اليها بعد قليل ، مطفئاً النور فوراً دون ان يطلب اليها شيئاً . وكانت الغرفة ، شديدة القر ، وأحست جانين بالبرد يزحف اليها ، بينما واصلت حرارتها في الارتفاع ، واخذت تتنفس بصعوبة ، واستمر الدم يسير في عروقها دون ان يمنحها الدفء ، ونما في قرارة نفسها خوف شديد ، واستدارت في السرير الحديدي « الذي أنّ تحت وطأة ثقلها . لا . انها لا تريد ان تمرض ، لقد نام زوجها ، وعليها أيضاً ان تنام بدورها ، فهذا أمر جوهري . واخذت أصوات المدينة المكبوتة ، تصل

اليها عبر الكوة القائمة في السقف ، ووصلت اليها أصوات الاسطوانات ، التي تعزف على أجهزة الحاكي القديمة في مقاهي الشارع ، منقولة في مجموعات بطيئة. لا . يجب أن تنام ، ولكنها وراء جفنيها المسدلين ، تعد الخيام السوداء ، وترى الجمال ، الساكنة ترعى كلأها ، وتحس بفراغات هائلة تحوّم في باطنها . نعم لماذا جاءت ؟ وهنا بعد ان وجهت لنفسها هذا السؤال ، أغفت ، وراحت في سبات عميق .

واستيقظت بعد وقت قصير ، ورأت السكون يخيّم حولها تماماً . ولكن ها هي الكلاب التي بُحّ صوتها تنبح ، في أطراف البلدة ، قاطعة سكون هذا الليل الهادىء . وارتجفت جانين ، وأدارت جسمها ، وأحست بكتف زوجها الخشن يحتك بكتفها ، وفجأة ، التصقت به وهي نصف نائمة . لقد كانت تعوم على سطح بحر النوم ، دون ان تغوص فيه ، وأمسكت بذلك الكتف بلهفة لا واعية ، وكأنه ملجؤها الامين . ورأت نفسها تتحدث ، دون ان تنطق بكلمة واحدة ، انها تتحدث ، ولكنها لا تسمع ما تقوله . ان ما تحس به ليس الا الدفء من مارسيل . وها قد مضت عليها أكثر من عشرين عاماً ، وهي تحس بهذا الدفء منه كل ليلة ، وهما وحيدان ، حتى ولو كانت مريضة ، أو على سفر ، كما هو شأنها هذه الليلة . ثم ماذا كان بوسعها ان تعمل وحيدة في البيت ، لو لم تأت معه ؟ لا طفل يؤنسها ؟ أليس هذا هو ما تفتقر اليه ؟ انها لا تدري . انها تتبع مارسيل مسرورة لمجرد انها تعرف بان ثمة شخصاً يحتاج اليها . هذه هي المسرة الوحيدة التي يمنحها اياها ، وهي ان يجعلها تشعر بضرورتها له . ومن المحتمل انه لم يحبها قط . فالحب ، حتى ولو كان ممتزجاً بالكراهية لا يحمل ذلك الوجه العابس . ولكن ما شكل وجهه ؟ انهما يمارسان عملية الحب بالاحساس ، في الظلام ، دون ان يرى الواحد منهما وجه الآخر . هل هناك نوع آخر من الحب ، غير

حب الظلام ، حب يصرخ عالياً في وضح النهار . انها لا تدري ، ولكنها تعرف ان مارسيل يحتاجها ، وانها تحتاج الى تلك الحاجة ، وانها تعيش عليها ليلها ونهارها ، ولا سيا في الليل ، بل كل ليلة ، عندما لا يود ان يكون وحيداً ، أو ان ينتقل الى مرحلة الشيخوخة ، او مرحلة الموت ، وهي تدرك هـذا الاحساس من جانبه بمـا يتراءى على وجهـه من ملامح ، كثيراً ما رأتها في الماضي على وجوه الرجال الآخرين وهي ملامح شائعة ، التعبير ، في وجوه المجانين الذين يحاولون اخفاء جنونهم تحت ستار من الحكمة ، الى ان يسيطر عليهم الجنون تماماً ، ويحملهم على القاء انفسهم في احضان امرأة ليدفنوا في جسدها ، دون اية رغبة او شهوة ، كل ما يخشونه من الوحدة والليل .

وتحرك مارسيل ، وكأنه يريد ان يبتعد عنها ، لا ، انه لا يحبها ، وهو يخاف من الذي لا تخاف منه ، وكان من واجبها ان يفترقا ، منذ امد بعيد، وان يناما بعيدين عن بعضها حتى النهاية ، ولكن من يستطيع النوم دائماً وحيداً ؟ . ان بعض الرجال ينامون وحيدين ، اذا افترقوا عن نسائهم بسبب اعمالهم : او نتيجة مصيبة او كارثة ، فيذهبون كل مساء الى فراشهم وكأنهم ينامون مع الموت . ولن يستطيع مارسيل ان يفعل هذا ، فهو قبل كل شيء ، طفل ضعيف لا سلاح له ، يخاف دائماً من الألم . انه طفلها الذي يحتاج اليها دائماً ، وهو نفسه الذي صدرت عنه هذه اللحظة صيحة متقطعة . واقتربت منه اكثر فاكثر ، ووضعت يدها على صدره . وناجته بذلك الاسم الذي اطلقته عليه ذات مرة رمزاً لمحبتها له وتدليلها اياه ، والذي ما زالت تستعمله بين آونة واخرى ، دون ان تفكر في ما يعنيه حقيقة .

ونادته بجماع قلبها ، فهي تحتاج اليه ، والى قوته ، والى بعض ما يبديه

من شذوذ ، وهي ايضاً تخشى الموت . وقالت لنفسها « لو تمكنت من التغلب على هذا الخوف لاصبحت سعيدة » . وخيم عليها على الفور ، شعـــور من الحزن ، لا اسم له . وابتعدت قليلا عن مارسيل . لا انها لا تتغلب على اي شيء ، انها ليست سعيدة ، وستموت دون ان تتحرر في الحقيقة . وأحست بالألم في فؤادها ، وانها تقع تحت عبء ثقيل اكتشفته الآن ، بعد ان ناءت بحمله عشرين عاماً . وها هي تجاهد والعبء يعلوها ، بكل ما لديها من قوة . انها تريد ان تتحرر ، حتى ولو لم يتحرر مارسيل أو يتحرر الآخرون . ورأت نفسها في يقظة تامة ، فجلست في سريرها ، واستمعت الى هاتف بدا قريباً منها . ولكنها لم تسمع في الحقيقة الا عواء كلاب الواحة وقد لحق بها الاعياء دون الملل ، تقطع سكون الليل وتقرع آذانها . وارتفعت ريح خفيفة ، وسمعت مياهها الناعمة ، تخر في غابة النخيل . انها تأتي من الجنوب حيث تختلط الآن الصحراء بالليل ، تحت سماء لا تتغير ، وحيث توقفت الحياة ، فلا شيخوخة ولا موت . وسمعت صوت مياه الرياح تخفت لان المياه قد جفت ، ولم تكن واثقة من انها قد سمعت شيئاً الا هاتفاً صامتاً ، في وسعها ان تخرسه ، او تلاحظه . ولكنها لن تستطيع ان تفهم معناه ابداً إلا اذا استجابت له حالاً ، نعم حالاً ، فهذا هو الامر المؤكد على الاقل .

ونهضت بهدوء ، ووقفت دون حراك بجانب السرير ، تصغي الى صوت تنفس زوجها العميق . كان مارسيل نائماً . وأحست على التـــو ، ان دفء السرير قد فارقها وأمسك البرد بخناقها . فارتدت ملابسها ببطء ، اذ أخذت تبحث عنها ، مستعينة بالضوء الخافت المتسرب عبر الستائر من مصابيح الشارع . ووصلت باب الغرفة ، وحذاؤها في يديها . ووقفت برهة اطول في الظلام ، ثم فتحت الباب بهدوء ونعومة . وسمع له صرير ، فوقفت جامدة

في مكانها . وكان قلبها يخفق بشدة واصغت ، بكل حواسها ، وقد توترت اعصابها ، فلما اطمأنت الى الهدوء ، عادت فحركت اكرة الباب ثانية . وبدا لها ان دورة هذه الاكرة لا تنتهي . واخيراً اتمت فتحه ، وتسللت الى الخارج ، ثم اغلقته بنفس الخفة والهدوء . ووضعت خدها على خشب الباب وانتظرت لحظة اخرى ، وسمعت تنفس مارسيل العميق ، فادارت وجهها ، وأحست بصقيع هواء الليل ، يصفع خديها ، وركضت عبر الشرفة . ووجدت الباب الخارجي مغلقاً . وعندما كانت تحرك المزلاج ظهر الحارس الليلي ، في رأس السلم ، وقد سيطر عليه النوم ، فحدثها بالعربية ، ولكنها ردت عليه قائلة ، « سأعود » ثم خرجت الى الليل .

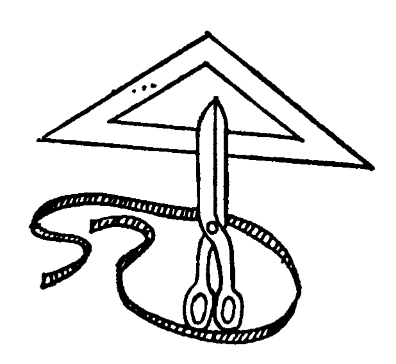
وتدلت اكاليل النجوم من السماء المعتمة ، فوق اشجار النخيل ، وبيوت البلدة . وركضت في الشارع الرئيسي القصير ، الخالي في هذه الساعة ، والممتد الى القلعة . ولم يكن البرد الآن في حاجة الى مكافحة الشمس ، أو مجاهدتها ، فقد ساد الليل ، وأحست بالهواء الثلجي، يخترق رئتيها . ولكنها ركضت ، وهي تكاد تكون مغمضة العينين في الظلام الدامس . وبدت الأنوار في قمة الشارع ، ثم تهادت نحوها معوجة في سيرها ، وتوقفت جانين في مكانها ، وسمعت حفيف عجلات تدور ، ثم رأت وراء الاضواء ، التي أخذت تكبر شيئاً فشيئاً عباءات واسعة تمتطي ، دراجات هزيلة . ورفرفت العباءات بجانبها ، ثم قفزت ثلاثة اضواء حمراء ، من الظلام الذي يقوم خلفها ، ولكنها ما لبثت ان اختفت . وواصلت ركضها باتجاه القلعة . وعندما وصلت منتصف السلم ، كان الهواء يكاد يخرق رئتيها ، حتى انها ارادت ان تتوقف . وواتتها دفقة اخيرة من الحيوية اوصلتها الى الشرفة ، فوقفت الى سورها ، وضغطت عليه بصدرها . كانت تلهث ، وشعرت بكل ما حولها يدور ، ولم يفدها ركضها في بعث الدفء في جسمها ، اذ ما زالت

ترتجف من البرد . لكنها اخذت تعب الهواء البارد ، فيسري في داخلها ، معطياً اياها ومضة من الحرارة التي بدأت تضيء في صدرها وأخيراً فتحت عينيها على المدى الفسيح في الليل .

ولم يعكر صفو الوحدة التي تلفها، أو الهدوء الذي يحيط بها، أي صوت، او تنفس . الا ما يصدر هنا أو هناك احياناً من حركة خافتة سببها تهشم الصخر من جراء البرودة ، وتحوله الى رمال ، وخيل اليها بعد لحظة ، ان السماء فوقها تتحرك في نوع من الدوران . وكانت الوف الكواكب ، تبدو ، في جنبات ذلك الليل البهيم البارد الجاف ، وأخذت مذنباتها البراقة ، عند انفلاتها ، تنزلق تدريجياً نحو الافق . ولم تستطع جانين ان تبعد نفسها عن تصور هذه الأشعة المتمايلة . فقد احست انها تتمايل معها ، وتراءى لها ، انها قد ادركت مع تقدمها التدريجي ، اساس وجودها ، حيث يلتقي البرد والشهوة ، فيتباريان في التأثير عليها . وخيل اليها انها ترى النجوم تتساقط واحداً اثر اخر لتضيع بين صخور الصحراء ، وفي كل مرة ، كانت جانين تفتح نفسها لليل . وبدأت تتنفس تنفساً عميقاً وقد نسيت البرد ، وهموم الآخرين ، وجنون الحياة وبلادتها ، والألم الطويل للحياة والموت . فبعد هذه السنوات الطويلة من الفرار الجنوني الذي لا هدف له من الخوف ، توقفت اخيراً . وبدا لها في الوقت نفسه انها قد استعادت جذورها ، وسرت العصارة ثانية في جسدها الذي توقف عن الارتجاف . وضغطت ببطنها على حاجز الشرفة، بينما كانت تجهد اعصابها متطلعة الى السماء المتحركة ، وكانت تنتظر من قلبها الخافق ان يهدأ ، وان يعيد السكون الى نفسها . والقت المجموعات الاخيرة من النجوم باضوائها على مكان اشد انخفاضاً في افق الصحراء ثم هدأت . وآنذاك ، بنعومة لا يمكن احتمالها ، بدأ ماء الليل ، يملأ جانين ، فيغرق بردها ، وانبعثت من احاسيسها الخفية ، في مركز

وجودها ، انطلاقات متموجة من اللذة ، موجة تتبع أخرى ، متصاعدة الى فمها الذي امتلأ بالتأوهات . وامتدت السماء في اللحظة التالية فوقهـــا ، اذ سقطت على ظهرها ، فوق اديم الارض الباردة .

وعندما عادت جانين الى الغرفة ، متخذة نفس الاحتياطات التي اتبعتها عند خروجها ، لم يكن مارسيل ، قد افاق من نومه . ولكنه احدث صوتاً ، عالياً ، بعد لحظات من صعودها الى الفراش ، وبعد ثوان كان يجلس الى جانبها . لقد حدثها ، ولكنها لم تفهم شيئاً مما قاله . فنهض واشعل الضوء ، الذي بهر عينيها . وترنح متجهاً الى حوض الاغتسال ، حيث شرب جرعة كبيرة من زجاجة المياه المعدنية . وكان على وشك ان ينزلق بجسمه بـــين الاغطية . بعد ان وضع احدى ركبتيه على السرير ، عندما تطلع اليهـــا ، دون ان يفهم شيئاً . لقد رآها تبكي بحرقة ، وهي عاجزة عن كبت دموعها وعواطفها . ثم سمعها تقول له : لا شيء ، يا عزيزي ، لا شيء .





المارق



يا له من ارتباك ! اجل يا له من ارتباك ! فعلي أن ارتّب فكري وأن انظمه . فمنذ اللحظة التي قطعوا فيها لساني ، وأنا اشعر بلسانٍ آخر ، يهتز في مكان ما من رأسي ، وأحس بشيء أو بشخص يتكلم ، ثم يصمت فجأة ، ليعود بعد قليل فيستأنف الكلام . آه ، اني اسمع اشياء كثيرة ، لا ينطق بها لساني ابداً ، انها لحيرة كبيرة . وعندما افتح فمي ، اجد الحصى وكأنها تصطدم ببعضها في داخله . واسمع لساني يقول : النظام والاسلوب ، ثم ينتقل الى الحديث عن مسائل اخرى في وقت واحد . أجل لقد كنت دائماً تواقاً الى النظام . على الأقل ، أنا واثق من شيء واحد وهو انني انتظر بفارغ الصبر ، وصول « المبشر » الذي سيأتي ليحل محلي . وها أنا اقف على الطريق ، على بعد ساعة من تاغاسا ، مختفياً وراء كومة من الصخر ، والى جانبي بندقية قديمة . وها هو الفجر يبزغ على الصحراء ، وما زال الطقس بارداً للغاية ، ولكنه لا يلبث ان ينقلب الى قيظ شديد الوهج . ان هذه البلاد ، تحمل الناس على الجنون ، وقد قضيت فيها حتى الآن سنوات كثيرة نسيت عددها ... لم يبق امامي الا وقت قصير . فالمبشر سيصل هـــذا

الصباح ، أو في المساء . وقد سمعت بأنه سيأتي مصطحباً احد الأدلاء ، وليس معهما الا بعير واحد . سأنتظر ، وها أنا أنتظر ، ولا ريب في ان البرد ، هو الذي يحملني على الارتجاف . تجمّل بالصبر قليلاً ، أيها العبد القذر !

ولكنني صبرت طويلاً. فمنذ ما كنت في البيت ، فوق تلك الهضبة العالية في المنطقة الوسطى ، الى جانب والدي الخشن الطباع ، ووالدتي الشرسة ، وكنت اتناول حساء الخنزير في كل يوم ، والنبيذ الحاذق الطعم الشديد البرودة ، واقضي الشتاء الطويل مصاحباً رياحه القاسية ، وتياراته الثلجية ، ونباتاته الثائرة ، كنت اتوق ، الى الخلاص من هذا الجو ، والابتعاد عنه ، لأعيش في مكان اغبّ فيه من ضوء الشمس : وأعب من الماء العذب ، وكنت اثق بذلك القسّ ، الذي كان يحدثني كل يوم عن معهد اللاهوت ، ويثقفني في شؤون الدين، فقد كان لديه، وقت فراغ طويل، في تلك المنطقة البروتستانتية، حيث تعود على الالتصاق بالجدران والامساك بها ، وهو في طريقه ، يذرع القرية طولاً وعرضاً . وقد حدثني عن المستقبل ، وعن الشمس ، وكثيراً ما صور لي المذهب الكاثوليكي بانه الشمس ، وقال انه سيعلمني اللاتينية ، ويدخلها في هذا الرأس القاسي ، الذي رغم ما اصابه من كدمات من جراء سقطات ، لم تنزف منه نقطة واحدة من الدماء ، وكان والدي الخنزير كثيراً ما يلقبني بصاحب « رأس الثور » . ورأيتهم في المعهد ، جد فخورين بمجيئي ، اذ ان اقناع طالب بروتستنتي ، بدراسة الكثلكة ، نصر كبير ، وقد استقبلوني كما تستقبل الشمس في دوستر ليتز . وكانت الشمس ، شاحبة ، وضعيفة ، بسبب الكحول ، فقد شربوا النبيذ الحاذق الطعم ، ورأيت اسنان الاطفال ، وقد اصطكت على بعضها ، وكأن الواحد منهم يريد قتل ابيه ، ولكن ليس هناك من خطر على اية حال ، من اندفاعه في اعمال

التبشير ، اذ انه قد مات منذ عهد بعيد ، وقد نفذت الخمر اللاذعة الى معدته ، ولم يبق امامه الا ان يقتل المبشر ذاته .

وثمة امور يجب ان اسويها معه ومع اساتذته ، اجل مع اساتذتي الذين خدعوني . بل مع اوروبا القذرة جميعها ، فقد خدعني الكل . ان كل ما استطاعوا قوله لي ، ان علي ان امضي في اعمال التبشير ، وان امضي الى المتوحشين قائلاً لهم « ها هو الرب . انظروا اليه ، انه لا يضرب ولا يقتل ، بل يصدر اوامره في صوت خفيض ، ويدير خده الآخر ، انه اعظم المعلمين فاختاروه . انظروا ، كيف اصلح من امري ، وجربوا ان تسيئوا الي ، وسترون » . نعم ، لقد صدّقت ، وبدأت اشعر باني أحسن حالاً ، واخذ وزني يزداد ، فقد كنت رشيقاً دائماً ، واردت ان يسيئوا الي . وعندما كنا نخرج من المعهد ، في صفوف سوداء متراصة ، في الصيف ، تحت شمس غرينوبل اللاهبة ، وكنا نقابل فتيات في ملابسهن القطنية ، فلا اتطلع اليهنّ ، لأني احتقرهن ، وكنت انتظر منهن ان يسئن الي ، وكثيراً ما رأيتهنّ يضحكن . وكنت في مثل هذه الاحوال ، افكر واحدث نفسي قائلاً : « ليتهنّ يضربنني ، ويبصقن في وجهي » . لكن ضحكاتهن ، اذا ارادت قول الحقيقة ، كانت تؤدي الى نفس النتيجة ، فقد كانت ملأى بصريف الاسنان ، وبالسخرية ، التي تمزقني ارباً وكنت اشعر بالسعادة من الاساءة ومن احتمال الالم . ولم يكن الراهب الذي اعترف له ، قادراً على فهمي ، عندما كنت اكيل امامه الاتهامات على نفسي ويقول : « لا . لا ، ان فيك خيراً » . خير ! لم يكن في الا نبيذ لاذع الطعم ، وهذا كل ما يحملني على الاتجاه نحو الافضل . فكيف بوسع الانسان ، ان يصبح افضل اذا لم يكن في البداية سيئاً . ولا شك انني التقطت هذا في كل ما علموني اياه . بل هذا كل ما التقطه ، فكرة واحدة ، حملها ذلك الطفل الذكي

ذو الرأس الذي يشبه رأس الخنزير ، واستخلص منها النتائج المنطقة .
وكنت كثيراً ما اخرج عن السبيل السوي ، لأنال العقوبة ، مستخفاً بكل ما هو عادي طبيعي ، فقد كنت بالاختصار اريد ان اكون مثلاً يحتذى ، بحيث يراني الناس ، وبعد رؤيتهم لي ، يعترفون بفضل ما اصلح من امري ، فيحمدون الرب عن طريقي .

آه ، ها هي الشمس الفظيعة ! انها تشرق ، وبدأت الصحراء تتغير ، فقد اضاعت اللون الزاهي ، الذي كان يظهرها ، في لون الجبال . آه ايها الجبل الحبيب ، والثلج فوقك ، يلفك من كل ناحية ، لا ان اللون اصبح يميل الى الصفرة الرمادية ، انها اللحظة البشعة التي تسبق التألق . ومع ذلك ، فليس هناك من شيء ، يقف حاجباً ، بيني وبين الافق البعيد هناك ، حيث تختفي الهضبة في دائرة من الالوان الناعمة الهادئة . وتصعد الطريق ورائي الى الكثيب الذي يخفي تاغاسا ، التي ظل اسمها الحديـــدي يقرع رأسي عدة سنوات . كان اول من ذكرها لي ذلك القسّ ، النصف اعمى ، الذي جاء متقاعداً الى ديرنا . ولكن لماذا اقول انه اول من ذكرها ، انـــه الوحيد الذي ذكرها ، ولم يكن ما اثارني في وصفه لهـا ، قوله بأنها مدينة الملح ، وان اسوارها البيضاء تمتـــد تحت السماء ، التي تغشى الابصار ، بل حديثه عن قسوة اهلها المتوحشين ، وعن انها مدينة محرمة على جميع الغرباء وان واحداً فقط من الذين حاولوا الدخول اليها ، قد عاش ، حسب معرفته، ليتحدث عمّا رآه . لقد ضربوه بالسياط ، وأخرجوه الى الصحراء ، بعد ان ملأوا الجراح التي اثخن بها ، بالملح ، كما ملأوا فمه بالملح ايضاً ، وقد رآه بعض البدو ، فشعروا للمرة الوحيدة بالرأفة عليه ، كفلتة من فلتات الحظ ،وبدأت منذ تلك اللحظة ، احلم بهـــذه القصة ، وبالنار الملتهبة من الملح والسماء ، وببيت الاصنام ، وما فيه من عبيد ، فهـــل هناك ، ما هو اكثر وحشية

واثارة للخيال ، من هذه القصة . اجـل ، هذه هي رسالتي ، وعلي ان اذهب ، لاكشف لهم عن ربي .

وقد اسهبوا جميعاً في الحديث عن الموضوع في المعهـــد ، محاولين تثبيط عزيمتي ، مشيرين الي بضرورة الانتظار ، اذ ان البلاد ليست من الصالحـــة لاعمال التبشير ، واني لم استعد بعد لهذه المهمة ، فعلي ان اعـــد نفسي اولاً بصورة خاصة ، وان اعرف حقيقتي ، ثم أجتـــاز عدداً من الاختبارات والامتحانات ، وآنذاك سيقررون. ولكن هل انتظر ، واستمر في الانتظار؟ لا ! بالطبع سأقبل ، اذا اصروا ، على الاستعداد الخاص والاختبار ، لان هـذه الامور تتم في الجزائر ، وتجعلني قريباً من المدينة التي احلم بهـا ، أما بصدد الاشيـاء الاخرى ، فقد هززت رأس الخنزير الذي احمـله ، رافضاً ، وكررت نفس الشيء ، وهو الرغبة في العيش بين اشد الناس وحشية ، وان افعل مـا يفعلون ، لاكتسب ودهم ، ثم اظهر لاهل « بيت الاصنام » عن طريق الامثلة ان حقيقة ربي هي التي ستتغلب . وسوف يسيئون لي بالطبع ، ولكني لم اكن خائفاً من الاساءة ، فهي ضرورية لتمثيلي ، وسأظهر باحتمالي لها ، أن يدي هي العليا ، على هؤلاء المتوحشين ، مثلها مثل الشمس القوية . وكلمة « القوة » هي القوة التي كنت اجدها دائمـاً ، واقفة على لساني ، فقد كنت اتعشق القوة المطلقة ، التي تجعـل الناس يركعون ، وترغم الاعداء على التسليم، وتهديهم الى الحق بالاختصار، وكلما كانوا، اكثر قسوة ، واشد عمى ، واقوى ثقة بانفسهم ، وايماناً بمعتقداتهم ،كلما ، اقام اذعانهم الدليل على جلال من تمكن من اخضاعهم . ولقد كانت هداية الناس الطيبين الذين ضلوا بعض الضلال ، المثل الهزيـــل ، لكهنتنا الذين كنت احتقرهم ، لانعدام الجرأة عندهم ، بينما في وسعهم ان يعملوا الكثير ، ولكنهم يفتقرون الى الايمان ، بينما انا غني به ، واردت ان يعترف بي معذبي ، وان ارغمهم على الركوع ،

واجبرهم على القول : « يا رب ، هذا هو انتصارك » . أردت ان احكم ، بقوة الكلام الضعيفة جيشاً من غلاظ القلوب . وكنت واثقاً من قدرتي على الجدل المنطقي ، حول هذا الموضوع ، واثقاً من نفسي كل الثقة ، فقد تعودت عند تبني اية فكرة ، ان لا اتخلى عنها ، ولعل هذا هو مصدر قوتي ، أجل مصدر قوة ذلك الشخص الذي يشفقون عليه .

لقد ارتفعت الشمس في كبد السماء ، وبدأت جبهتي تحترق . وأخذت الصخور حولي تتشقق ، باعثة صوتاً خافتاً . وكانت « ماسورة » البندقية هي الشيء البارد الوحيد ، برود الحقول ، عندما يتساقط عليها مطر السماء .

وهم ينتظرونني . وقد بدأ الحساء يبرد، والدي ووالدتي، فيبتسمان لي عند عودتي . آه . ربما كنت احبهما . ولكن هذه أمور من الماضي البعيد . وقد بدأ شريط من الحرارة يرتفع من الطريق . آه . تعال ايها المبشّر . فانا بانتظارك . وفي وسعي الآن أن ارد على الرسالة . فقد علمنيها سادتي الجدد . وانا واثق من انهم على حق . فعليك ان تصفي حساباتك مع ذلك الموضوع المتعلق بالحب . وعندما فررت من الاكاديمية في الجزائر ، كانت لدي فكرة مختلفة تمام الاختلاف عن المتوحشين . ولم يكن من مجموعة الخيالات التي كنت احملها عنهم ، ما يمت الى الحقيقة بصلة الا انهم في منتهى القسوة . وقد سرقت مكتب امين الخزانة . والقيت بملابسي الدينية جانباً . وعبرت جبال الاطلس . ثم الهضاب العليا والصحراء . وهزأ بي سائق سيارة الباص التي تقطع الصحراء وقال : « لا تذهب الى هناك » . آه . هو ايضاً . فماذا دهاهم جميعاً . وقطعنا مئات الكيلومترات . نواجه دفقات من العواصف الرملية ، التي تزحف وتتقهقر مع اتجاه الرياح . الى ان وصلنا ثانية الى الجبال ذات القمم السوداء والحوافي الحادة كالفولاذ . وبعد هذه الجبال ، احتجت الى دليل يرشدني عبر ذلك الخضم الذي لا ينتهي من الرمال البنيّة .

التي تزعق من الحرارة . وتحترق بنيران الوف المرايا من الصفائح الرملية .
الى النقطة التي تعتبر حدوداً بين البلاد البيضاء والبلاد التي يقطنها السود .
حيث تقوم مدينة الملح . وسرق مني الدليل النقود التي اظهرتها له عن
سذاجة وبساطة قلب . ثم ضربني وتركني على الطريق . في هذه النقطة التي
أقف فيها الآن قائلاً : « أيها الكلب . ها هي الطريق . لقد كان الشرف لي
في اني دللتك عليها . فامض فيها . وسترى ما يفعلونه بك » وبالطبع فقد
رأيت منهم العجب العجاب . فهم كالشمس التي لا تقف ابداً الا في الليل .
يضربون بحدة وكبرياء . وقد ضربوني في هذه اللحظة ايضاً ضرباً عنيفاً
بمجموعة من الرماح التي انبعثت من الارض . آه . اين الملاذ واين الملجأ
تحت هذه الصخرة الكبيرة قبل ان يرتبك علي كل شيء ؟

ان الظل ظليل هنا ، وكيف يستطيع المرء ان يعيش في مدينة الملح ،
في ذلك الثقب من الحوض المليء بالحرارة التي تذهب بالعقول ? . وعلى كل
جانب من تلك الاسوار المتقاطعة عمودياً ، والمقطوعة بالفؤوس ، لتمهد
تمهيداً ، بدائياً ، لا فن فيه ، اخاديد تركتها تلك الفؤوس ؛ وقد
اخشوشنت بحراشف حاجزة ، شحب لونها بالرمال الصفراء ، التي تحملها
الرياح عندما تهب على اعالي الاسوار والشرفات . وآنذاك يتلألأ كل شيء
ببياض متماوج تحت قبة السماء . التي غطى البياض ستارتها الزرقاء .
وكنت على وشك العمى في تلك الايام . عندما كانت النيران الثابتة
« تطرطق » ساعات وساعات على سطح تلك الشرفات البيضاء . التي
تبدو وكأنها تحتضن بعضها . أو كأنها في ذلك الماضي السحيق قد التقت
بجبل من الملح فسحقت ارتفاعه وجعلت منه ارضاً مستوية شقت فيها
الشوارع ونبتت في داخلها ، البيوت والنوافذ . او كأنها اقتطعت منه
جحيمها الساعر الابيض بانصباب قوي من الماء الغالي . لتنبت ان في

وسعها ان تعيش حيث لا تمكن الحياة . بعيدة ثلاثين يوماً عن اقرب مكان يعيش فيه شيء حي . من هذا الحجر في وسط الصحراء ، حيث تحول حرارة النهار بين كل اتصال بين المخلوقات ، فتفصل بينهم بواسطة متراس من اللهيب غير المنظور ، او البلور الذي يتطاير منه الشرر كالزناد . ثم يحين الليل بقرّه ، فيجمّدها ، دون أي انتقال داخل اصدافها من الصخور الملحية كالمخلوقات الظلامية ، تقطن في اطواف جليدية جافة . انهم كأهل الاسكيمو . ولكنهم من السود . يرتجفون برداً في اكواخهم الجليدية المكعبة . أجل انهم من السود لانهم يرتدون البسة سوداء طويلة . وكثيراً ما ينتشر الملح الذي يتجمع تحت اظافرهم ، فيتذوقون المرارة في اصابعهم دائماً ، ويبتلعونه اثناء نومهم في تلك الليالي القطبية . كما يشربونه في مائهم ، الذي يجمعونه من نبع وحيد ، يقع في اخدود متألق . أجـــل ينتشر هذا الملح كالبقع على ملابسهم السوداء وكأنه بقايا الحلزونات بعد المطر .

المطر . يا رباه ! مطرة واحدة حقيقية . طويلة وشديدة ! مطرة من عليائك ! تذيب هذه المدينة المخيفة بصورة بطيئة وتدريجية . وتحمل اهلها الوحوش الى الرمال . مطرة واحدة يا إلهي ! ولكن ماذا أعني . وأي رب ! انهم هم الارباب والسادة ! انهم يتحكمون في بيوتهم الجدبة . وفي عبيدهم السود الذين يجبرونهم على العمل في المناجم حتى الموت . وكل لوحة تقطع من الملح تساوي رجلا في المنطقة الواقعة الى الجنوب . وهم يمرون هادئين يرتدون اقنعتهم الصباحية في بياض الشوارع المعدني .وفي الليل ، عندما تغدو المدينة بكاملها شبحاً ، في لون الحليب ، ينزلون . ويدخلون الى ظل بيوتهم ، حيث تلمع جدران الملح لمعاناً خافتاً . وينامون نوماً هادئاً خفيفاً وعندما يستيقظون يصدرون الاوامر . ويضربون ، ويعلنون انهم شعب متحد وان إلههم هو الإله الصادق ، وان على كل انسان أن يطيع .

انهم سادتي . وهم يجهلون معنى الشفقة . وهم كغيرهم من السادة . يريدون ان يكونوا لوحدهم . وان تزدهر امورهم لوحدهم وان يكونوا الحكام دون سواهم ، اذ انهم ، هم دون غيرهم ، قد وجدت لديهم الجرأة ليبنوا في الملح والرمال تلك المدينـــة التي تجمع بين الضدين . البرودة والحرارة المحرقة . أما انا ...

يا له من ارتباك عندما ترتفع الحرارة . ان العرق يتصبب مني . أما هم فلا يعرقون . وقد بدأ الظل نفسه يتلظى . أحس بوهج الشمس على الحجر فوق رأسي . انها تقرع وتقرع . وكأنها مطرقة تقرع جميع الاحجار محدثة صوتاً موسيقياً . انها موسيقى الظهيرة . والهواء والصخور تتذبذب على مدى مئات الكيلومترات . اني اسمع الهدوء كما لم اسمعه من قبل . انه نفس الهدوء الذي سمعته قبل سنوات والذي تلقاني بالتحية عندما اقتادني الحرس اليهم . في ضوء الشمس . في وسط الساحة الرئيسية . التي ترتفع منها . الشرفات المتراكزة بصورة تدريجية نحو جفن السماء الزرقاء الجالسة على طرف الحوض. وهنـاك . ألقى بي على ركبتي . في تجويف ذلك الدرع الأبيض . واهترأت عيناي من تلك السيوف من الملح والنيران المنبثقة من الجدران . واضحيت شاحباً من التعب ، والدم ينزف من اذني من الضربة التي وجهها الي دليلي . وهم يقفون باجسامهم الفارعة السوداء . يتطلعون الي صامتين . وكان النهار قد انتصف . ورجّعت السماء تحت ضربات الشمس الحديدية اخيراً اصداء تشبه مـــا يخرج عن الصفيح الذي اصبح ابيض من شدة الحرارة . وخيم نفس الصمت . وظلوا يتفرّسون في . والوقت يمضي . وهم يتفرّسون فيّ . وانا عاجز عن مواجهة نظراتهم ، وأخـذت ألهث ، ويرتفع لهاثي شيئاً فشيئاً ، ثم شرعت أبكي ، وفجأة اداروا لي ظهورهم بهدوء ، ومضوا جميعاً في نفس الاتجاه . وكل ما استطعت رؤيته ، وأنا جاث على ركبتي احذيتهم الخفيفة ،

الحمراء والسوداء ، وأقدامهم تلمع بالملح ، عندما يرفعون ارديتهم السوداء الطويلة ، وقد ارتفعت مقدماتها قليلا بينما كانت الكعاب تمس الارض برفق. وعندما خلت الساحة منهم جرّوني الى بيت الاصنام.

وقضيت بضعة ايام في ظلمة بيت الاصنام الحالكة ، جالساً القرفصاء كما أجلس اليوم في ظل هذه الصخرة ، والنار من فوق رأسي تخترق كثافة الصخر. وهو بيت يرتفع عن البيوت الاخرى ، وتحيط به جدران من الملح ، لا نوافذ فيها ، وتملؤه ظلمة الليل ، التي تقدح الشرر. وانقضت عدة ايام ، وقد وضعوا أمامي حوضاً من الماء الاجاج ، وبعض الحبوب ، كالتي يلقونها عادة أمام فراخ الدجاج لتطعم. فأخذت التقطها. وكان الباب يظل مغلقاً طيلة النهار ، ومع ذلك فقد فقدت الظلمة ما فيها من عنصر العنت والارهاق ، وكأن الشمس القادرة على كل شيء ، قد تمكنت من التسرب عبر تلك الكتل الضخمة من الملح. ولم يكن لدي مصباح ، ولكني تمكنت بواسطة اللمس أن أرى طريقي على الجدران لامساً قطوفاً من النخيل اليابس تزينها. ووجدت في النهاية باباً صغيراً ، وقد اغلق بصورة بدائية ، وفي وسعي رفع مزلاجه برؤوس اصابعي. وانقضت ايام طويلة للغاية ، ولم يكن في وسعي عدها ، أو عد ساعاتها ، ولكني عرفت انها كانت عديدة ، لان غذائي من الحبوب ، قد القي لي عدة مرات ، وتمكنت من حفر نقرة في الارض ، اضع فيها برازي ، واحاول تغطيتها عبثاً ، فقد انبعثت في المكان رائحة كالتي يشمها الانسان في كهف الحيوان. اجل بعد هذه الايام الطويلة ، فتح الباب اخيراً على مصراعيه ، ودخلوا.

وتقدم أحدهم من المكان الذي كنت اقعي فيه في ركن منزو من الغرفة. وأحسست بالملح المحرق على خدي ، وشممت رائحة النخيل يعلوه القتار ، ورأيته يواصل التقدم مني. ثم توقف على بعد باردة واحدة ، وتفرّس في

صامتا ، ثم أشار الي ، فوقفت ، وظل يحدق فيّ بعينيه المعدنيتين ، اللتين تضيئان دون ان يبدو على وجهه الاسمر ، الذي يشبه وجه الحصان أي تعبير. واخيراً رفع يده . وظللت فاقداً لكل حيوية ، فأمسك بي من شفتي السفلى ، ولواها بشدة وببطء ، حتى اجتث لحمي ، ودون ان يتخلى عنها ، ارغمني على الدوران في الغرفة ، ثم ظل يجر بي من شفتي حتى ارغمني على الركوع على ركبتي ، وقد صرعني الألم . وانبثق الدم من فمي ، واخيراً عاد لينضم الى رفاقه الواقفين الى جانب الجدار . وظلوا يراقبونني وانا ائن في هذه الحرارة التي لاتطاق والمندفعة مع الضوء من الباب المفتوح على مصراعيه ، وفجأة ظهر لي في ذلك الضوء ، الساحر بشعره المفتول من الياف نخيل الرافيه ، وقد غطى صدره بدرع من اللآلي ، وبدت ساقاه عاريتين تحت ثوب من القش ووضع على وجهه قناعاً من البوص والاسلاك ، فيه ثقبان تطل منهما عيناه . ووراء الساحر ، يسير عدد من الموسيقيين والنساء يرتدين ، جلابيب ثقيلة متنافرة الألوان ، لاتكشف شيئاً من اجسادهن . وأخذن يرقصن أمام الباب في النهاية ، رقصاً بدائياً ، لا ايقاع فيه ، ولا يختلف عن مجرد الحركة المطلقة. واخيراً فتح الساحر الباب الصغير خلفي ، ولم يتحرك السادة ، بل ظلوا يراقبونني ، والتفت ، ورأيت الصنم ، برأسه ذي الفأس المزدوج ، وانفه الحديدي الملتوي وكأنه ثعبان .

وحملوني الى مكان أمامه ، عند قاعدة المنصة ، حيث ارغموني على شرب ماء شديد المرارة ، وشعرت على التو ، برأسي يكاد يحترق ، وأخذت اضحك ، فتلك هي الاساءة التي اساءوا بها الي . ونزعوا عني ملابسي ، وحلقوا شعر رأسي وجسمي ، ثم غسلوني بالزيت ، وضربوا وجهي بحبال ، غطّسوها في الماء والملح ، وظللت اضحك ، وادير وجهي نائياً به ، فتتقدم امرأتان وتمسكان بأذني ، وتقدمان وجهي الى ضربات الساحر الذي لا أرى

منه الا عينيه ، وظللت اضحك ، والدماء تغرقني . وتوقفوا ، ولم يتكلم احد إلا انا ، فقد بدأ الاضطراب في رأسي ، ثم رفعوني وارغموني على النهوض بعيني لاتطلع بهما الى الصنم . وكنت قد توقفت عن الضحك . وعرفت انهم قد كرسوني له ، لاخدمه واعبده ، ولذا فقد توقفت عن الضحك وغمرني شعور من الخوف والألم . وهناك في ذلك البيت الابيض ، وبين تلك الجدران التي كانت الشمس تحرقها باستمرار من الخارج ، ظللت متورم الوجه ، منهوك الذاكرة ، احاول الصلاة لهذا الصنم ، الذي لا أرى غيره ، والذي على الرغم من بشاعة وجهه ، كان اقل بشاعة ممّا تبقى في العالم . وربطوا بعد ذلك قدمي بحبل ، بحيث يسمح لي بخطوة واحدة ، وأخذوا يرقصون امام الصنم ، بينما بدأ السادة يغادرون المكان واحداً اثر آخر .

ولما اغلق الباب خلفهم ، عادت الموسيقى الى العزف واشعل الساحر ناراً من لحاء الاشجار أخذ يثب حولها ، بينما يتكسر ظله الطويل ، على زوايا الجدران البيضاء ، مرفرفاً على سطوحها المستوية ، فيملأ الغرفة باشباح راقصة . ورسم مستطيلاً في زاوية جرتني النسوة اليه ، فاحسست بايديهن الناعمة والعطشى ، ووضعن أمامي حوضاً من الماء ، وكومة صغيرة من القمح ، وأشرن الى الصنم ، ففهمت ، ان علي ، ان احتفظ بعيني مثبلتين عليه ، ثم استدعاهن الساحر ، واحدة اثر اخرى الى النار ، فضرب بعضهن ، وكنت اسمـــع انينهن ، واراهن يذهبن ، فيسجدن أمام إلهي الصنم ، بينما واصل الساحر رقصه ، وأمرهن جميعاً بالخروج ، باستثناء واحدة ، صغيرة جداً ، كانت تقعي بجانب الموسيقيين ولم يكن قد مد اليها يديه بعد . ثم أمسك بها من شعرها الكث ، الذي ظل يلفه حول ذراعه . بينما تنهار هي الى الوراء ، وعيناها تكادان تقفزان من محجريها ، حتى

سقطت أخيراً على ظهرها ، فافلتها الساحر ، صارخاً ، واستدار الموسيقيون بوجوههم الى الجدار ، بينما ارتفع الصراخ وراء ذلك القناع ، الى ان بلغ حد الزعيق الذي لا يطاق ، وأخذت المرأة تتدحرج على الارض وكأنها في نوبة عنيفة ، واخيراً ، اخذت هي بدورها تزعق ، وهي تحبو على أربعها ، وقد أخفت رأسها في ذراعيها المتشابكتين ، بصوت مختنق خواء ، فامتلكها الساحر وهي في هذا الوضع دون ان يتوقف عن الصراخ او عن التطلع الى الصنم ، بسرعة وخشونة ، بينما كانت المرأة تخفي رأسها تحت طيات ردائها الثقيل . واحسست في وحدتي ، بنوع من الحيوانية ، فصرخت ايضاً ، متجهاً الى الصنم في عواء ينطوي على الخوف ، الى ان اصابتني ركلة ، قذفت بي الى الجدار ، أعض ملحه ، كما اعض هذه الصخرة اليوم بفمي الذي لا لسان فيه ، منتظراً قدوم الرجل الذي يجب ان أقتله .

وقد مضت الشمس ، الآن قليلاً الى ما وراء سمت السماء ، ومن ثقوب الصخور ، استطيع ان ارى تلك الثغرة التي فتحتها في معدن السماء الذي اضحى ابيض من شدة الحرارة . وهذه الثغرة ، فمٌ ناغر مثل فمي ، يلفظ دائماً ، انهاراً من اللهيب ، يقذف بها على الصحراء التي لا لون لها . ولا أرى امامي على الطريق ، أي شيء ، حتى ولا سحابة من النقع ، تخرج من الافق البعيد ، أما ورائي ، فلا شك في انهم يبحثون عني الآن . كلا انهم لم يبدأوا البحث بعد ، ففي الساعات المتأخرة من بعد الظهر ، يفتحون الباب قليلاً ، لاخرج بعض الوقت ، بعد ان اكون قد قضيت سحابة يومي في تنظيف بيت الصنم ، ورتبت القرابين الجديدة ، وفي المساء ، يبدأ الاحتفال من جديد ، حيث انال بعض الضرب احياناً ، وانجو منه أحياناً اخرى ، ولكني دائماً اقوم بخدمـــة الصنم ، ذلك المعبود ، الذي طبعت صورته في ذاكرتي في الماضي ، واصبحت مطبوعة في آمالي الآن . ولم يقدر لإله من

قبل ان يسيطر علي او يستعبدني ، طيلة حياتي كما استعبدني هذا الصنم ، فحياتي كلها ، في ايامها ولياليها مكرسة له ، وما اشعر به من الم ، او فرح ، من صنعه وخلقه ، حتى الشهوة ، التي أحس بها ، من جراء ، حضوري في كل يوم ، تلك العملية القذرة ، التي تتم جهاراً ، والتي اسمع بوقائعها دون ان اراها ، اذ تحتم علي ان ادير وجهي الى الحائط ، اثناء وقوعها ، والا اشبعت ضرباً ، هي من فضله ايضاً . وكنت اقف وقد اسندت وجهي الى الملح ، تزعجني تلك الاشباح البهيمية تتحرك على الجدار ، واستمع الى الصرخة الكبرى ، فيجف حلقي ، وتتملكني شهوة حارقة لا جنس فيها ، فتضغط مفاصلي ، وتشد على بطني ، وكأني اقترف الرذيلة . وتتابعت الأيام ، واحداً اثر آخر ، وما كنت لاستطيع التمييز بينها ، فكأنها ذابت في القيظ المخيف وفي انعكاساته الخادعة على جدران الملح ، واضحى الزمن بالنسبة الي ، طيات غامضة من الامواج ، تنفجر فيها ، في فترات منتظمة ، صرخات من الألم أو من شهوة الامتلاك ، فيمضي يوم طويل ، لا عمر له ، يحكم فيه الصنم ، كما تحكم فيه هذه الشمس الفظيعة ،هذا البيت من الصخور الذي أقيم فيه الآن ، وابكي ، كما ابكي الآن ، بكاء ينطق بالتعاسة وبالشوق ، وبالأمل الشرير الذي يحرقني ، والذي يدفع بي الى ارتكاب الخيانة . آه انني العق « ماسورة » بندقيتي ، وما فيها من روح ، اذ ان البنادق وحدها هي التي تملك الروح . آه . اجل . ففي ذلك النهار الذي قطعوا فيه لساني تعلمت ان اعبد روح الكراهية الخالدة .

يا له من ارتباك في دماغي ، ويا له من غضب ، يعب من الحرارة والنقمة ، ويقف ذليلاً على فوهة بندقيتي . آه . من يلهث هنا ؟ لا استطيع ان احتمل هذه الحرارة التي لا نهاية لها ، ولا ذلك الانتظار الممل ، يجب ان اقتله . لنه ليس بطائر ، ولا بعشب اوراقه حادة كالنصل ، او حجر أو شهوة قاحلة .

ولا هو صرخاتهم . او هذا اللسان ينطق في داخل فمي ، اذ منذ اخرسوني ، قد غدوت صورة لذلك الألم الطويل ، مهجوراً ، ومحروماً حتى من ماء الليل ، ذلك الليل الذي احلم به عندما يغلق علي الباب مع ذلك الاله ، في كهفي المصنوع من الملح . وليس في استطاعة أي شيء ان ينقذني الا ذلك الليل ، بنجومه الباردة ، وينابيعه المظلمة ، فيحملني اخيراً ، من الهة البشر الشريرة . ولكن ما دمت حبيساً في ذلك الكهف ، فليس في استطاعتي ان ارى ذلك حتى في الخيال والتصور . واذا تأخر هذا القـــادم مدة أطول ، فسأرى ذلك الليل اخيراً يصعد من بطن الصحراء ، مكتسحاً السماء ، وتنسكب منه خمرة ذهبية باردة ، تمتد من السمت المعتم ، استطيع ان اعبّ منه بشراهة ، فارطب هذا الثقب الاسود الجاف ، الذي لا تبعث فيه الحياة ، تلك العضلة الحية المرنة من اللحم التي هي اللسان ، فأنسى اخيراً ذلك اليوم الذي انتزع فيه الجنون لساني من فمي .

يا للحرارة الفظيعة ما اشدها . يبدو لي ان الملح قد بدأ يذوب ، وان الهواء ، اخذ يفري عيني ، عندما دخل الساحر ، حجري ، دون ان يضع على وجهه قناعاً . ودلفت وراءه ، امرأة جديدة تبـدو عارية الا من هذه الهلاهل الممزقة الرمادية اللون ، وقد غطت وجهها ، بوشم يصور قناع الصنم ويعبر عن غيبوبة الوثن البشعة . ولم يكن فيها شيء ينم عن الحيـــاة ، الا ذلك الجسد النحيل التافه ، الذي أخذ يرفرف عند قدمي الاله عندما فتح الساحر باب المحراب وخرج دون ان يتطلع الي ، وارتفعت الحرارة ، ولم اتحرك ، فقد ظل الصنم ينظر الي من جسمه الذي لا حراك فيه ، والذي تهتز عضلاته بدعة ورفق ، ورأيت وجه المرأة الذي يشبه الوثن لم يتبدل ، عندما تقدمت منها . واخذت تحدق في ، بعينيها اللتين كبرتا ، واتسعتا ، ولمستها بقدمي ، وبدأت الحرارة ترعق في جسدي ، واستلقت المرأة الوثن ، دون

أن تفوه ببنت شفة ، وهي تتفرس فيّ بعينيها المتسعتين ، بصورة تدريجية على ظهرها ، ورفعت ساقيها ببطء ، بينما فتحت فخذيهـــا . ولكن ، فجأة ، وعلى التو ، رأيت الساحر ، يتطلع الي ، وابصرت بهم جميعـــاً يدخلون ، فيقتطعونني عن المرأة ، ويأخذون في ضربي بضراوة وعنف ، على العضو « الخاطىء » من جسدي ، ولكن أية خطيئة ، انني اضحك ، بل أين هي ، واين هي الفضيلة ، وبدأوا يطرقون بي الجدار ، وامسكت يد فولاذية بفكي ، بينما فتحت يد أخرى فمي ، واستلّت لساني ، حتى نزفت منه الدماء ، فصرخت ، ولا أدري هـــل كنت اصرخ من شهوتي الحيوانية ، واحسست بآلة قاطعة باردة ، تمر على لساني اخيراً . وعندما أفقت من غيبوبتي وجدتني وحيداً مع الليل ، وقد التصقت بالجدار ، والدماء الجافة تغطيني ، وكامة من العشب الجاف الغريب الرائحة تملأ فمي ، الذي توقف النزيف منه ، والذي أحسست بما فيه من فراغ . وشعرت بالألم القاتل ، من غياب ذلك الشيء الحي الوحيد عن فمي . واردت ان انهض ، ولكني ما لبثت ان سقطت ، سعيداً ، الى حد اليأس ، بأن اموت اخيراً ، فالموت بارد ايضاً ، ولا يختفي وراء ظله أي اله .

ولكنني لم أمت ، وغمرني شعور جديد من الكراهية ، لم أكن احس به من قبل ، وفي نفس الوقت ، خطوت نحو باب المحراب ، وفتحته ، ثم اغلقته خلفي ، فقد كرهت قومي ، وكان الصنم هناك ، ومن اعماق ذلك الحجر الذي كنت فيه ، عملت اكثر من الصلاة للصنم ، فقد آمنت به ، وكفرت بكل ما كنت اؤمن به حتى تلك الساعة .وهتفت من صميم قلبي له، فهو يمثل القوة والسلطان ، وفي الامكان تدميره ،ولكن ليس بالامكان تبديله أو تغييره . وكان يتطلع من فوق هامتي بعينيه الخاليتين الصدئتين . وكررت الهتاف ، فهو السيد ، بل الرب الاوحد ، الذي لا ينازعه في صفة الحقد

والبغضاء ، شيء آخر ، على كل ، ليس هناك من سادة طيبين . وللمرة الأولى، وكنتيجة للمساوىء ، رأيت جماع جسدي ، يصرخ بصوت واحد من الألم ، فاستسلمت له ، وآمنت بأوامره الشريرة ، وعبدت فيه مبدأ الشر في العالم . آه ، انني سجين في مملكته ، في المدينة الشاحبة ، المنحوتة من جبل الملح ، المحرومة من ازاهير الصحراء التي لا تدوم ، والمصانة من ومضات الحظ أو علامات الحب ، الذي تحبوه الطبيعة احياناً ، فتبعث بسحابة غير مرتقبة ، او بدفقة عنيفة وقصيرة من زخات المطر ، المألوفة ، حتى للشمس والرمال، المدينة التي يسودها النظام والمبنية على شكل زوايا عمودية ، وغرف مربعة ، ويسكنها رجال متزمتون . لقد أضحيت عن طيب خاطر ، مواطنها المعذّب ، المفعم قلبه بالكراهية ، بعد ان طلقت التاريخ الطويل الذي تعلّمته . لقد كنت مضللاً ، فحكم الحقد وحده ، يخلو من العيوب . اجل لقد ضلّلت في الماضي ، فالحقيقة مريعة ، ثقيلة وكثيفة ، ولا تقبل الفروق والامتيـــاز ، والخير ، حلم لا جدوى منه ، اذ انه نية دائمة التأجيل ، يتبعه الانسان بمجهود مضنٍ ، فلا يصل الى حدوده ، لأن حكمه امر مستحيل . لكن الشر وحده ، هو الذي يستطيع ان يصل حدوده وان يحكم حكماً فردياً طاغياً ، وعلينا ان نخدمه لنقيم ملكوت الموتى ، وآنذاك سنرى ، ولكن ماذا تعني كلمة « انذاك » ، فالشر هو القائم ، والى الجحيم باوروبا وبالعقل والشرف والصليب . اجل ، علي ، ان اتحول الى ديانة اسيادي ، اجل ، فأنا عبد بالتأكيد ، ولكن اذا اصبحت شريراً ، توقفت عن اكون عبـداً ، على الرغم من قدمي المصفّدتين ، ولساني الاخرس . آه ، ان هذه الحرارة، تكاد تودي بي الى الجنون والصحراء تصرخ في كل مكان تحت هذا الضوء الذي لا يحتمل ، وهو ، رب الرحمة ، الذي يثيرني مجرد اسمه ، قد تخليت عنه ، لأنني قد عرفته الآن . لقد كان يحلم ، واراد ان يكذب ، ولكن لسانه قد

قطع لئلا تستطيع اقواله خداع العالم ، واخترقت جسمه في كل مكان المسامير ، اني دقت حتى في رأسه ، رأسه المسكين ، الذي يشبه رأسي الآن . يا لهذا التشويش في دماغي ، ويا لهذا الضعف الذي اشعر به ، ومع ذلك فان الارض لم ترتجف ، وانا واثق ، من ان الرجل الذي قتلوه لم يكن رجل حق وفضيلة . انني لا اصدق ، فليس هناك رجال حق وفضيلة وانما سادة اشرار ، يفرضون حكماً من الحقيقة التي لا ترحم . نعم ، فالصنم وحده هو الذي يملك القوة والسلطان ، وهو اله هذا العالم الاوحد ، ووصيته هي الكراهية ، فهي منبع كل حياة ، بل هي الماء البارد ، برودة النعناع ، الذي يبعث البرودة في الفم ، والحرارة الحارقة في الاحشاء .

وقررت آنذاك ، ان اتبدل ، وادركوا هم تبدلي ، اذ اخذت أقبل ايديهم عندما اراهم ، وصرت اقف دائماً الى جانبهم ، فلا أمل من اظهار الاعجاب بهم ، ووثقت بهم ، وكنت ارجو ان يخرسوا قومي كما اخرسوني. وعندما علمت ان المبشر قادم ، عرفت ماذا يجب علي ان اعمله ، ورأيت ذلك اليوم ، نفس الاشراقة التي تغشى منها الابصار ، وهي التي تميزت بها الايام الاخرى . ورأيت فجأة بعد الظهر احد الحرس يركض على حافة الحوض ، وبعد دقائق ، جرّوني الى بيت الصنم ، ثم اغلقوا الباب علي . وطرحني احد الحرس ارضاً مهدداً اياي بسيفه الذي يبدو في هيئة الصليب وخيم صمت عميق ، ظل مسيطراً مدة طويلة ، وفجأة قطعه صوت غريب ملأ المدينة الهادئة ، صوت تبينت فيه بعد قليل ، لغة بلادي ، ولكنه عندما انبعث رأيت رأس السيف يلمع امام عيني ، وحارس ، يتطلع الي بعينين متفرستين في صمت . وسمعت بعد ذلك صوتين يقتربان مني ، وبدأت افهم ما يقولانه ، وكان احدهما يسأل ، لماذا توضع حراسة شديدة على ذلك البيت ، وهل يقضي الواجب بكسر الباب ، ويلقب من يخاطبه بالملازم ،

فيرد عليه قائلاً بخشونة ، لا ، مضيفاً بعد دقيقة انه تم الوصول الى اتفاقية تقضي بقبول المدينة لحامية مؤلفة من عشرين جندياً شريطة ان يعسكروا خارج المدينة وان يحترموا شعائرها ، وعاداتها ، وضحك الجندي قائلاً : « لقد بدأوا يذعنون » ، ولكن الضابط ، لم يعرف شيئاً ، فهذه هي المرة الاولى التي يبدون فيها على استعداد لقبول من يعنى بأطفالهم ،وهو راعي الكنيسة ، وبعد مدة سيجري البحث في موضوع الأرض او المنطقة . وقال الجندي ، انه ، اذا لم يأت الجنود ، فانهم سيقطعون ... الكاهن ، ولكن الضابط رد قائلا: آه ، لا ، فالاب بيفورت سيصل قبل الحامية بيومين على الأقل . » . هذا كل ما سمعته ، وانا بدون حراك ، جالس تحت السيف المصلت علي ، وشعرت بالألم وبعجلة من الامواس والابر ، تدور في باطني . يا لهم من مجانين ، يا لهم من مجانين ، انهم يسمحون ليد غريبة ، بأن تمتد الى المدينة ، والى قوتهم التي لا تغلب ، والى ربهم الصادق الحقيقي ، وهذا الرجل القادم لن يقطع لسانه ، وسيحاول اظهار طيبته الحمقاء ، دون ان يكلفه ذلك غاليا ، ودون ان يتحمل أي اذى . وسيتأجل حكم الشر ، ويحلّ الشك ثانية ، ويضيع الوقت من جديد ، في توقع الخير المستحيل ،وينهك المرء قواه في جهود غير مجدية ، بدلاً من ان يسارع الى تحقيق المملكة الوحيدة الممكنة . وتطلعت الى السيف الذي يهددني . آه ايتها القوة المطلقة ، التي ستتحكم في العالم ! آه ايتها القوة ! وبصورة تدريجية خلت المدينة من كل صوت ، وفتح الباب اخيراً ، وظللت وحيداً ، احترق ، واشعر بالمرارة ، مع الصنم ، فأقسمت له ان أنقذ دیانتي الجديدة ، وسادتي الصادقين ، والهي الطاغية ، وان اجيد الخيانة ، مهما كلفتني .

آه ان الحرارة تخبو قليلاً ، وقد توقف الصخر عن الاهتزاز ، وفي وسعي الآن ان اخرج من جحري ، وأن اراقب الصحراء ، وهي تتحول

الى اللون الأصفر بالتدريج ، الذي سرعان ما ينقلب الى لون البنفسج .
لقد انتظرتهم ليلة أمس الى ان اغفوا ، وكنت قد تركت المزلاج مفتوحاً ،
ثم خرجت اخطو بنفسي الخطو كالمعتاد ، يحدد خطواتي الوثاق في رجلي ،
وكنت اعرف الشوارع ، واعرف اين اجد البندقية القديمة ، وأية بوابة
تخلو من الحرس ، ووصلت الى هنا عندما كان الليل ، قد بدأ في الانحسار ،
ولم يبق في كبد السماء الا قلة من النجوم ، بينما لفت الظلمة الحالكة ،
الصحراء ، وها انا ابدو وكأني قضيت اياماً ، واياماً ، أفعي في هـــذه
الصخور . سيأتي عما قريب ، هذا ما ارجوه ، لحظات وسيشرعون
في البحث عني . وسيلحقون بالاثر في جميع الاتجاهات . ولن يعرفوا اني
لم اغادر مكاني الا من اجلهم . وبقصد خدمتهم . ان ساقي ضعيفتان . وقد
ثملتا بالجوع والكراهية . آه . هناك ، في نهاية الطريق ، يبدو بعيران .
يكبر حجمها شيئاً فشيئاً ، يتقدمان وقد تضاعف حجماهما بأشباح قصيرة .
انهما يركضان بما عرف عن الجمال دائماً من حيوية ونشاط . هاهما يصلان اخيراً.

اسرع ، أعد البندقية ! ها انا اعدها واملؤها . آه ايها الصنم ، يا الهي
القابع هناك ، لتدم سلطتك ، وليتضاعف الشر والاساءة ، ولتحكم الكراهية
دون رحمة او اشفاق عالماً يسكنه الملعونون، وليظل غلاظ القلوب والاشرار،
سادة دائماً وابداً ، وليزدهر الملكوت ، في هذه المدينة الوحيدة من الملح
والحديد في ظل طغاة يستعبدون ، ويفترسون النساء دون رحمة . والآن ،
اطلق النار على الرحمة ، وعلى الفجر ، وعلى الشفقة ، بل اطلق النار على كل
ما يؤجل مجيء الشر ، اطلق النار مرتين ، فاراهما يسقطان ، واري البعيرين،
يهربان نحو الافق ، حيث ارتفع رف من الطيور السوداء ، في السماء الخالدة .
واضحك واضحك ، واري الرجل يتلوى في زيّه الكريه ، ثم يرفع رأسه
قليلا ، ويراني ، يراني ، انا ، سيده القوي ، فيبتسم لي ، لماذا يبتسم ، يجب

ان احطم تلك البسمة . ما اروع صوت البندقية وهي تنطلق لتصيب وجه الخير ، واليوم ، اليوم ، لقد استهلك كل شيء ، وفي كل مكان في الصحراء ، وعلى بعد ساعات من هنا ، تستنشق بنات آوى ، الرياح ، التي لا وجود لها . ثم تمضي خبباً ، راكضة نحو وليمة من الجثث تنتظرها . النصر ، ما أجمله ، وارفع ذراعي الى سماء تتجه نحو الرحمة ، ثم ارى شبح الخزامى ، وكأنها تتجه الى الناحية الاخرى . آه يا ليالي اوروبا وليـالي الوطن والطفولة ، لماذا يجب ان ابكي في هذه اللحظة من النصر ؟

آه لقد تحرك ، كلا فالصوت قد جاء من ناحية اخرى ، وها هم يأتون من الاتجاه الآخر راكضين ، وكأنهم سرب من الطيور السوداء . انهم اسيادي ، يهجمون علي ، ويمسكون بي . ثم ، آه ، يبدأون بضربي ، فهم يخافون من ان مدينتهم ستهاجم وتنهب ، وهم يخشون نقمة الجنود ، على ما قمت به ، وهو حق ، ينصب على مدينتنا المقدسة . دافعوا عن انفسكم الآن ، اضربوا ، اضربوني اولاً ، فانتم تملكون الحقيقـة ! آه يا سادتي ، لا شك في انكم ستغلبون الجنود ، وستغلبون الكلام والحب ، وستنشرون فوق الصحارى وعبر البحار ، ومن ثم تملأون ضياء اوروبا باقنعتكم السوداء ، آه ، اضربوا ،اضربوا بطني ، وعيني . واضربوا في كل مكان ، وانشروا ملحكم فوق القارة ،فتموت كل خضرة ، وكل حياة ، وتمتلىء الصحراء الواسعة ، بجماهير من البكم .الموثوقي الارجل . يقفزون الى جانبي . تحت الشمس التي لا ترحم . شمس الديانة الصحيحة . لن اكون وحيداً . آه الألم . الالم الذي يوقعونه بي . ولا شك في ان غضبهم صليب . وعلى هذا السرج الحربي الذي يشبه الصليب . حيث وضعوني اضحك ، لانني احب الضربـة التي تصيبني بالمسامـير وكأني مصلوب .

* * *

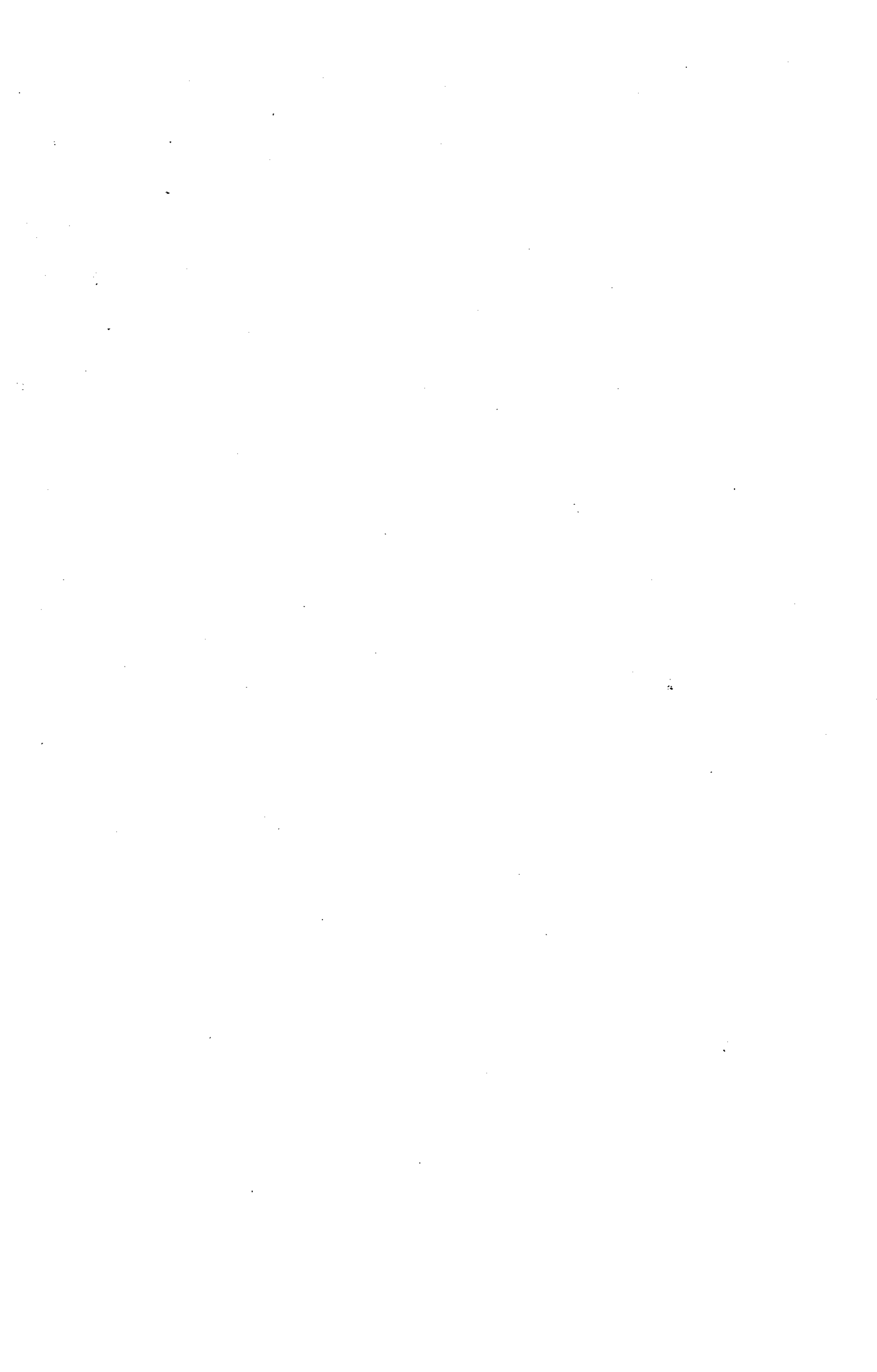
يا لهذا الصمت الذي يخيم على الصحراء . لقد هبط الليـل وما زلت وحيداً . انني ظامىء . ما زلت انتظر . اين المدينة ؟ تلك الاصوات البعيدة. واولئك الجنود لعلهم هم المنتصرون لا . لا يمكن هذا . حتى ولو انتصر الجنود ، فهم ليسوا على درجة كافية من غلاظة القلب تمكنهم من الحكم . وسيظلون يقولون ان على الانسان ان يصلح نفسه . ويبقى ملايين الناس حائرين بين الخير والشر . ممزقين وذاهلين . آه ايها الصنم . لماذا تخليت عني ؟ لقد انتهى كل شيء . انا ظامىء . ان جسمي يحترق . والليل الاسود يملأ عيني.

هذا الحلم . الحلم الطويل . هل استيقظت ؟ لا . انني على وشك الموت . فالفجر يبزغ . وسيأتي الضوء الاول حاملاً النور للاحياء . وحاملاً لي الشمس المحرقة ، ومعها الذباب . من يتكلم ؟ لا انسان . ان السماء لا تتفتح . لا . لا . ان الله لا يتكلم في الصحراء . ولكن من أين يأتي هذا الصوت وهو يقول : « اذا كنت توافق على الموت في سبيل الكراهية والقوة . فمن سيغفر لنا ؟ » هل هو لسان آخر في فمي . او انه ذلك الرجل الآخر يرفض ان يموت تحت قدمي . ويكرر قائلاً : « تشجع ! تشجع ! تشجع ! » آه . اذا افترضنا اذن انني اخطأت ثانية ، لقد كان الرجال المتآخون . هم النجدة الوحيدة . آه ايتها الوحدة ، لا تتخلي عني . هنا . من انت ايها الانسان الممزق ، ذو الفم الدامي ؟ انه انت ايها الساحر . لقد هزمك الجنود . ان الملح يحترق هناك . انه انت يا سيدي الحبيب . انزع عنك ذلك الوجه الذي يحمل صورة الكراهية ، وكن طيباً الآن . فقد اخطأنا في الماضي . وسنبدأ من جديد . وسنعيد بناء مدينة الرحمة . اريد ان اعود الى وطني . نعم . ساعدني . هذا حسن . اعطني يدك .

* * *

ويمتلىء فم العبد الثرثار بملء يد من الملح .

الرجال الصامتون



كان الوقت شتاء . ومع ذلك كانت الشمس مشرقة على المدينة النابضة بالحياة . وعلى طرف الرصيف التقى البحر والسماء في ضوء واحـــد يبهر الابصار . ولكن ايفيرز لم ير شيئاً من ذلك ، اذ كان يركب دراجته النارية ماشياً ببطء على « البوليفار » الممتد فوق الميناء . وقد ارخى قدمه المشلولة على « الدواسة » الثابتة في دراجته . بينما اشتغلت القدم الأخرى مصطرعة ، مع سطح الطريق المائلة التي ما زالت مبتلّة برطوبة الليل . وتجنّب دون ان يرفع رأسه عن جسده الصّغير الذي يمتطي صهوة الدراجـــة الخط الحديدي الذي كان في السابق طريقاً للترام . ثم اطفأ بصورة مفاجئة المحرك ليسمح للسيارات بتخطيه . وكان يدفع بكوعه ، بين آونة واخرى الحقيبة التي اودعت فيرناند فيها غداءه ، مفكراً في غضون ذلـــك بمحتويات هذه الحقيبة التي لا تتعدى « شطائر » من الجبن بدلاً من ان تكون من « العجّة » الاسبانية التي يحبها أو « شرائح » اللحم المقلية بالزيت .

ووجد الطريق الى المصبغة اطول من المألوف . وأحس بأنـه يسير نحو الكهولة . وعلى الرغم من انه قد بلغ الأربعين من عمره ، وما زال ناحـل العود كغصن كرمة ، الا ان عضلات الانسان في مثل هذا السن لا تدب فيها الحيوية بسرعة . وكثيراً ما قرأ تعليقات الصحف على الانباء الرياضية .

ووجد فيها اشارة الى رياضي في التاسعة والثلاثـــين من عمره بأنه انسان مرس أو محنك تقدمت به السن . فيهز كتفيه قائلاً لفرناند « اذا كان هذا مرساً فأنا اذن كسيح » . ومـــع ذلك فقد ادرك ان الصحفي لم يكن مخطئاً تماماً . فالرجل في الثلاثين يبدأ في اضاعة فتوتـــه . دون ان يلحظ ذلك وفي الاربعين لا يكون الرجـــل كسيحاً . ولكنه يسير في الطريق نحو هذه النهاية . أو لم يكن هذا هو السبب الذي تجنّب من اجله النظر الى البحر ، وهو يركب دراجته في طريقه الى الطرف الثاني من المدينة حيث يقوم حانوت صانع البراميل؟ عندما كان في العشرين من عمره ، لم يكن يمل قط من النظر الى البحر، لان هذا البحر كان يخفي له في طياته عطلة نهاية الاسبوع، يقضيها بسعادة على ساحله . وعلى الرغم مما به من عرج ، فقـــد كان يحب السباحة دائماً . ثم مضت السنون وجاءت فرناند ، وولدت له غلاماً ذكراً . وتضخمت مسؤولياته. واضطر في سبيل توفير معيشتها ، الى ان يعمل اوقاتاً اضافية في الحانوت ايام السبت ، وان يقوم باعمال غريبة للآخرين في ايام الاحد. وفقدشيئاً فشيئاً عادةقضاء تلك الايام العنيفة، التي كانت تشبعفؤاده. فالمياه العميقة الصافية ، والشمس الدافئة والفتيات ، والرياضة هي جميـع المتع التي كان يسعد بها في هذه البلاد ، وقد اختفت تلك السعادة مع اختفاء الشباب . وظل ايفيرز يحب البحر ، ولكن عنـــد الاصيل فقط ، عندمـا يكتسب لون ماء الخليج بعض السواد . وكان يسعد تلك اللحظـــة عندما يجلس الى الشرفة قرب بيته ، بعد انتهاء العمل ، ممتنـاً ، للقميص النظيف الذي اعدته فرناند وكوته له ، ولكأس خمر اليانسون البارد كالثلـــج . وسرعان ما يهبط المساء ، وتصبح السماء ناعمة ورخصة ، ويأخذ الجيران في الحديث الى الفيرز بصوت اقرب الى الهمس . ولم يكن يدري في هـذه اللحظات ، هل كان يشعر بالسعادة حقاً او انه يحن الى البكاء . لكنه على كل

حال ، كان يحس ، برتابة ، في هذه اللحظات ، ولا يعمل شيئاً الا الانتظار بهدوء دون ان يدري تماماً ، ما الذي ينتظره .

وكان من عادته في الاصباح ، وهو ذاهب الى العمل ان لا يحب التطلع الى البحر . فعلى الرغم من وجوده هناك على استعداد للترحيب به وتحيته . كان يرفض ان يراه هذا المساء . اما اليوم وفي هذا الصباح فكان يسير بدراجته ، وقد أحنى رأسه شاعراً بهم اكثر من المعتاد يغمر فؤاده . فعندما عاد في المساء الفائت من الاجتماع واعلن لزوجته انهم سيعودون الى العمل في الغد قالت فيرناند والسرور يغمرها . « اذن لقد وافق صاحب العمل على رفع مرتباتكم ؟ » كلا . ان صاحب العمل لم يرفع رواتبهم . ولكن الاضراب قد فشل اذ انهم لم يحسنوا اعداد الامور كما يجب . وهذا ما عليهم الاعتراف به . فالاضراب كان متهوراً . ولم يكن اتحاد العمال متحمساً في تأييده ودعمه . فالعمال المضربون لا يتجاوز عددهم الخمسة عشر . وهو عدد تافه . وكان على الاتحاد ان يهتم بشؤون العمال الآخرين في مصانع البراميل الاخرى الذين لم يشتركوا في الاضراب . وليس في وسع انسان ان يلوم الاتحاد . فصناعة البراميل ، لم تعد ناجحة ، اذ اخذت صناعة الصفائح وشاحنات البترول تهددها . فأرقام الانتاج في البراميل آخذة في الانخفاض . وكذلك البراميل الخشبية ، واصبح العمل فيها مقصوراً على اصلاح الموجود منها . ورأى اصحاب العمل ، ان مهنتهم لم تعد رائجة ، ولكنهم رغبوا في الاحتفاظ بجزء ضئيل من الارباح ، واسهل طريق لذلك ، هو تجميد الاجور الحالية ، على الرغم من ارتفاع مستوى المعيشة . فماذا بوسع صانعي البراميل ان يعملوا عندما تختفي صناعة البراميل . ليس من السهل ان يغير الانسان مهنته ، اذا كان قد لاقى عنتاً شديداً في تعلمها . وهذه المهنة شاقة ويتطلب تعلمها تدريباً طويلاً . فالصانع

الماهر ، الذي يصل بين القطع المحنية التي تصنع منها البراميل ، ثم يحكم وثاقها في النار ، باطواق حديدية احكاماً سديداً ، دون ان يقيّرها ، بالدسار او بربطها بالالياف ، انسان نادر . وكان ايفيرز ، يدرك في نفسه هذه الميزة ويعتز بها كل الاعتزاز ، وليس من المهم ان يغير الانسان حرفته ، ولكن ان يتخلى عمّا يعرفه ، من مهنة هو استاذ فيها ، فهذا ليس بالأمر السهل . وامتلاك هذه المهارة مع البقاء دون عمل ، شيء قاتل لا سيما اذا تحتم عليك ان تستقيل . لكن الاستقالة ليست بالشيء الهين ايضاً ، ومن الصعب على الانسان ان يطبق فمه ، وان لا يتمكن من الخوض في البحث بصورة صحيحة ، ثم يسير في نفس الطريق كل صباح ، مع ازدياد في الانهاك والتعب ، ليجد نفسه في نهاية كل اسبوع ، وقد حصل على مجرد ما يودون اعطاءه له ، وهو مبلغ اقل بكثير مما هو أهل له .

وهكذا فقد غضبوا ، وتردد اثنان او ثلاثة ، لكن الغضب سرعان ما امتد اليهم ، بعد الحديث الأول الذي دار بينهم وبين صاحب العمل ، فقد قال لهم بصلافة ان عليهم ان يقبلوا برواتبهم او يتركوا العمل . وليس من شيمة الانسان ان يتحدث بهذه الطريقة ، وعلّق ايسبوزيتو على ذلك بقوله : « وماذا يتوقع منا ؟ ايتوقع ان نذعن وان ننتظر حتى نطرد ؟ » . لكن صاحب العمل ليس من النوع السيء على كل حال ، فقد ورث عن والده هذا المصنع الذي نشأ فيه ، وعرف جميع العمال تقريباً ، أمداً طويلا . وكثيراً ما دعاهم الى وجبة عاجلة في المصنع ، فقاموا باعداد السمك ، أو لحم « السجق » على نيران اشعلوها من « نشارة الخشب » ، وكان سخياً في تقديم الخمور اليهم . وجرت عادته على ان يقدم لكل عامل في أعياد رأس السنة ، خمس زجاجات من نبيذ الكرمة ، وعندما كان احدهم يصاب بمرض ، او يحتفي بمناسبة كالزواج مثلا ، أو تناول « القربان »

كان يقدم له هدية نقدية ، وفي اعياد ابنته كان يقدم لكل عامل من عماله كمية من اللوز المحلّى بالسكر. وقد دعا ايفيرز مرتين او ثلاث مرات ، للصيد في شقته الساحلية . وليس هناك من شك في انه يحب عماله ، وكان يفخر بأن والده بدأ حياته عاملاً تحت التمرين ، ولكنه لم يقم مرة بزيارة احدهم في بيته ، لانه لا يكترث بهم ، بل بنفسه فقط ، لانه لا يعرف إلاهـــا . اما الآن فهو يقول لهم : اما ان تأخذوا هذا المرتب او تتركوا العمل وهذا يعني انه قـــد اضحى عنيداً كالآخرين ، وهو في مركز يسمح له بهذا العناد .

لقد تمكن من احراج موقف الاتحاد ، باغلاقه مصنعه . وقد قال ، « لا تزعجوا انفسكم بارسال فريق منكم لمراقبة المصنع ، اذ عندما يتوقف المصنع عن العمل ، أوفر بعض المال » . وبالطبع لم يكن في قوله هذا صحـــة ، كما انه لم يؤد الى تخفيف المتاعب ، لانه كان يجابهم بقوله انه يقدم لهم العمل بدافع الشفقة والرأفة . وقـــد ثار ايسبوزيتو ، ثورة عنيفة ، وانكر عليه صفة الرجولة . ولما كان صاحب العمل ، حاد المزاج ، فقد اشتبكا ، وتحتم على الموجودين الفصل بينهما . لكن هذا الحادث ترك في الوقت ذاته اثراً على العمال . واضربوا ، واستمر الاضراب عشرين يوماً، وجلست النساء في غضونه حزينات في البيت ، وثبطت عزيمة اثنين او ثلاثة منهم ، ونصحهم الاتحاد في النهاية ، بالتسليم والعدول عن الاضراب ، مقابل وعد بالتحكيم ، والتعويض عن ايام الاضراب ، بالعمل الاضافي . وقد قرروا العودة الى العمل ، مختالين بالطبع ، وزاعمين ان الموضوع لم يسوّ ، وانه ما زال في حاجـــة الى اعادة الدرس.. أما في هذا الصباح ، وقد انقلب الكلال الى هزيمة ، واستعاض في شطائره بالجبن عن اللحم ، لم يعد التعلق بالسراب امراً ممكنـــاً . فالبحر لا يضم في حناياه وعوداً جديدة ، مهما كانت الطريقة التي تشرق بها الشمس .

وضغط ايفيرز على « الدوّاسة » الوحيدة في دراجته ، وبدا له مع كل دورة من دورات عجلتها ، انه يخطو نحو الكهولة بعض الوقت . ولم يستطع التفكير بالمصنع ، ولا بزملائه العمال ، او بصاحب العمل ، الذي سيراه عما قريب والذي سيشعر عندما يراه ، بكآبة في فؤاده . وقد اعربت فرناند عن قلقها بقولها : « ماذا ستقولون له ايها الرجال ؟ » فرد عليهـــا قائلاً : « لن نقول شيئاً » . وامتطى ايفيرز دراجته ، وهزّ رأسه، بعد ان « صرّ » على اسنانه ، واكتسب وجهه الصغير الاسمر المجعد ، بتقاطيعه الرقيقة بعض العبوس ثم قال : « اننا عائدون الى العمل ، وهذا يكفي » . وها هو يمضي الآن في دراجته ، وقد اصطكت اسنانه ، وسيطر عليه غضب جنوني حزين. احال السماء نفسها امامه الى ظلام دامس .

وانتقل من « البوليفار » والبحر ، ليقتحم الشوارع الرطبة في الحي الاسباني . وقادته هذه الشوارع الى منطقة تحتلها الاكواخ ، واحواض القوارب القديمة ، والمرائب ، حيث يوجد المصنع الذي يعمل فيه ، وهو كوخ خفيض ، مبني من الحجارة ، الى وسطه ، تعلوها جدران زجاجية تتصل بالسقف المعدني المتغضن . ويتصل المصنع الجديد ، بالمصنع القديم الذي كان مؤلفاً من باحة واسعة تحيط بها اكواخ مسقوفة ، والذي هجر بعد ان اتسع نطاق العمل، واصبح يستخدم الآن كمستودع للآلات المستهلكة، والبراميل القديمة . وتبدأ حديقة صاحب العمل وراء هـــذه الباحة ، وتتصل بها بواسطة ممر ، مغطى بالقرميد الاحمر . ويقوم منزله في نهاية هذه الحديقة . والمنزل ضخم وبشع المنظر ولكنه رغم ذلك يؤثر على ناظريه ، بالعرائش المتسلقة على جدرانه ، وزهر العسل الذي يلف سلالمه الخارجية .

ورأى ايفرز على الفور ابواب المصنع مقفلة ، وأمامها يقف عدد من العمال صامتين . وكانت هذه المرة الأولى منذ بدأ عمله في هذا المصنع ،

يجد الابواب مغلقة عندما يصل الى عمله . فقد ود صاحب العمل ان يؤكد لهم انه صاحب اليد العليا . واستدار ايفرز بدراجته الى اليسار ، ووضعها في ذلك المنعطف ، الذي يحد الكوخ في تلك الناحية ، ثم اتجه الى الباب ، ورأى عن كثب ايسبوزيتو ، بقوامه الاسمر الفارع وشعره الغزير ، وماركو مندوب اتحاد العمال بمنظره الجانبي الذي يشبه منظر نجوم الفضاء ، وسعيد العامل العربي الوحيد في المصنع ، ومعهم العمال الاخرون ، وقد وقفوا صامتين ، يتطلعون اليه ، وهو يتقدم منهم . لكن ابواب المصنع . بدأت تفتح ، قبل ان يصل اليهم ، والتفت الجميع ناحية الابواب ، التي ظهر فيها بالستر ، مراقب العمل . وبعد أن فتح احدى الدرفات الثقيلة ، ادار ظهره للعمال . وأخذ يدفع الباب ببطء على قضيبه الحديدي .

وكان بالستر ، اقدم العمال في المصنع ، ولم يوافق على الاضراب في بداية الأمر ولكنه لم يفه ببنت شفة عندما واجهه ايسبوزيتو، متهماً اياه بخدمة مصالح صاحب العمل. ووقف بالستر عند الباب بجسمه القصير والغليظ ، مرتدياً بلوزته الزرقاء حافي القدمين . وأخذ يرقبهم واحـــداً اثر آخر ، وهم يدخلون ، بعينيه الشاحبتين ، اللتين تتوسطان وجهه الذي لوّحته الشمس . وقـــد انفرجت شفتاه عن فمه تحت شاربيه الكثيفين . وخيم السكون على جميع العمال . فقد احسوا بالاذلال من عودتهم منهزمين . وثار الدم في عروقهم على صمتهم ، الذي كلما طال كلما اشتد عجزهم عن اختراقه . ودخلوا دون ان يتطلعوا الى بالستر . اذ ادركوا انه ينفذ الأوامر الصادرة اليه ، في حملهم على الدخول بهذا الشكل . وقد دللت نظرته الناطقة بالألم واليأس على ما يعتلج في ضميره . وتطلع اليه ايفرز مرة واحـــدة فأحنى بالستر الذي كان يحبه كل الحب رأسه دون ان ينطق بحرف واحد .

وغدوا الآن جميعاً في الغرفة الصغيرة القائمة الى يمين المدخل . وفي هذه

الغرفة حظائر مفتوحة ، تفصلها الواح من الخشب غير مطلية ، ثبتت من طرفيها الى خزانات صغيرة مغلقة ، وقد تحولت الحظيرة الاخيرة منهـــا ، القريبة من جدار الكوخ ، الى حمام صغير ، يضم مسحاحاً (دوشاً) ، يقف فوق ميزاب محفور في ارض الغرفة ، وتشاهد في وسط المصنع ادوات العمل في مراحله المختلفة ، فثمة براميل كبيرة تم صنعها ، واخرى لم تثبت اطواقها بعد ، تنتظر « لحامها » بواسطة النار ، وثمة الواح سميكة حفرت فيهـــا هياكل البراميل ، ودقت لبعضها قواعدهـــا الخشبية المدورة ، تنتظر « لحامها » بالنار الباردة . وأمام الجدار ، الى يسار المدخل ، تمتد مقاعـــد العمال في صف طويل وأمامهم تقـــع اكوام من القدد الخشبية تنتظر السحج والتسوية . والى جانب الجدار الايمن ، على مقربة من غرفة الملابس يوجـــد منشاران كهربائيان كبيران ، اعدا للعمل بعد تزييتهما ، وقد وقفا صامتين يبرقـان .

وقد غدا المصنع منذ أمد ما ، كبيراً بالنسبة الى الحفنة القليلة من العمال الذين يشتغلون فيه . وقد يكون هذا من الأمور الطيبة في ايام الحر ، لكنه من العيوب في ايام البرد القارس . أما اليوم ، ففي هـــذا المكان الواسع ، حيث توقف العمل دون ان ينتهي ، وحيث تركت البراميل مهمـــلة في كل زاوية من زوايا المكان ، وفي كل منها طوق واحد ، يربط قاعدة القدّة ، وقد انتشرت في كل مكان كالازاهير البرية ، وعلا غبار النشارة ، المقاعـــد ، وصناديق المعدات والآلات ، فقد بدا المصنع صورة صادقة للاهمال . وتطلع العمال ، الى ادواتهم ، بعد ان ارتدوا ملابس العمل القديمة ، بسراويلهـــا الباهتة والمرقّعة ، ثم ترددوا . وكان بالستر يراقبهم ومـــا عتم ان قال : « وهكذا ، فلنبدأ » . ومضى كل واحد منهم الى مكانه دون ان يفوه بحرف واحد . وأخذ بالستر ينتقل من هذا الى ذاك مذكراً اياهم باختصـــار

بالعمل الذي يجب ان يبدأ أو ينتهي . ولم يرد عليه أي منهم . وسرعان ما سمع صوت المطرقة الأولى تدق على الوتد الحديدي ، مدخلة طوقاً في الهيكل الخارجي للبرميل ، وشوهدت المسحاة تئن لأنها اصطدمت بعقدة في الخشب ، وشرع ايسبوزيتو ، يدير أحـد المنشارين ، ونصله يئز ازيزاً شديداً ، أما سعيد ، فيخرج القدادات عندما يطلب اليه ذلـك ، ويشعل النار من النشارة ، حيث توضع عليها البراميل لتتمـدد ، ولتضغط على نطاقاتها الحديدية . أما اذا لم يطلب اليه احد زملائه القيام بأي عمل ، فكان سعيد يظل واقفاً عند مقعده « يبرشم » الاطواق الضخمة بمطرقة كبيرة . وبدأت رائحة احتراق النشارة تملأ المكان . اما ايفيرز الذي كان يخطط القدد الخشبية التي ينشرهـا ايسبوزيتو ويصفها في اماكنها فقد ارتاح الى الرائحة القديمة . وشعر بفؤاده يسترخي بعض الشيء . ومضى الجميع يعملون في صمت ، ولكن بحرارة . وبدأت الحياة تستيقظ تدريجياً في المصنع . وغمر الضوء المنعش النظيف المتدفق من النوافذ العريضة جو الكوخ . وارتفعت سحب الدخان الأزرق مقاطعة أشعة الشمس الذهبية . وسمع ايفيرز دوي حشرة على مقربة منه .

وفتح الباب المؤدي الى المصنع القديم في تلك اللحظة بالذات . ووقف المسيو لاسال صاحب المصنع على عتبة الـباب بعيداً عند نهاية الجدار . وبدا لاسال نحيلا اسمر الوجه . لا يعـدو الثلاثين من عمره وقد ارتدى معطفاً للعمل ابيض اللون ، انفتح عن بدلة من قماش « الغابردين » الفاتح اللون، يرتديها باناقة . وعلى الرغم من وجهه النحيل ، الذي نتأت فيه العظام ، فقد كان يثير في وجه من يراه شعوراً بالحب ، وهذا شأن الناس الذين ينضحون بالحيوية . ومع ذلك ، فقد بدا عليه شيء من الارتباك ، عندما دخـل من الباب ، وكانت تحيته ، اقل حماساً وجهارة صوت ، من مألوف عادته .

لكن أياً من العمال ، على كل حال ، لم يرد على التحيـــة . واصاب صوت المطارق بعض التردد ، وتوقف القرع فعلا ليستأنف بعد لحظات اشد قوة وعنفاً . وخطا المسيو لاسال بضع خطوات مترددة ثم اتجه الى فاليري الصغير ، الذي بدأ العمل في المصنع منذ نحو من سنة . وكان على مقربة من المنشار الكهربائي ، وعلى بعد بضعة اقدام من ايفيرز ، يركب قعراً لبرميل كبير ، فأخذ صاحب العمل ، يرقبه باهتمام . ومضى فاليري فيَ عمله ، دون ان ينطق بحرف واحد . وقال المسيو لاسال اخيراً : « حسناً يا ولدي ، كيف تسير الأمور معك ؟ » . وعرا الارتباك حركات الشاب فجــأة ، ثم تطلع الى ايسبوزيتو القريب منه ، والذي كان يحمل كومة من القدد بيديه الضخمتين ، لينقلها الى ايفيرز . ورد ايسبوزيتو على نظرته ، وهو في طريقه الى عمله ، فارتدت عينا فاليري الى عمله ، دون ان يرد على صاحب العمـل . وتردد لاسال لحظة أمام الشاب ، ثم هزّ كتفيه ، والتفت الى ماركو الذي كان على مقعده ، ينهي بضربات بطيئة صائبة ، دق قعر لاحد البراميل . وقال لاسال في صوت فيه رنة تملق ومداهنة « هالو ، ماركو » . لكن ماركو لم يرد ، بل ظل يعمل بهدوء والتفت لاسال الى بقية العمال وقال « ماذا دها كم ؟ حقاً اننا لم نتفق ، ولكن هذا لا يمنعنا من العمل معاً . اذن فما الفائدة من هذا السلوك ؟ » وهب ماركو على قدميه ، ورفع القطعــة التي في يده ، واصلح طرفها الدائرة ، وتحول بعينيه التعبتين وقد غمرهما شعور من الارتياح ، ومضى صامتاً الى عامل آخر كان يعد برميلا كبيراً . ولم يسمع في المصنع كله الا صوت المطارق والمنشار الكهربائي . وقال لاسال اخـــيراً : « حسناً ، عندما تتغلبوا على هذه العقدة ، دعوني اعرف عن طريق بالستر » ، ومضى بهدوء خارجاً من المصنع .

وفوراً وعلى الأثر ، قرع جرس الباب مرتين ، وتعالى رنينه على طنـين

العمل في المصنع . وقام بالستر الذي كان قد جلس يلف سيكارة له ، من مقعده متثاقلا ، ومضى ببطء الى الباب في الناحيـــة الاخرى . واستأنفت المطارق عملها بعد ذهابه باصوات اقل جلبة ، حتى ان احد العمال قد توقف عندما عاد بالستر الذي قال فور دخوله : « ان صاحب العمـــل يريدكما يا ماركو وايفيرز». وكانت السانحة الاولى عند ايفيرز ان يذهب ويغسل يديه، ولكن ماركو امسك به من ذراعه وجره وراءه وهو يظلع بقدمه العرجاء .

وكان الضوء في الخارج يغمر الباحة ، صافياً وذائباً ، وأحس به ايفيرز على وجهه وذراعيه العاريتين . وصعدا السلم الخارجي ، تحت نباتات زهر العسل المتسلقة التي تفتحت بعض براعمها . وعندما دخلا الرواق الذي امتلأت جدرانه بالشهادات المعلقة عليه ، سمعا صوت طفلة تبكي ، واستمعا الى المسيو لاسال وهو يقول : « اذهبوا بها الى الفراش بعد الغداء ، وسنستدعي الطبيب ، اذا لم تتغلب على هذه الازمة » . وظهر صاحب العمل فجأة في الرواق ، وسار بهما الى المكتب الصغير الذي يعرفانه من قبل والمؤثث ، بأثاث من الطراز التقليدي البسيط ، وقد ازدانت جدرانه بالتماثيل الرياضية . واقتعد لاسال ، مكانه وراء المكتب وقال لهما : « اجلسا ، لقد استدعيتكما ، لانك يا ماركو مندوب اتحاد العمل ، ولأن ايفيرز اقدم العمال عندي بعد بالستر . وليست لي رغبة بالعودة الى النقاش ، الذي انتهى الآن . فليس باستطاعتي ، وهذا بالتأكيد ، ان اقدم لـكم ما تطلبونه . وقد سوي الموضوع وتوصلنا الى النتيجة بان العمل يجب ان يستأنف . وارى الآن على وجوهكم علائم الغضب مني ، وهذا يؤلمني . وانا اقول لكما الآن ما اشعر به حقيقة . واود ان اضيف الى ذلك قولي : ان ما اعجز عن عمله اليوم قد استطيع ان اعمله غداً ، عندما تتحسن حالة العمل ، واذا تمكنت من عمله ، فسأقوم به ، حتى قبل ان تطلبوا الي ذلك . وفي غضون

ذلك دعونا نعمل معاً . وتوقف عن الحديث ، وبدا عليه التفكير ، ثم تطلع اليها وقال : « حسناً ! » وكان ماركو يتطلع عبر النافذة الى الخارج . واراد ايفيرز وقد اصطكت اسنانه ان يتكلم ولكنه لم يستطع . واخيراً قال لاسال : « اسمعا ، لقد تحجرت عقولكم جميعاً . ولكنكم ستتغلبون على هذه الأزمة . وعندما تعودون الى عقولكم ورشدكم ، لا تنسوا ما قلته لكما الان » . ونهض من مقعده وخطا نحو ماركو وامسك بيده وقال « شاد » . واصفر وجه ماركو فجأة ، وعلا العبوس محياه الاسمر ، وبدا في ثانية واحدة ، ذليلاً مستكيناً. وآنذاك استدار ماركو على عقبيه ، وخرج من المكتب ، وعلا الشحوب وجه لاسال ايضاً ، ونظر الى ايفيرز ، دون ان يمد اليه يده ثم صرخ : « اذهب الى الجحيم » .

وعندما عاد الى المصنع كان العمال يتناولون غداءهم ، وكان بالستر قد خرج ، وقال ماركو ببساطة : « مجرد ريح » ، ثم عاد الى مقعده . وتوقف ايسبوزيتو عن ازدراد لقمة الخبز التي في يده ليسألهما ، عمّا قالاه ، فرد ايفيرز ، بأنهما لم يجيبا على اقواله بحرف واحد . ومضى الى حقيبته فحملها ثم عاد الى مقعده . وعندما شرع في الأكل ، لاحظ على مقربة منه ، سعيداً مستلقياً على كومة من النشارة ، وعيناه تتطلعان من النوافذ التي غدت زرقاء ، من انعكاس السماء عليها ، بعد أن ضعف لمعانها . وسأله ايفيرز ، اذا كان قد تناول غداءه ، فرد سعيد بالايجاب وأنه أكل حبات التين التي جاء بها . وتوقف ايفيرز عن الأكل ، واختفى ذلك الشعور من القلق الذي لازمه منذ مقابلة لاسال ، ليحل محله شعور من الود الدافىء المريح . وجزأ قطعة الخبز التي معه الى قطعتين ، واعطى سعيداً احداهما بالرغم من رفضه ، مؤكداً ان الاحوال تتحسن في الاسبوع القادم ، وان دوره سيحل آنذاك لإطعامه . وابتسم سعيد ، وعض الشطيرة التي اعطاه

اياها ايفيزز ، بطريقة تدل على انه ليس بالجائع .

وتناول ايسبوزيتو ، قدراً قديماً واشعل ناراً صغيرة من النشارة ، وقطع الأخشاب ، وصب القهوة التي حملها من بيته في زجاجـــة ، في القدر ليسخّنها ، وقال : ان هذه القهوة هدية الى عمـــال المصنع ، من بقّـاله ، عندما سمع بفشل الاضراب . وانتقلت جرة الخردل ، التي صبت فيهـــا القهوة ، من يد الى يد ، وشرب سعيد بلذة فاقت ما احس به من سرور عند الاكل . وتناول ايسبوزيتو ، ما تبقى من القهوة في القدر الحار ، وقد زمّ شفتيه ، ثم بدأ يشتم ويسب ، فقد احرقها القدر . وعاد بالستر في هذه اللحظة ، ليعطي اشارة البدء بالعمل من جديد .

وبينما كان الجميع منهمكين في جمع الاوراق ، وحاجيات الطعام،واعادتها الى حقائبهم،وقف بالستر،في وسطهم وقال فجأة ، انه يشعر معهم بالالم من الحالة التي هم فيها ، والتي يشاركهم اياها ، ولكن هذه الحالة ليست مبرراً ، لاتباع هذا السلوك كالاطفال ، وان لافائدة مطلقاً من التبرّم.والتفت اليه ايسبوزيتو، والقدر في يده ، وقد احمر وجهه الطويل الخشن . وادرك ايفيزز ماذا يريد ايسبوزيتو ان يقول ، اذ ان ما يدور بخلده ،هو عين ما يفكر به الآخرون ، فهم ليسوا بمتبرمين ، وهم قد اغلقوا افواههم ، لانهم خيروا بين احد امرين، اما القبول او ترك العمل، وان الغضب واليأس كثيراً ما يؤلمان الى الحد الذي يعجز فيه من يصيباه ، عن البكاء . فهم رجال ، اولاً وآخراً،وليس في وسعهم ان يبدأوا الضحك وتكلف الابتسام.لكن الكلمات،جمدت في فم ايسبوزيتو ، واسترخى وجهـه اخيراً بعض الشيء،ثم ربت بيده على كتف بالستر بلطف ونعومة ، بينما مضى الآخرون الى عملهم . وبدأت المطارق تدق من جديد ، وارتفع صوت الطنين المألوف في الكوخ الكبير ، الذي امتلأ هواؤه برائحة النشارة ، والملابس القديمة وقد بللها العرق . وشرع المنشار الكبير ، يقطع

الاخشاب التي يضعها ايسبوزيتو الى قطع صغيرة . وتطاير غبار نشر الخشب من المنشار مغطياً الذراعين الكبيرتين اللتين يكسوهما الشعر الكثيف ، واللتين تمسكان بالالواح الخشبية التي توضع تحت نصل المنشار. ودوى في المصنع، صوت المحرك ، الذي يدير هذه الآلة .

وأحس ايفيرز بالألم يحز في ظهره ، وهو منحن على عمله . وكانت العادة ان لا يزوره هذا الألم ، الا في ساعة متأخرة من النهار . لكن يبدو ، أن الافتقار الى التمرين خلال هذه الاسابيع التي انقضت من البطالة ، قد تركت مفعولها . وفكر ايفيرز ، بالشيخوخة تهاجمه فتجعل العمل اليدوي اكثر صعوبة ولا سيما اذا لم يكن مجرد عمل يحتاج الى الاتقان والتدقيق . فحيثما يتناول العمل العضلات ، يصبح بصورة حتمية اكثر صعوبة مما تعافه النفس ، لانه يسبق الموت ، ويصبح النوم في الامسيات التي تلي العمل المضني ، اشبه بالموت . لقد اراد وهو صبي ، ان يصبح استاذاً في مدرسة ، وكان على حق في رأيه ، فهؤلاء الذين يغرقون في استخدام العبارات المألوفة للثناء على العمل اليدوي ، لا يعرفون ما يقولون .

وعندها نهض ايفيرز بهامته ، ليلتقط انفاسه ، وليطرد عنه هذه الافكار الخبيثة ، قرع الجرس من جديد . وكان الرنين هذه المرة متواصلاً ، وبصورة غريبة ، تتخلله انقطاعات واستئناف من جديد ، حتى ان العمال توقفوا عن العمل . واصغى بالستر مدهوشاً ، ثم حزم امره ، وخطا باتجاه الباب . ولم يغب عن المصنع الا بضع ثوان عندما توقف رنين الجرس بصورة نهائية . وعاد الرجال الى عملهم . واخيراً فتح الباب من جديد ، وركض بالستر باتجاه الغرفة الخارجية التي يبدلون فيها ملابسهم وخرج بعد لحظات منها وقد ارتدى حذاء من المطاط ، ووضع سترته على كتفيه ، ثم قال لايفيرز وهو يخرج من المصنع « لقد اصيبت الطفلة بنوبة شديدة ، وانا ذاهب

لاستدعاء جرمين ، ثم ركض باتجاه الباب الرئيسي . وكان الدكتور جرمين ، هو الذي يعنى بأحوال جميع أهل المصنع الصحيـــة ، وهو يعيش في نفس الحي . واعاد ايفيرز على مسامع رفاقه ما سمعه من بالستر ، والتفوا جميعاً حوله ، والواحد منهم ، يتطلع الى الآخر ، وقد سيطر عليهم الارتباك .ولم يكن ليصدر عن المصنع أي صوت ، الا صوت المنشار الكهربائي وهو يدور بحرية وانطلاق . وقال احدهم : قد يكون الحادث بسيطاً وعادوا الى اماكنهم ، وامتلأ المصنع ثانية بأصواتهم ، ولكنهم مضوا في عملهم ببطء ، وكأنهم يتوقعون شيئاً .

وبعد ربع ساعة ، عاد بالستر ثانية ، وعلق سترته ، ثم مضى دون ان يقول شيئاً عبر الباب الصغير . وبدأ الضوء ، الذي يلطم النوافــذ يبدو خافتاً ضعيفاً . وبعد قليل ، وفي الفترة التي لا يكون المنشار يقطع فيها الخشب ، سمع الجميع صوت سيارة اسعاف ، قادمة من مكان بعيد ، ولكنها تقترب شيئاً فشيئاً ، الى ان توقفت بباب المصنع . وخيم السكون على المكان. وعاد بالستر بعد لحظات واتجه جميع العمال اليه . وكان ايسبوزيتو قد اوقف محرك المنشار . وقال بالستر ان الطفلة عندما كانت تنزع ملابسها في غرفتها ، ترنحت فجأة وكأنها تحت منجل الحصاد . وعلق ماركو على ذلك بقوله : « هل سمعتم بمثل هذا من قبـــل » . وهزّ بالستر رأسه ، واشار بصورة غامضة الى المصنع ، دون ان يفهم أحد منه شيئاً . وسمع صوت جرس سيارة الاسعاف من جديد . وكانوا يقفون هناك جميعا ، في المصنع الصامت ، في الضوء الشاحب المتدفق من الدرف الزجاجية ، وقد اسدلوا ايديهم الخشنة التي لا نفع فيها الى جانب سراويلهم التي يعلوها مسحوق الخشب .

ومضت بقية النهار ، تجر ذيلهـــا ، ببطء قاتل . وشعر ايفيرز الان بتعبه ، وبفؤاده المثقـــل بالهموم . وكان بوده ان يتكـــلم ،

ولكن ليس لديه ما يقوله . كما ليس لدى الاخرين ما يقولونه . وكنت ترى على وجوههم غير المعبرة علامات الحزن ، ممزوجاً بنوع من العناد والاصرار . واحياناً كانت كلمة « المصيبة » ، تتجمع في فمه ، ويوشك على النطق بها ، ولكنها سرعان ما تختفي ، كما تختفي فقاعة الصابون بصورة مشابهة . واراد ان يعود الى بيته ، وان يكون الى جانب فيرناند وطفلها ، على شرفة البيت ، واعلن بالستر ، انتهاء ساعات العمل ، وتوقفت الالات عن الحركة ، وأخذوا يطفئون النيران ، بتكاسل ، ويعيدون كل شيء الى مكانه ، ثم انتقلوا واحداً اثر آخر الى غرفة نزع الملابس . وظل سعيد وحيداً داخل المصنع ، فقد كان عليه تنظيفه ، ورش ارضه بالماء ، وعندما وصل ايفيرز ، الى غرفة الملابس ، وجد ايسبوزيتو ، بجسمه الضخم الذي يكسوه الشعر ، واقفاً تحت (الدوش) ، وقد ادار ظهره للجميع بينما تعالت فقاقيع الصابون على جسده . وكانوا عادة يسخرون من عريه ويشبهونه بالدب الكبير الذي يخفي باصرار اجزاء جسده الخفية . لكن اليوم ، لم ينتبه احد منهم اليه ، وخرج ايسبوزيتو ، من المكان وقد لف جسده ، بمنشفة ، بدت وكأنها مئزر . وبدأ الاخرون يتناوبون الاغتسال ، وكان ماركو يضرب بيديه جانبيه العاريين بعنف ، عندما سمعوا صوت الباب الكبير يفتح ببطء ، ورأوا لاسال يلج المصنع .

كان لاسال ، يرتدي نفس الملابس ، التي بدا بها في الصباح ، لكن شعره ، كان مشعثاً ، ووقف على عتبة المصنع ، واجال بصره في المصنع الواسع المهجور ، ثم خطا بضع خطوات ، وتوقف ثانية ، متطلعاً الى غرفة الملابس . والتفت ايسبوزيتو ، الذي كان لا يزال ملتفاً بمئزره نحوه وهو يقفز عاريا وحائراً ، من قدم ، الى قدم . وخيل لايفيرز ، ان من واجب ماركو ان يقول شيئاً ، ولكن هذا ظل مختفياً وراء الستار الكثيف من الماء الذي يلفه . وتناول ايسبوزيتو قميصه ، وكان على وشك ان يرتديه عندما سمع لاسال يقول في صوت حزين لا نغم فيه ، « مساء الخير » ،

ثم يتجه نحو الباب الصغير . وعندما خطر ببال ايفيرز ان واحداً منهم يجب ان يدعوه ، كان لاسال قد مضى واغلق الباب وراءه .

وارتدى ايفرز ثيابه دون ان يغتسل ، وحياهم تحية المساء من جماع فؤاده ، فردوا على تحيته بحرارة وخرج بسرعة ، فاستقل دراجته ، ومضى بها شاعراً بالألم يحزّ في ظهره . واجتاز الان في ساعات المساء ، الشوارع الغاصة بالسيارات ، وهو يغذ سيره ، مشتاقاً للعودة الى بيته القديم ، وشرفته . ورأى أن بوسعه الاغتسال ، في الحمام ، قبل ان يجلس الى شرفته متطلعاً الى البحر ، الذي اصبح الان ، مرافقاً له ، والذي بدا الان ، اشد اكفهراراً مما كان عليه في الصباح ، وراء حاجز « البوليفار » . لكن طيف تلك الفتاة الصغيرة المريضة قد لازمه ايضاً ، ولم يستطع التوقف عن التفكير فيها .

ووجد ولده قد عاد من المدرسة الى البيت ، وهو يطالع الصحف المصوّرة . وسألت فيرناند زوجها ، عمّا اذا كان كل شيء قد سار سيراً طبيعياً في المصنع . ولكنه لم يحر جواباً بل مضى واغتسل في الحمام ، ثم جلس الى مقعده القائم قرب جدار الشرفة الخفيض . وتدلت فوق رأسه قطع الثياب المغسولة ، وبدأ الشفق يظهر في السماء ، وبــــدا بحر المساء الناعم ، وراء الجدار . واتت فيرناند ، بقدحي « اليانسون » ، وبجرة من الماء البارد ، ثم جلست الى جانب زوجها ، فأمسك بيدها ، كما كان يفعل عادة في ايام الزواج الأولى وأخذ يحدثها بكل ما وقع . وعندما انتهى من حديثه ، لم يتحرك ، متطلعاً الى البحر ، حيث بدأ الشفق في الغياب بين طرفي الافق البعيد . وقال محدثاً نفسه : « انها غلطته » . آه لو كان لا يزال شاباً ، وكانت فيرناند شابة ايضاً ، لذهبا بعيداً ، عبر البحر .



الضيف



كان ناظر المدرسة يراقب الرجلين ، وهما يصعدان متجهين اليه . وكان احدهما يمتطي صهوة جواد ، والآخر يسير على قدميه . ولم يكونا قد تغلبا بعد على الصعود الفجائي المؤدي الى دار المدرسة ، المبنية على جانب من التل . ومضيا يغذان السير ، وان كان تقدمهما بطيئاً عبر الثلوج ، وبين الصخور ، على المدى الفسيح من الهضبة المهجورة العالية . وأخذ الجواد يتعثر في سيره ، بين آونة واخرى ، وتمكن ، دون ان يسمع شيئاً بعد ، من رؤية زفير الجواد وهو يندفع من خياشيمه . وكان احد الرجلين على الاقل يعرف المنطقة . فقد ظلا يتتبعان الطريق على الرغم من اختفائها منذ ايام تحت طبقة من الثلج الابيض القذر . وقدر ناظر المدرسة ، ان منتصف ساعة ستنقضي على الاقل ، قبل ان يتمكنا من صعود التل . ولما كان الطقس بارداً، فقد عاد الى المدرسة ، ليرتدي صديرية من الصوف .

واجتاز غرفة الصف ، الخالية ، والمتجلدة . وكانت انهار فرنسا الاربعة المرسومة على اللوح ، باربعة الوان مختلفة من الطباشير تجري نحو مصباتها في غضون الايام الثلاثة الماضية . وقد تساقط الثلج فجأة في منتصف شهر

تشرين الاول بعد ثمانية اشهر طويلة من انحباس الامطار ، وانقطع العشرون طالباً او يزيدون ، والذين يعيشون في القرى المتفرقة فوق الهضبة عن المجيء الى المدرسة . ولكنهم سيعودون عندما يتحسن الطقس . واكتفى دارو الآن باشعال النار في الغرفة الوحيدة التي يقيم فيها والمجاورة لغرفة الصف . والمطلة ايضاً على الهضبة الواقعة الى الناحية الشرقية . وكانت نافذة هذه الغرفة كنوافذ الصف تطل على الجنوب أيضاً . وتبعد المدرسة في هذا الاتجاه بضعة كيلو مترات عن النقطة التي تبدأ عندها الهضبة في الهبوط نحو الجنوب. وعندما يكون الطقس صافياً تبدو كتلة ارجوانية من سلسلة الجبال ، حيث توجد الثغرة التي تنفذ الى الصحراء .

وعاد دارو بعد ان احس بالدفء ، الى النافذة التي رأى منها الرجلين لأول مرة . لقد اختفيا ، ولم يعودا يظهران . لا ريب انهما قد بدءا بالصعود . ولم تكن السماء قاتمة ، فقد توقف الثلج عن الهطول خلال الليل . واستهل النهار مجيئه بضوء خافت قذر ، لم يتحول الى بعض الاشراق ، الا عندما ارتفع سقف الغيوم من السماء . وعندما بلغت الساعة الثانية بعد الظهر ، بدا ، وكأن النهار قد بدأ في الطلوع في تلك الساعة . لكن هذه الحالة كانت افضل على العموم من الايام الثلاثة السالفة ، عندما كان الثلج الغزير يتساقط ، وسط لجة من الظلام لاتنقطع ، وقد صحبت سقوطه دفقات صغيرة من الرياح ، كانت تهز الابواب المزدوجة في غرفة الصف . وقد قضى دارو معظم الوقت آنذاك في غرفته ، ولم يكن يتركها الا ليذهب الى الكوخ ، لاطعام فراخ الدجاج ، أو لنقل بعض الفحم . ومن حسن حظه ، ان سيارة الشحن القادمة من تدجيد ، اقرب قرية الى المدرسة باتجاه الشمال، قد نقلت له ما يحتاج اليه من مؤن وحاجيات قبل يومين فقط من بدء العاصفة . وستعود السيارة بعد ثمان واربعين ساعة .

وتوفرت لديه بالاضافة الى ذلك ، مؤن تكفيه مدة طويلة ، يقاوم فيها اي حصار يفرض عليه ، فقد اكتظت الغرفة الصغيرة باكياس القمح ، الذي تركته الادارة كمخزون لها توزعه على ذلك النفر من طلابها ، الذين عانت عائلاتهم من انحباس الامطار . ولقد كانوا بالفعل جميعاً من الضحايا ، لانهم من الفقراء . وجرت عادة دارو ، على أن يوزع عليهم في كل يوم ، حصة من القمح . وادرك انهم قد افتقدوا هذه الحصص كثيراً ، في هذه الايام السيئة . وقد يفد احد آباء الطلاب او اخوتهم الكبار ، بعد ظهر اليوم ، ويتمكن من تزويدهم جميعاً بالقمح . وتتلخص المشكلة في تمكينهم من احتمال ضائقتهم حتى الحصاد القادم . فها هي السفن تفرغ محمولها من الحنطة من فرنسا ، وقد انتهت حدة الازمة . ولكن من الصعب ان ينسى الانسان ذلك الفقر المدقع ، وذلك الجيش من الاشباح في ملابسهم المهلهلة ، يتجولون في وهج الشمس ، في الهضاب التي احترقت واستحالت الى رماد ، شهراً بعد شهر ، بينما انكمشت الارض شيئاً فشيئاً ، وقد شاطتها الحرارة ، واصبح الحجر فيها يتحول الى تراب ، اذا داسته الاقدام . وقد ماتت قطعان الماشية آنذاك بالالوف كما مات عدد من الناس هنا وهناك . واحياناً ، دون ان يدري بموتهم انسان .

وعاش دارو ، اذا قارناه بهذه الحالة من الفقر اليائس ، كراهب في مدرسته النائية ، قانعاً الى حد كبير ، بالقليل الذي يملكه ، وبالحياة الخشنة التي يعيشها ، وشاعراً بنفسه وكأنه سيد داخل هـــذه الجدران المطليّة بالكلس ، وعلى سريره الضيق ، وامامه رفوفه غير المدهونة ، وبئر مائه ، وحاجياته الاسبوعية من الماء والغذاء . وفجأة يهبط هذا الثلج ، دون انذار ، ودون ، أية مقدمة من الامطار . ولكنها طبيعة المنطقة بقسوة العيش فيها ، حتى بدون اناس قد لا يتمكنون من اصلاح الاحوال فيها .

ولكن دارو قد ولد في هذه البلاد ، وهو يشعر في خارجها ، في اي مكان آخر ، وكأنه في منفى سحيق .

وخطا نحو الشرفة الواقعة أمام دار المدرسة . ورأى الرجلين قد أصبحا الآن في وسط المنحدر . وتبين ان الفارس ، لم يكن الا الدركي الشيخ بالدوكي ، الذي عرفه منذ عهد بعيد . وكان بالدوكي يسحب بحبل في يده عربياً يسير وراءه ، وقد ربطت يداه ، وخفض رأسه . وأشار الدركي بيده محيياً ، ولكن دارو لم يرد على تحيته ، فقد استغرق في التفكير بهذا العربي ، الذي يرتدي « جلابيه » زرقاء ناحلة ، وقد وضع في قدميه زوجاً من « الصنادل » تغطيها جزّات من الشعر الكثيف الخام ، وعلى رأسه لبدة قصيرة ضيقة . وأخذا يتقدمان . وكان بلدوكي يكبح جماح حصانه ، مخافة ان يلحق الأذى بالعربي واستمر التقدم ببطء .

وعندما اصبحا على مسمع من الناظر هتف بلدوكي قائلا : « لقد قضينا ساعة في اجتياز الكيلومترات الثلاثة التي تفصل مدرستك عن قريـــة الامير » . ولم يرد دارو ، بل ظل يرقبهما وهما يصعدان ، وقد بدا قصيراً متساوي الطول والعرض في صديريته الثقيلة . ولم يرفع العربي رأسه مرة واحدة . وعندمـــا وصلا الى الشرفة قال دارو : « هالو ، ادخلا ، واستدفئا » . وترجل بلدوكي بمشقة عن جواده دون ان يتخلى عن الحبل الذي يربط العربي ، وافتر ثغره ، تحت شاربه الخشن عن ابتسامة طالع بها الناظر . وبدا متأهباً ونشيطاً ، بعينيه السوداوين الصغيرتين ، الغائرتين ، تحت جبهته التي لوحتها الشمس ، وفمه الذي تحيط به التجعدات من كل ناحية . وتناول دارو عنان الجواد وقاده الى الكوخ ، ثم عاد الى الرجلين اللذين كانا ينتظرانه في المدرسة . ومضى بهما الى غرفته وقال : « سأشعل النار في غرفة الصف . فقد نجد فيها راحة اكثر » . وعندما عاد ثانية الى

الغرفة ، راى بلدوكي جالساً على الاريكة ، وقد حلّ الحبل الذي يربطه بالعربي ، واقعى هذا بجانب المدفئة ، وكانت يداه لا تزالان مقيدتين ، وقد دفع باللبدة على رأسه الى الوراء ، وهو يتطلع نحو النافذة . ولاحظ دارو قبل كل شيء ، شفتيه الغليظتين الضخمتين ، كشفاه الزنوج ، ومع ذلك فقد كان انفه مستقيماً ، وعيناه سوداوين ، تغمرهما الحمّى . وكشفت « اللبدة » عن جبهة عنيدة ، وبدا وجهه كله ، تحت جلده المغضّن ، الذي فقد لونه ، نتيجة البرد ، قلقاً ، ثائراً ، أثر على نفس دارو ، عندما التفت اليه العربي ، مواجهاً نظراته ، بنظرات صارمة . وقال الناظر : « اذهبا الى الغرفة الاخرى ، وسأعد لكما قليلا من الشاي المزوج بالنعناع » . ورد بلدوكي : « شكراً ، ما اشد هذا الازعاج ، لشدّ ما اتوق الى التقاعد » . ووجه حديثه الى سجينه باللغة العربية قائلا : « تعال انت » . ونهض العربي ، وخطا ببطء ، وقد امسك برسغيه الموثوقين ، نحو غرفة الصف .

وحمل دارو مقعداً ، عندما أتى لهما بالشاي . ولكن بلدوكي ، كان قد اقتعد اقرب منضدة للطلاب ، بينما اقعى العربي على منصة الاستاذ ، مواجهاً المدفئة ، القائمة بين المنضدة والنافذة . وعندما مد دارو يده بقدح الشاي الى السجين ، تردد ، اذ ابصر بيديه الموثقتين وقال : قد يكون من الافضل حل وثاقه » ، فرد بلدوكي بقوله : « طبعاً ، لقد كان الوثاق ، للرحلة » . واراد الدركي ان ينهض على قدميه ، ولكن دارو وضع القدح على الارض وركع بجانب العربي ، الذي اخذ يراقبه بعينيه المحمومتين ، دون أن ينبس ببنت شفة . ولما وجد يديه طليقتين ، شرع يفرك رسغيه المتورمين ، ثم تناول قدح الشاي ، وبدأ يرشف السائل الغالي ، رشفات سريعة متلاحقة .

وقال دارو : « حسنا ، والى اين تقصد ؟ »

فسحب بلدوكي شاربه من قدح الشاي وقال : « اليك ، يا ولدي » .

– تلميذان غريبان ! وهل تنويان قضاء الليل عندي ؟

– لا . سأعود الى الامير . وعليك ان توصل هذا الشخص الى تنغويت ، حيث ينتظرونه في مقر قيادة الشرطة .

وكان بلدوكي يتطلع الى دارو ببسمة ودود صغيرة .

وقال الناظر متسائلا : وما هي القصة ؟ هل تريد ان تخدعني ؟

– لا ابداً ، يا ولدي ، هذه هي الاوامر .

– « الاوامر ؟ انا لست ... » وتردد دارو اذ لم يكن يقصد ايذاء الكورسيكي العجوز ثم قـــال ... « عنيت ، ان هذا ليس من عملي . »

– ماذا ؟ ماذا يعني قولك ؟ في ايام الحرب . يقوم الناس باداء جميع انواع المهات .

– اذن سأنتظر اعلان الحرب !

واحنى بلدوكي رأسه وقال : « حسناً . ولكن الاوامر موجودة ، وهي تتعلق بك ايضاً . لقد بدأت الامور في طور التخمير كما يبدو . فهناك حديث عن ثورة قادمة ، وقد اصبحنا في حالة تعبئة عامة الى حد ما » .

وظل دارو محتفظاً بنظرته العنيدة الصارمة .

وقال بلدوكي : « اسمع ، يا ولدي . انني احبك ، وعليك ان تفهم ، فعددنا مع الامير لا يتجاوز الاثني عشر ، وعلينا ان نحرس المنطقة كلها التي تؤلف مقاطعة صغيرة . علي ان أعود بسرعة . وقد أمرت ان اسلم هذا الرجل اليك وان اعود دون ابطاء . ولم يكن في الامكان الاحتفاظ به

هناك ، اذ ان قريته قد بدأت تتحرك ، وأراد اهلها استرجاعه . وعليك ان تأخذه غداً الى تنغويت قبل ان ينقضي النهار . ومسافة عشرين كيلو متراً ، لا تقلق انساناً خشناً مثلك . وعندما تؤدي مهمتك ، يكون كل شيء قد انتهى وتعود الى طلابك والى حياتك المريحة » .

وسمع في الخارج صوت الجواد وهو يصهل ، ويضرب الارض بحافره . وكان دارو يتطلع من النافذة . فبكل تأكيد ، اخذ الطقس ينجلي ، والضوء يشتد ، على الهضبة المغمورة بالثلوج . وعندما ستذوب هذه الثلوج ستعود الشمس الى حالتهـــا الأولى ، فتحرق صخور الارض . وستنقضي ايام أخرى والسماء التي لا تتبدل ، تلقي بضوئها الجاف على المدى الوحيد ، حيث لا يتصل أي شيء بالانسان .

وقال دارو وقد التفت نحو بلدوكي : « على كل حال ، ماذا اقترف هذا الرجل ؟ » وقبل ان يفتح الدركي فمه واصل دارو سؤاله قائلا : « هل يتكلم الفرنسية ؟ »

ـ لا ، ولا كلمة واحدة . كنا نبحث عنه منذ شهر ، وكانوا يخفونه ، فقد قتل ابن عمه .

ـ وهل هو ضدنا ؟

ـ اعتقد ، على كل حال ، ليس بوسعك ان تتأكد .

ـ نزاع عائلي على ما اعتقد . وكان احدهما ، قد اقرض الآخر قمحاً كما يبدو . ان الموضوع غير جلي تماماً . على كل حال ، لقد قتل ابن عمه بمطواة معقوفة ، وكأنه من الغنم . لقد ذبحه هكذا .

واشار بلدوكي بيده على رقبته ، واخذ العربي ، الذي اجتذبت حركته

اهتمامه ، يرقبه بنوع من القلق . وأحس دارو بغضب فجائي ، يستهدف الرجل ، بل جميع الرجال . بخلافاتهم وكراهياتهم التي لا يملون منها ، وتعطشهم الى الدماء .

وبدأ « الابريق » يغني على الموقد ، فصب قدحاً آخر من الشاي لبلدوكي ، ثم تردد ، وصب قدحاً ثانياً للعربي ، الذي أخذ يحتسيه للمرة الثانية باشتهاء ورغبة . وعندما رفع يديه ، انفتحت « الجلابية » ورأى الناظر ، صدره النحيل .

وقال بلدوكي : « شكراً يا ولدي ، والآن ، فسأذهب » .

ونهض الدركي ، وخطا نحو العربي وقد اخرج من جيبه حبلاً ، قصيراً وسأله دارو بجفاف : « ماذا تعمل ؟ »

وارتبك بلدوكي ، وعرض عليه الحبل . فقال الناظر : « لا تقلق » .

وتردد الدركي العجوز ثم قال : على كل ، الموضوع عائد اليك ، لا شك انك مسلح ؟

– لدي بندقيتي .

– اين هي ؟

– في الحقيبة .

– عليك ان تضعها قرب سريرك .

– لماذا ؟ انا لا أخشى شيئاً .

– انت مجنون ، اذا وقعت الثورة ، لا يأمن انسان على نفسه . اننا جميعاً في نفس القارب .

– سأدافع عن نفسي ، وسيتوفر لدي الوقت لاراهم وهم قادمون .

وأخذ بالدوكي يضحك ، وغطى شاربه اسنانه البيضاء . ثم قال : « يتوفر

لديك الوقت ؟ حسناً ، هذا ما كنت أقوله . لقد كنت دائماً أقول انك شديد الزهو بنفسك . وهذا هو السبب في حبي لك ، فقد كان ولدي على شاكلتك .

وأخرج في الوقت نفسه مسدسه ، ووضعه على النضد وقال : « احتفظ به ، لن احتاج الى سلاحين في طريقي من هنا الى القرية .

ولمع المسدس على دهان المنضدة الاسود . وعندما التفت الدركي ، اشتم ناظر المدرسة رائحة الجلد المدبوغ ، وشعر الخيل .

وقال دارو بصورة مباغتة : « اسمع يا بلدوكي . ان هذا الوضع يثير في نفسي الاشمئزاز ، ولا سيما ، هذا الرجل الذي معك . ولكني لن اسلمه ، وسأقاتلك اذا اقتضى الأمر ، ولكنني لن اسلمه . »

ووقف الدركي العجوز أمامه . وهو يتطلع اليه بقسوة وخشونة ثم قال ببطء : اسمع لا تكن احمق . انني لا أحب هذا الوضع ايضاً ، فليس في وسعك ان تتعود على وضع حبل في عنق رجل ، حتى بعد سنوات طويلة من الخدمة . ولا شك في انك تشعر بالخجل . أجل بالخجل . ولكن ليس في وسعك ، السماح لهم « بان يحققوا ما يريدون .

وعاد دارو الى القول : لن أسلمه ابداً .

– ولكنه الأمر ، يا ولدي . وانا اكرره .

– حسناً ، ليكن الأمر كما تقول . فاذهب ، وأعد على مسامعهم ما قلته لك . انني لن اسلمه .

وقام بلدوكي بمحاولة ظاهرة ، للتفكير ، وتطلع الى العربي والى دارو ، ثم حزم امره اخيراً ، وقال : « لا ، لن اقول لهم شيئاً . فاذا اردت ان تتخلى عنا ، فامض في طريقك . انني لن أشي بك . ولدي أمر بتسليم

السجين وقد سلمته . والآن ارجو ان توقع لي على هذه الورقة .»

– لا حاجة للتوقيع . لن انكر انك قد تركته معي .

– لا تحاول اهانتي . انما اعرف انك ستقول الحق . فأنت من ابناء هذه الأرض ، وانت رجل أولاً وآخراً . ولكن يجب ان توقع . فهذا ما تقضي به الانظمة .

وفتح دارو درج مكتبه ، واخرج دواة مربعة من الحبر الارجواني ، وتناول الريشة الخشبية ، التي تحمل قلم « العريف » والتي يستخدمها عادة في كتابة نماذج من الخط لطلابه ، ووقع بها . وطوى الدركي الورقة بعناية ووضعها في محفظته ثم اتجه الى الباب .

وقال دارو : « سأودعك الى الخارج » .

فرد بلدوكي : « لا ، ولا فائدة من اظهار الكياسة معي . فقد اهنتني » .

وتطلع الى العربي وهو يجلس هادئاً في نفس مكانه ، واستنشق نفساً طويلاً وهو برم ، ثم اتجه الى الباب وقال : « وداعاً يا ولدي » . واغلق الباب خلفه . وضاع صوت خطواته في الثلوج المتراكمة ، وكان الجواد يتململ ، على الجانب الآخر من الجدار ، بينما كانت فراخ الدجاج تخفق بأجنحتها خوفاً . وظهر بلدوكي بعد لحظة أمام النافذة وهو يقود الجواد من شكيمته . وسار نحو التلة المرتفعة دون ان يلتفت خلفه ، واختفى عن النظر ، والجواد يتبعه . وسمع صوت حجر كبير ، يتدحرج هابطاً . وخطا دارو نحو السجين الذي لم يرفع نظره دون ان يتحرك عن الناظر . وقال دارو بالعربية : « انتظر ثم مضى الى غرفة النوم . وعندما كان يجتاز بابها ، جاءته فكرة . فعاد الى المنضدة وتناول المسدس ووضعه في جيبه .

ودون ان يلتفت وراءه ، دخل الغرفة .

واستلقى على أريكتـــه مدة من الزمن ، يرقب السماء وهي تغلق نفسها بصورة تدريجية ، ويصغي الى صوت السكون الشامل . وكان هذا السكون نفسه ، هو الذي حزّ في نفسه الألم في الأيام الأولى التي قضاها هنا بعـــد الحرب . وكان قد طلب وظيفة في البلدة الصغيرة القائمة عند سفح التلال ، التي تفصل بين الهضاب العليا والصحراء . وهناك كانت الاسوار الصخرية سوداء وخضراء الى الشمال ، وزرقاء فاتحة الى الجنوب تضع حدود الصيف الخالد . وقد عيّن لمنصب يقع في شمال ذلك المكان الذي طلبه ، على الهضبة نفسها . ووجد في بداية الأمر مشقة كبيرة في هذه الوحدة والسكون ، على هذه الاراضي الجرداء ، التي لا تسكنها الا الاحجار . وكثيراً ما تشير الاخاديد الى الاعمال الزراعية ، ولكن هذه الاخاديد المحفورة هنا ، انما استهدفت الكشف عن نوع من الاحجار الصالحة للبناء . والحراثة الوحيدة هنا تستهدف حصاد الصخور . أما في أي مكان آخر فان طبقة رقيقة من التربة تجمع من الاخاديد ، يمكن ان تنشر لتحيل حدائق القرية التافهة الى اراض خصبة . وهكذا كانت الحال ، فالصخور العارية تغطي ثلاثة ارباع المنطقة . ونمت المدن وترعرعت ثم اختفت ، وجاء الرجال ، وأحبوا بعضهم بعضاً أو حاربوا بعضهم بعضاً بمرارة ، ثم مضوا وماتوا . وليس لأي انسان في هذه الصحراء ، سواء اكان هو ، او كان ضيفه ، أية قيمة او اهمية . ومع ذلك ، فخارج هذه الصحراء ، لا يستطيع أي منهما ، كما يعرف دارو ، ان يعيش حقاً .

وعندما نهض من استلقائه ، لم يسمع صوتاً في غرفة الدراسة . وادهشه ما طرأ عليه من احساس نقي من الفرح ، استخلصه من مجرد التفكير ، بأن العربي قد هرب ، وانه عاد وحيداً ، وليس بحاجة الى اتخاذ أي قرار .

لكن السجين ما زال هناك . وكل ما فعله هو انه استلقى بين المدفئة والنضد . وكان يتطلع بعينيه المفتوحتين الى سقف الغرفة . وقد بدت شفتاه الغليظتان ، في هذا الوضع ، بصورة واضحة للغاية ، مكسبتين اياه ، منظر التجهّم والعبوس . وقال له دارو : « تعال » . ونهض العربي على قدميه وتبعه . واشار ناظر المدرسة في غرفة نومه ، الى مقعد قرب المنضدة ، يقوم تحت النافذة . وجلس العربي دون ان يرفع نظره عن دارو .

وقال الناظر – « هل انت جائع » .

فرد السجين – « نعم » .

وأعد دارو المائدة لاثنين . واخرج قليلاً من الدقيق والزيت ، واعد كعكة في المقلاة ، ثم اشعل « البوتاغاز » . وبينما كانت الكعكة على النار ، ذهب الى الكوخ ليحضر بعض الجبن والبيض والتمر والحليب المكثّف . وعندما انهى طهي الكعكة ، وضعها على عتبة النافذة حتى تبرد ، ووضع على النار قليلاً من الحليب بعد ان اذابه بالماء ، وخفق البيض ليعده على شكل « عجة » . وبينما كان يتحرك يمنة ويسرة اصابت يده المسدس الذي وضعه في جيبه الأيمن . فوضع القصعة جانباً وذهب الى غرفة الدرس ، حيث اودع المسدس ، درج مكتبه . وعندما عاد الى الغرفة ، كان الليل قد هبط . فأشعل النور ، ثم قدم الطعام الى العربي ، قائلاً « كل » . وتناول العربي قطعة من الكعكة ، ورفعها الى فمه ، ثم توقف قبل وصولها . وقال : « وأنت ؟ »

– سآكل ، بعد ان تنتهي ، ايضاً .

وانفرجت الشفتان الغليظتان بعض الشيء . وتردد العربي قليلاً . ثم شرع بعض الكعكة ، باصرار .

وعندما انتهت وجبة الطعام ، تطلع العربي الى ناظر المدرسة وقال :
« هل انت القاضي ؟ »

– لا ، وانما اقوم على حراستك الى الغد .

– ولماذا تأكل معي ؟

– لأني جائع .

وسكت العربي . ونهض دارو من مكانه ، وخرج . وجاء من الكوخ بسرير مطوي ، نصبه بين المائدة والمدفأة ،وعلى زاوية عمودية مع سريره . وأخرج من حقيبة كبيرة في زاوية الغرفة ، جعل منها رفاً لأوراقه ، بطانيتين ، نشرهما على السرير . ثم توقف ، فقد شعر بعدم جدواه ، وجلس الى سريره . ولم يبق هناك ما يعمله او يعده سوى التطلع الى هذا الرجل . ونظر اليه ، وحاول ان يتصور هذا الوجه وهو يتفجر بالغضب ، فلم يستطع ولم يتمكن من رؤية شيء ، الا العينين السوداوين البراقتين ، وفم الحيوان . وسأله بصوت ينم عن العداء مما ادهشه ... لماذا قتلته ؟

وتطلع العربي بعيداً .

– لقد فر وقد ركضت وراءه .

ورفع عينيه الى دارو ، ثانية ، وكانتا مليئتين بالكثير من التساؤل المكروب ... والآن ، ماذا سيفعلون بي ؟

– هل انت خائف ؟

وتصلبت اعضاؤه ، وأدار رأسه جانباً .

– وهل أنت آسف ؟

وركز العربي انظاره فيه ، وقد فتح فمه . لا شك في انه لم يفهم . وازداد قلق دارو وانزعاجه . وأحس في نفس الوقت بشعور وجداني غريب ،

عندما اصبح جسده الكبير محصوراً بين السريرين . وقال لضيفـه بفروغ صبر : استلق هناك ، ذاك هو سريرك . »

ولم يتحرك العربي ، وانما قال لدارو ... » قل لي !

وتطلع اليه ناظر المدرسة .

– هل سيعود الدركي غداً ؟

– لا ادري .

– هل ستأتي معنا ؟

– لا ادري . لماذا ؟

ونهض السجين ، وقذف بنفسه على السرير فوق البطانيات ، وقد اتجه بقدميه الى النافذة . وتسلـّط الضوء المنبعث من المصباح الكهربائي على عينيه مباشرة ، فاغلقهما فوراً .

وقال دارو مكرراً ، وهو يقف بجانب السرير – لماذا ؟

وفتح العربي عينيه أمام الضوء الشديد الذي يعشي الأعين وتطلـع اليه محاولاً ان لا يغمض له جفن ، وقال ... تعال معنا !

* * *

وحل منتصف الليل ، ولم تكن عين دارو قد اغفت بعد . وكان قـد ذهب الى سريره ، بعد ان نزع عن جسده جميع ملابسه ، فقد ألف النوم عارياً . ولكنه عندما ادرك ، انه لا يرتدي شيئاً ، تردد . فقد أحس بانه معرض للهجوم والاقتحام وراوده احساس بارتداء ملابسه من جديد ، لكنه ما فتىء ان هز كتفيه ، فهو على كل حال ليس بالطفل ، وفي وسعه اذا اقتضت الحاجة ، ان يشطر خصمه شطرين . وكان في وسعه ان يراقبـه من سريره ، وقد نام على ظهره ، دون حراك ، وقد اغلق عينيه ، أمام ذلك الضوء القاسي . وعندما اطفأ دارو النور ، رأى الظلمة بدأت تتخثر

فجأة . وعاد الظلام شيئاً فشيئاً الى الحياة عبر النافذة ، حيث كانت السماء الخالية من النجوم ، تهتز بنعومة . واستطاع الناظر فوراً تمييز الجسد الملقى عند قدميه وعلى الرغم من ان عينيه كانتا مفتوحتين ، الا ان العربي ظل بلا حراك . وهبت ريح خافتة تطوّف حول بناء المدرسة . وخيّل لدارو ان هذه الريح ستطرد الغيوم وتعود الشمس الى الظهور والاشراق .

واشتد هبوب الريح ، اثناء الليل . ورفرفت الدجاجات بعض الوقت ثم هدأت . واستدار العربي على جانبه معطياً ظهره لدارو الذي خيل اليه انه يسمعه وهو يئن . وانصت الى صوت تنفس ضيفه ، فرآه ينتظم ، ويثقل . واصغى الى ذلك التنفس قريباً منه ، وتاه في بحر من التأملات دون ان يستطيع النوم . واقلقه ان يكون هذا الشخص موجوداً معه ، في هذه الغرفة حيث كان ينام وحيداً منذ نحو من سنة . ولكن اكثر ما اقلقه ، ان هذا الوجود فرض عليه نوعاً من الأخوة التي يعرفها تمام المعرفة ، ولكنه يرفض قبولها في مثل هذه الظروف القائمة . فالرجال الذين يشتركون في نفس الغرف سواء ا كانوا من الجنود أو من المسجونين ، ينمون عن نوع من التحالف الغريب ، وكأنهم عندما يقذفون بسلاحهم مع ملابسهم قبل النوم ، يتآخون كل ليلة ، متناسين خلافاتهم ، ومتجاهلينها ، في ذلك المجتمع العريق من الاحلام والمتاعب . وهز دارو جسده ، فقد كره هذا النوع من التأملات ، وكان من الضروري ان ينام .

وبعد قليل ، عندما تحرك العربي حركة خفيفة ، كان ناظر المدرسة لا يزال واعياً . وعندما قام السجين بحركة ثانية ، تصلبت عضلات الناظر متأهباً . كان العربي يرفع نفسه ببطء على ذراعيه ، بمثل الحركة التي يقوم بها من يمشي في نومه . وعندما اصبح جالساً في فراشه ، انتظر دون حراك ،

ودون ان يلتفت برأسه الى دارو ، وكأنه ينصت باهتمام زائد . ولم يتحرك دارو ، فقد طاف بخاطره ان المسدس ما زال في درج المكتب . وكان من الافضل ان يعمد الى العمل فوراً . لكنه واصل مراقبة السجين الذي ظل يتحرك حركته الانزلاقية ووضع قدميه على الارض ، ثم انتظر ثانية ، قبل ان يشرع في الوقوف ببطء . وكان دارو على وشك ان يهتف به ، عندما رأى العربي يبدأ سيره بصورة طبيعية هادئة ، ولكنها صامتة بشكل غريب . وكان يتجه الى الباب القائم في طرف الغرفة والمؤدي الى الكوخ . ورفع المزلاج بحرص وعناية ، ثم خرج ، دافعاً الباب وراءه دون ان يغلقه . ولم يتحرك دارو ، وخيل اليه ان العربي يريد الفرار ، وانها فرصة للتخلص منه . ومع ذلك فقد ظل مصغياً باهتمام اليه . ولم يسمع صوت الدجاج وهي تخفق باجنحتها ، وخيل اليه ان الضيف في طريقه الى الهضبة . وسمع صوت خرير مياه خافت ، ولم يستطع ان يعرف كنهه الا عندما رأى العربي ، يقف ثانية في الباب ، ويغلقه بعناية ، ويعود الى فراشه دون ان يحدث صوتاً ، وادار دارو عند ذاك ظهره اليه وراح في سبات عميق . ومع ذلك فقد ظل يسمع ، في اعماق سباته ، خطوات مختلسة ، تدور حول بناء المدرسة . وقال لنفسه « لا شك انني احلم ، لا شك انني احلم » ، ثم مضى يستأنف نومه .

وعندما استيقظ ، كانت السماء صافية ، وتسلل من النافذة المفتوحة نسيم عليل بارد . ورأى العربي ما زال نائماً في فراشه ، وقد تكوّم تحت البطانيات ، وفتح فمه ، واسترخى كل استرخاء . وعندما هزّه دارو ليوقظه ، فتح عينيه ، والخوف يسيطر عليه ، وتطلع بهما الى دارو ، وفي نظرته وحشية واستغراب ، وكأنه يراه للمرة الأولى ، وبدا الخوف جلياً على ملامحه ، مما حمل ناظر المدرسة على التراجع قائلاً : « لا تخف . انه انا . عليك ان تستيقظ لتأكل » . واحنى العربي رأسه مجيباً بالقبول .

وعاد الهدوء الى وجهه ، ولكن تعبيره كان لا يزال خالياً من كل اكتراث أو اهتمام .

وكان دارو قد اعد القهوة . وجلسا معاً على السرير يحتسيانها ، ويقضمان قطعاً من الكمكة . ثم قاده دارو من يده الى الكوخ حيث ارشده الى المكان الذي يغتسل فيه . وعاد دارو الى غرفته حيث طوى البطانيات والفراش ورتب سريره ، واعاد تنظيم الغرفة . واجتاز بعد ذلك غرفة الدرس الى الشرفة . وكانت الشمس قد تعالت في كبد السماء الزرقاء ، وغمر الهضبة المهجورة ضوء ناعم مشرق . وبدأ الثلج في الذوبان على الرابية ، في نقاط متعددة . واوشكت الحجارة على الظهور ، بعد ان ظلت مختفية تحت الثلج . وتطلع الناظر الى المدى المهجور ، رابضاً عند طرف الهضبة ، فعادت به الذاكرة الى بلدوكي . لقد اساء اليه ، وطرده وكأنه لا يريد ان يتعامل معه أو يرتبط به . انه ما زال يسمع الدركي وهو يودعه ، وأحس دون ان يدري ، بشعور غريب من الخواء ، والتعرض للاقتحام والهجوم ، وسمع في تلك اللحظه سعال السجين من الطرف الثاني لبناء المدرسة ، وأصغى دارو لسعاله رغماً عنه ، وقذف وهو ثائر حصوة ، احدث انطلاقها ازيزاً في الهواء ، قبل ان تغرق في الثلج . وكان يشعر بالثورة على جريمة ذلك الرجل البليدة ، ولكن تسليمه أمر يخالف الشرف . وكان مجرد التفكير في ذلك يبعث في نفسه شعوراً من الاذلال . وبدأ يشتم في نفس اللحظة جماعته ، الذين بعثوا بهذا العربي اليه ، كما شتم العربي ايضاً لانه اجترأ على القتل ، ولم يتمكن من الهرب . ونهض دارو من مكانه ومشى بصورة دائرية في الشرفة ، ثم انتظر قليلاً دون حراك ، قبل ان يعود الى بناء المدرسة .

ورأى العربي متكئاً على ارض الكوخ الممددة من الاسمنت ، وهو يغسل

اسنانه باصبعيه . وتطلع اليه دارو وقال : « تعال » . وعاد الى الغرفة يتبعه السجين . وارتدى سترة صيد فوق صديريته ، كما انتعل حذاء للمشي ، وانتظر واقفاً ، العربي وهو يرتدي لبدته على رأسه ، ونعليه في رجليه . ومضيا بعد ذلك الى غرفة الدرس ، واشار الناظر الى الباب قائلاً : « اذهب » ولكن الرجل لم يتحرك . وقال دارو « سآتي معك » . وخرج العربي . وعاد دارو الى الغرفة واعد ربطة تضمنت قطعاً من الخبز الجاف والتمر ، والسكر . وتردد لحظة واحدة في غرفة الدرس قبل ان يخرج ، أمام مكتبه ، ثم اجتاز العتبة ، واغلق الباب ، وقال : « هذه هي الطريق » . واتجه شرقاً ، يتبعه السجين . وخيل اليه بعد ان قطع شوطاً قصيراً من المدرسة ، انه سمع صوتاً خافتاً وراءهما . فكر راجعاً على عقبيه ، وأخذ يفتش المنطقة المحيطة بالمدرسة ، فلم يجد احداً ، بينما كان العربي يرقبه دون ان يبدو عليه الفهم . وقال دارو من جديد : « هيا بنا » .

ومشيا نحواً من ساعة ، واستراحا قرب قمة مدببة من الصخور الصوانية . وبدأ الثلج يذوب بسرعة اكثر فاكثر ، وأخذت الشمس تشرب من مياه البرك المتجمعة من ذوبان الثلوج ، منظفة بسرعة ارض الهضبة التي جفّت بصورة تدريجية وأخذت تهتز وترتجف كاهتزاز الهواء نفسه . وأخذت الأرض ترن تحت اقدامهما عندما استأنفا السير . وكان أحد الطيور ، يخترق الفضاء بين آونة وأخرى ، أمامهما ، مزقزقاً فرحاً وشرع دارو يعب هـــواء الصباح العليل ، بملء رئتيه . وأحس بنشوة غامرة أمام المدى الفسيح المألوف لديه ، الذي اكتسى الآن صفرة كاملة تحت قبة السماء الزرقاء . ومشيا ساعة اخرى ، هابطين باتجاه الجنوب . ووصلا ارضاً مستوية مؤلفة من صخور متفتتة . وبدأت الهضبة من هناك تنحدر نزولاً ، نحو الشرق ،

الى سهل منخفض، تقوم فيه بعض الاشجار الرفيعة العالية، ونحو الجنوب باتجاه نتوءات صخرية ، تكسب المنظر الارضي ، طابع الفوضى .

وفحص دارو الاتجاهين . ولم يبد فيهما إلا السماء متصلة بالافق ، فلا حركة ولا انسان فيهما . والتفت الى العربي ، الذي كان يتطلع اليه بسذاجة . ومد دارو يده اليه بالربطة التي يحملها وقال : « خذها ، ففيها تمر وخبز وسكر . وستكفيك يومين اثنين ، وخذ هذه الالف « من الفرنكات ايضاً » . وتناول العربي الربطة والمال ، ولكنه احتفظ بجماع يديه عند صدره وكأنه لا يدري ماذا يفعل بالاشياء التي تناولها . وقال ناظر المدرسة وهو يشير باتجاه الشرق : « والآن ، انظر ، فهذه هي الطريق الى تنغويت ، وفي وسعك ان تصلها بعد ساعتين . وستجد في تنغويت الادارة ورجال الشرطة في انتظارك » . وتطلع العربي باتجاه الشرق ، وهو ما زال يحمل الربطة والمال ، على صدره . وأمسك دارو بكوعه ، وأداره بخشونة نحو الجنوب . وتراءت امامهما في سفح المرتفع الذي كانا يقفان عليه، طريق ضيقة . وقال دارو « وهذه الطريق ، تجتاز الهضبة ، فاذا واصلت السير فيها يوماً كاملاً ، وصلت الى المراعي ، وقابلت اول القبائل الرحل . وسيرحبون بك ، ويأخذونك في ضيافتهم طبقاً لشرعتهم » . والتفت العربي في هذه اللحظة الى دارو ، وبانت في تقاطيعه تعبيرات واضحة من الخوف والفزع . وقال « اسمع » . ولكن دارو هز رأسه وقال : « لا ، اصمت . انني سأتركك الآن » . وادار له ظهره وخطا خطوتين واسعتين باتجاه المدرسة ثم التفت الى العربي متردداً لحظة واحدة بعد أن رآه جامداً في مكانه ، واستأنف سيره . وانقضت بضع دقائق لم يسمع فيها إلا وقع خطاه على الارض الباردة ، ولم يلتفت وراءه . ولكنه بعد لحظة استدار ليتطلع الى العربي فرآه لا يزال واقفاً عند طرف التل ، وقد تدلت يداه ،

وهو ينظر الى ناظر المدرسة . وأحس دارو بشيء في حلقه . ولكنه شتم معرباً عن فروغ صبره ، ولوّح بيده ومضى ثانية في سيره . وقطع مسافة طويلة قبل ان يتوقف ثانية لينظر خلفه . ولم يجد هـــذه المرة احداً على التل .

وتردد دارو . وكانت الشمس قد ارتفعت عالية في السماء ، وأخذت تقرع بشدة ، شعر رأسه . ورجع الناظر القهقرى متردداً في البداية ، ثم حازماً امره ، بعد قليل . وعندما وصل التـــل الصغير ، كان يسبح في بحر من العرق . وصعد التل بإسرع ما امكنه ، ووقف على قمته لاهثاً يلتقط انفاسه . وكانت حقول الصخور في الجنوب تقف صامدة امام السماء الزرقاء ، بينما ارتفعت في السهل الممتد الى الشرق ، حرارة تبعث البخار في كل مكان . ورأى دارو ، في ذلك اللألاء من وهج الشمس،بقلب افعمه الاسى العربي وهو يسير بخطو بطيء في طريقه الى السجن .

وبعد قليل ، وقف الناظر أمام نافذته في غرفة الدرس ، يرقب الضوء الساطع ، وهو يغمر سطح الهضبة كلها ، فلم يستطع تمييز هذا الضوء رغم شدة اشراقه . وظهرت على اللوح الاسود وراءه ، بين انهار فرنسا الكلمات التالية وقد كتبت بالطباشير : « لقد سلمت أخاً لنا . وستدفع ثمن ذلك غالياً » . وتطلع دارو الى السماء والى الهضبة ، والى ما وراءها من اراض لا يحدها النظر تمتد بعيداً الى البحر . وشعر بوحدته في هذا المنظر الطبيعي الذي طالما أحبه .



الفنان يعمل ...

« خذوني ، واقذفوا بي الى البحر ... فانا اعرف ان هذه العاصفة الهائلة تهب عليكم بسببي .

يونان . الاصحاح الأول .

آمن جيلبرت يوناس ، الرسام ، بطالعه . ومن الحق ان يقال ، انه لم يؤمن بشيء آخر ، على الرغم من احساسه بالاحترام ، وحتى بنوع من الاعجاب بما يدين به الاخرون . لكن عقيدته ، على كل حال ، لم تكن لتفتقر الى الفضائل ، اذ انها تتلخص ، في الاعتراف اعترافاً غامضاً ، بأنه سيحصل على الكثير مع انه لا يستحق شيئاً . وكنتيجة لذلك ، فعندما اختلف عدد كبير من النقاد ، فجأة ، وكان هو في الخامسة والثلاثين آنذاك ، في الشخص الذي يرجع اليه الفضل في اكتشاف مواهب الفنان ، لم يبد جيلبرت اية دهشة ، لكن رصانته ، التي يعزوها البعض الى الغرور والكبرياء ، نجمت ، على النقيض ، عن التواضع الواثق المطمئن . فقد عزا يوناس كل شيء الى طالعه ، لا الى مواهبه وكفاءاته .

وقد دهش الى حد ما ، عندما عرض عليه ، أحد تجار الصور ، راتباً شهرياً يحرره من كل هم ، وقلق . واشار المهندس المعماري رايتو الى يوناس الذي كان يحبه كما يحب طالعه ، منذ ايامهما المشتركة في المدرسة ، بان هذا الراتب ، لا يكاد يفي بمستلزمات الحياة البسيطة العادية ، وان التاجر ، لا

يجازف بشيء في عرضه . لكن يوناس ارتضى بالعرض قائلاً : « سأقبل به مهما كان » . لكن رايتو الذي نجح بفضل عمله المجد الكادح ، في كل ما اقدم عليه ، انب صديقه على قناعته قائلاً « ماذا تعني بأنك ستقبل به مهما كان ؟ عليك ان تساوم . لكن تأنيبه لم يجد . واتجه يوناس الى فؤاده ، الى طالعه ، بالشكر والحمد ، وقال للتاجر : حسناً ، كما تريد » . ثم تخلى عن وظيفته في دار النشر التي يملكها ابوه ليتفرغ بكليته للرسم قائلاً لنفسه : « يا له من حظ حسن » .

وفي الحقيقة فقد فكر بانه نفس الحظ الحسن القديم ، فهو عندما يعود بذكرياته القديمة الى الوراء ، يجد نفس الحظ الحسن عاملاً مجدياً . فهو يشعر مثلاً ، بالاعتراف بالجميل المشوب بالحب والحنان لوالديه ، لانهما اولاً ، انشآه نشأة لا عناية فيها ولا اهتمام ، مما اطلق العنان ، لاحلامه وخيالاته ، وثانياً لانهما قد افترقا ، بسبب اتهامات اخلاقية تتعلق برذيلة الزنا . على كل حال ، كانت هذه هي الحجة التي تذرع بها والده ، الذي نسي ان يحدد التهمة بأنها جريمة زنا من نوع غريب . فهو لم يستطع احتمال ما تقوم به زوجته من اعمال الخير، اذ انها كقديسة صادقة ، كانت قد وهبت نفسها جسداً وروحاً، دون ان ترى في ذلك ، أي خطأ او إثم ، الى الانسانية المعذبة . لكن الزوج اراد ان يكون سيداً لفضائل زوجته ، ولسان حاله يقول كما قال عطيل من قبل : « لقد تعبت ومرضت من رؤيتي نفسي اشترك فيها مع الفقراء . »

وكان هذا الخلاف مفيداً ليوناس ، إذ ان والديه وكانا قد قرءا او سمعا بالقضايا العديدة عن القتلة ذوي الميول السادية الجنسية ، الذين ينشأون في عائلات دب فيها الطلاق، كانا يتباريان في حشو رأسه بالافكار لازالة أية لمحة من لمح مثل هذا التطور التعيس . وكلما كان الجرح الذي تركه طلاقهما في

نفسية الطفل أقل وضوحاً ، كلما اشتد قلقها ، لان الدمار يكون أعمق اثراً . وكان مجرد قول يوناس ، بأنه مسرور من نفسه أو من يومه ، كافياً لان يحيل قلق والديه العادي الى فزع مخيف . وزادت عنايتها بالطفل ، الذي لم يعد ينقصه شيء .

وادت مصيبته المزعومة اخيراً ، الى ان يكسب اخاً ودوداً في شخص صديقه راتيو . وكان والدا راتيو يحتفيان بزميل ولدهما الصغير ، لأنهما يشفقان على حالته التعيسة . وأوحت ملاحظاتهما العطوفة الى ولدهما الرياضي والقوي البنية ، بالرغبة في ان يشمل بحمايته الطفل الذي أخذ يعجب بنجاحه اللامبالي . وامتزج الاعجاب بالوداعة ليخلقا نوعاً من الصداقة التي تقبلها يوناس كما تقبل كل شيء آخر ببساطة مشجعة .

وعندما انهى يوناس ، دون أي مجهود خاص ، دراساته الشكلية ، اتاح له حظه ، من جديد ، ان يجد عملاً في دار النشر التي يملكها والده ، ومتنفساً لفنه كرسام . وكان والده بوصفه اكبر ناشر في فرنسا ، يعتقد ان الكتب ، نتيجة غوصها في ميادين الثقافة ، تمثل المستقبل . وكثيراً ما يقول : « يظهر التاريخ ، انه كلما قلت قراءة الناس ، كلما ازداد عدد الكتب التي يبتاعونها» وقلما كان يقرأ تبعاً لذلك ، نسخ الكتب الخطية التي تعرض عليه ، بل يقرر نشرها على أساس شخصية المؤلف ، او جاذبية موضوع الكتاب ، وكانت المواضيع الجنسية في رأيه أكثر الكتب استهواء أو جاذبية للقراء ، ولا سيما اذا مضت الى التخصص ، وكان يقضي وقته في قراءة المسودات النهائية لمطبوعاته ، أو في البحث عن الاعلانات المجانية . وعندما تولى يوناس دائرة قراءة المخطوطات ، توفر له وقت فراغ طويل ،فتحتم عليه ان يملأه بشيء ما ، وهكذا تعرف على الرسم .

واكتشف في نفسه لأول مرة ، حماساً غير منتظر ، لا يكل او يتعب ، فكرّس ايامه للرسم ، ودون ان يبذل مجهوداً كبيراً تفوق في هذا التمرين الجديد . ولم يستأثر باهتمامه أي شيء آخر ، وكان عاجزاً تقريباً عن الزواج في الوقت المناسب لان الرسم ، استنفد جميع اوقاته . واحتفظ للناس ولظروف الحياة العادية ، ببسمة لطيفة انقذته من اظهار منتهى العناية بهم واقتضاه الوقوع في الحب ان يتعرض لحادث دراجة نارية ، فقد كان يستقل المقعد الخلفي وراء صديقه راتيو الذي سار بسرعة فائقة ، عندما وقع الحادث ، واضطر الى ربط يده اليمنى وبالتالي الى الوقوع في الحب . وكان ميالاً من جديد الى ان يرى في هذا الحادث الخطير عناية طيبة من طالعه الحسن ، اذ لولا وقوعه لما توفر له الوقت ليرى لويز بولين بالشكل الذي تستحقه .

ومن الجدير بنا ان نضيف هنا ، ان لويز ، لم تكن في رأي راتيو ، تستحق ان يتطلع اليها انسان . فقد كان راتيو قصيراً وقوياً ، وكان يحب من النساء الطويلات ، الفارعات العود . وكثيراً ما قال لصديقه « لا أدري ماذا تجد في هذه الحشرة » . وكانت لويز في الحقيقة صغيرة وسمراء البشرة والعينين ، مع جسم ممتلىء ووجه جميل . اما يوناس الطويل ، والجذاب ، فقد استهوته هذه الحشرة ، ولا سيا وانها من النوع الجدّ الفعّال ، اذ ان فنها يقوم في نشاطها وحيويتها . وكان هذا الفن يتفق مع ميول يوناس الى الاستمرار ، مع ما فيه من فوائد . وقد كرست لويز نفسها في البداية للادب ، الى المدى الذي فكرت فيه بان النشر يستهوي يوناس . وكانت تقرأ كل شيء ، دون نظام ، وتمكنت بعد بضعة اسابيع من ان تتحدث في كل موضوع . واعجب يوناس بها ، واعتبر نفسه في منجاة من القراءة ، لان لويز ، كانت تنقل اليه ما فيه الكفاية وتطلعه على جوهر الاكتشافات

العصرية . وطالما سمعها تقول له « عليك ان لا تصف هذا الشيء بالقبح أو البشاعة ، بل تكتفي بمجرد القول انه يبدو قبيحاً او بشعاً . وكان الفرق مهماً ، وقد يؤدي ، كما كان راتيو يشير ، الى ادانة الجنس البشري . لكن لويز ، قطعت في الموضوع ، مرة والى الابد ، بقولها ان هـــذه الحقيقة تؤيدها الصحافة العاطفية والمجلات الفلسفية ، ولذا فهي حقيقة عالمية ، ولا يمكن النقاش والجدل فيها . وقد رد يوناس قائلاً : « كما تريدين » وقد تناسى فوراً ذلك الاكتشاف الفظيع لاحلامه ، بواسطة طالعه .

وهجرت لويز الادب ، عندما ادركت ان اهتمام يوناس اصبح محصوراً بالرسم . وكرست نفسها فوراً ، للفنون النظرية ، فأخذت تزور المتاحف والمعارض ، وتجر يوناس اليها ، مع انه لم يكن يفهم مطلقـــاً ماذا يرسم معاصروه ، وكان يشعر بالارتباك من سذاجته الفنية . ومع ذلك فقـد سر كثيراً ، ليطلع على كل شيء ، يتعلق بفنه . واذا اردنا الحق ، فقد كان ينسى في اليوم التالي اسم الرسام ، الذي رأى صوره في اليوم الاول . لكن لويز كانت على حق ، عندما كانت تذكره ، بصورة قطعية ، باحدى الحقائق التي حفظتها اثناء فترة قراءاتها الادبية ، وهي ان الانسان في الحقيقة لا ينسى شيئاً . وقد حرسه حسن طالعه بصورة أكيدة ، فمكنه دون ان يشعر بأي الم في ضميره من ان يجمـع بين حقائق التذكر ، ومباهج النسيان .

وبدأت كنوز التضحيات بالذات التي كانت لويز تغدقها عليه ، بصورة مشرقة في حياته اليومية . فقد وفرت عليه هذه الملاك شراء احذيته وملابسه وقمصانه ، وهي أمور تقصر بالنسبة للرجل العادي أجل حياته القصيرة جداً . وأخذت على عاتقها باصرار ، ألوف الاختراعات في آلة قتل الوقت . من تزويده بالبحوث القصيرة السحرية عن الضمان الاجتماعي ، الى الاوضاع الدائمة التغير ، من مكاتب ضريبة الدخل المحلية ، اذ كانت تقوم

عنه بدفع ضريبته ورسوم بوليصة التأمين على الحياة . وعلق راتيو على ذلك بقوله : « حسناً ، ولكنها لا تستطيع ان تذهب الى طبيب الاسنان بدلاً عنك » . وقد لا تذهب الى الطبيب ولكنها تهتف له ، وترتب له مواعيده ، في أحسن الساعات مناسبة له ، وكانت تهتم بتبديل الزيت في سيارته الصغيرة ، وفي حجز الغرف في الفنادق اثناء العطل ، وبتأمين الفحم لمدفأته ، وكانت تبتاع له الهدايا التي يريد تقديمها ، وتختار له الزهور التي يريد ارسالها ، وتجد الوقت الكافي في امسيات معينة ، لزيارة بيته في غيابه ، واعداد فراشه للنوم ، حتى توفر عليه مشقة القيام بهذا العمل ، عندما يعود .

وبنفس هذا الحماس ، طبعاً ، دخلت ذلك الفراش ، واهتمت بالموعد مع رئيس البلدية ، وأخذت بيد يوناس الى قاعة البلدية قبل سنتين ، من الاعتراف بموهبته كرسام ، حيث تزوجا ثم سافرا لقضاء شهر العسل ، بعد ان رتبت الأمور ، بشكل ، يضمن لهما عدم اضاعة اي معرض من المعارض . وعثرت بعد جهد ، رغم ازمة المساكن على شقة مؤلفة من ثلاث غرف ، حيث اقاما بعد عودتها . وولدت له ، على التعاقب وبسرعة كبيرة ، طفلين ، ذكراً وانثى . وحققت عزمها في الحصول على الطفل الثالث ، بعد مغادرة يوناس فوراً لدار النشر ، ليكرس نفسه للرسم .

ومن الجدير ان يضاف هنا ، ان لويز بعد ان اصبحت أماً ، كرست نفسها بصورة كلية لطفلها ثم لاطفالها . وكانت تحاول ان تساعد زوجها ، ولكن الوقت لم يتوفر لها . وكانت بالتأكيد ، تأسف كل الاسف ، لاهمالها يوناس ، لكن طبيعتها ، الصلبة الارادة لم تمكنها من إضاعة الوقت في مثل هذا الاسف . وكثيراً ما كانت تقول لنفسها : « ليس بوسعي ان اعمل شيئاً ، فلكل منا منضدة شغله » . وقد فرح يوناس على كل حال بهذا

التعبير ، اذ انه كغيره من فناني عصره ، كان يود ان ينظر اليه كصاحب حرفة يدوية . وهكذا اصبح صاحب الحرفة مهملاً ، وتحتم عليه ان يبتاع احذيته بنفسه . ومع ذلك ، وبالاضافة الى ان هذه الحقيقة تتفق مع طبيعة الأمور ، مال يوناس من جديد الى الرضى والقناعة . وبالطبع ، كان عليه ان يبذل جهداً في زيارة الحوانيت ، ولكن هذا الجهد كان يجزى بساعة من ساعات الوحدة ، التي تعطي النعمة الزوجية قيمتها .

واصبحت مشكلة مجال الحياة مع ذلك اعظم مشاكلها ، اذ ان الزمن والمجال اخذا يتقلصان معاً حولهما. فمجيء الاطفال ، ومهنة يوناس الجديدة ، ومسكنهما المحدود ، وراتبه الشهري المتواضع الذي يحول بينهما وبين الانتقال الى شقة اكبر ، لم تترك مجالاً كبيراً لنشاط لويز ويوناس المزدوج . وتقوم الشقة في الطبقة الثانية من مسكن كان خاصاً في القرن الثامن عشر ، من القسم القديم من العاصمة . ويعيش في هذا الحي عدد من الفنانين اوفياء للمبدأ القائل ان اللحاق بالجديد في الفن يمكن ان يتم فقط في اطار قديم . وكان يوناس يؤمن بهذا الرأي ، ولذا فقد كان مسروراً بالعيش في ذلك الحي .

ولم يكن ثمة مجال للتفكير ، بقدم الشقة ، لكن بعض الترتيبات العصرية جداً التي ادخلت عليها قد اضفت عليها مظهراً ابتكارياً ناتجاً ، بصورة رئيسية ، عن الحقيقة ، بأنها تؤمن حجماً كبيراً من الهواء . بينما لا تشغل الا مساحة محدودة من سطح الارض . وكانت الغرف عالية بصورة بارزة ، وقد نعمت بنوافذ مرتفعة رائعة ، وكان القصد منها كما يستطيع الانسان ان يحكم من ابعادها الفخمة ، ان تكون قاعات للحفلات والاستقبالات . لكن ضرورات الازدحام في المدن ، والحصول على الدخل من امتلاك المساكن ، قد ارغمت اصحاب هذا البيت المتعاقبين ، على تقسيم

هذه الغرف الفسيحة الضخمة ، بقواطع وحواجز ، فيضاعف بـذلك عدد الحظائر التي يؤجرونها بمبالغ ضخمة ، الى قطعان المستأجرين . ومـع ذلك ، فكانوا يطردون دائماً ما يسمونه « بالحجم المكعب » .وليس في وسع احد ان ينكر الفائدة ، ومن الممكن ان تعزى الى استحالة تقسيم الغرف افقياً ايضاً ، والا لوجدنا اصحاب الاملاك ، لايترددون لحظة واحدة في اجراء التضحيات اللازمة لايجاد عدد آخر من المآوي للجيل الصاعد ، لا سيما وان هذا الجيل كان ميالاً في تلك اللحظة الى التزاوج والتوالد . يضاف الى هذا ان الحجم المكعب للغرف لم يكن دائماً مفيداً ، اذ يجعل من الصعب تدفئتها في الشتاء ، مما يحمل اصحاب الاملاك ، على زيادة الاجر الاضافي الذي يتقاضونه مقابل التدفئة . أما في الصيف ، فبالنسبة الى مساحة النوافذ الكبيرة ، والى عدم وجود ستائر خشبية عليها . كانت الشقق دائماً مغمورة بالضياء . وقد اهمـل اصحاب الاملاك وضع هذه الستائر ، اذ أثبط عزائمهم حتماً ارتفاع النوافذ . وارتفاع تكاليف اعمال النجارة . وفي وسـع المستأجرين ان يضعوا عليها ستائر قماشية كثيفة ، تؤدي الى نفس النتيجة ، ولا تسبب مشكلة لاصحاب الاملاك من ناحية التكاليف ، لأن مسؤوليتها تقع على المستأجرين . وكان الملاكون على استعداد لمساعدتهم،بتأمين الستائر لهم من مستودعاتهم باسعار التكليف.فالاحسان وعمل الخير في تأجير البيوت وتأثيثها كانا من مهمتهم، اذ ان العمل اليومي المنظم لهؤلاء الامراء الجدد كان بيـع المنسوجات القطنية والمخملية .

وكان يوناس قد ذهب في نشوة من ترداد محاسن هذه الشقة ، وقبل عيوبها دون اية صعوبة ، وقال لصاحب الملك ، « كما تريد » رداً على مطالبه بصدد الاجرة الاضافية على الحرارة . واما بصدد الشتاء ، فقد اتفق مع لويز ، على انـه يكفي تزويد غرفة النوم بالستائر وترك الغرف الاخرى عارية . وقال

صاحب ذلك القلب النقي الصافي : « ليس لدينا ما نخفيه » وقد ذهل يوناس بصورة خاصة من الغرفة الكبرى ، التي كان سقفها مرتفعاً الى الغاية ، بحيث لم يكن هناك أي مجال للسؤال عن وضع جهاز خاص للاضاءة فيها . وكان المدخـــل الخارجي ، يؤدي فوراً الى تلك الغرفة ، التي تتصل بالغرفتين الاخريين بواسطة قاعة ضيقة ، وهما غرفتان تقعان في صف واحد ، وتقلان عن الاولى كثيراً بالاتساع . ويقع المطبخ في نهاية القاعة ، وكذلك ، بيت الخلاء ، وزاوية صغيرة يطلق عليها مجازا اسم غرفة المسحاح او «الدوش» . وكان من الممكن ان يكون « دوشاً » لو ان الجهاز قد وضع افقياً بلا ريب ، وكان المقيم في البيت راغباً في ان يقف بلا حراك تحت الرشاش .

وأدى ارتفاع السقوف الذي لا نظير له مع ضيق الغرف الى جعل الشقة تنسيقاً غريباً بالشكل المعين السداسي للسطوح ،والمغطى بالزجاج من كل ناحية ، بالابواب والنوافذ ، بحيث لا يبقى مجال في الجدار ، لوضع أي قطعة من قطع الاثاث ، ويبدو البشر من داخله يسبحون ، وكأنهم عفاريت من الزجاج ، داخل حوض عمودي . وكانت جميع النوافذ تطل على ساحة أو على نوافذ اخرى من نفس الطراز عبر الشارع ، يستطيع الانسان ان يرى وراءها ، نوافذ اخرى تطل على باحة ثانية من الجانب الآخر . وقال يوناس معرباً عن فرحه الزائد : « انها قاعة المرايا » وتقرر بناء على نصيحة رايتو ، تخصيص احدى الغرفتين الصغيرتين لنوم الفنان على ان تكون الأخرى للطفل المنتظر. أما الغرفه الكبيرة فتقوم بعمل المرسم ليوناس في النهار ، وغرفة الجلوس في الامسيات . وغرفة المائدة في اوقات الطعام . وكان في وسعها ان يتناولا وجباتها بسرعة في المطبخ ، شريطة ان يظل احدهما واقفاً ، اما راتيو ، فقد اشغـــل نفسه في ابتكارات عبقرية . وتمكن بواسطة الابواب المنزلقة ، والرفوف المتحركة ، والمناضد التي تفتح وتطوى ان يؤمن لهما الاستغناء عن

وفرة الاثاث ، وان يظهر تلك الشقة الغريبة ، بمظهر لعبة الاطفال .

ولكن عندما امتلأت الغرف بالصور والاطفال تحتم عليهما ان يقوما بترتيب جديد . وكان يوناس قبل ولادة الطفل الثالث يشتغل في الغرفة الكبيرة ، بينما كانت لويز تطرز في غرفة نومها ، والطفلان ، يحتلان الغرفة الاخيرة ويثيران فيها الكثير من الجلبة والضوضاء ويكبوان ويتعثران كيفما يشاءان في بقية اجزاء الشقة . واتفقا على ان يضعا الطفل الجديد في زاوية من زوايا المرسم ، بعد ان احاطها يوناس بلوحاته فغدت وكأنها ستار يفصل تلك الزاوية عن بقية اجزاء الغرفة . وكان لهذا الترتيب ميزة وضع الطفل على مسمع من احدهما ، لتلبية ندائه فوراً . ولم يكن يوناس في حاجة الى ازعاج نفسه ، لأن لويز كانت تحتكر الطفل . ولم تكن تنتظر بكاء الطفل حتى تلج باب المرسم ، بل كانت تدخله دائماً بكل حذر وعناية ، وعلى رؤوس اصابعها دائماً . وقد تأثر يوناس مرة من هذا الذوق المرهف ، واكد للويز ذات يوم ، انه ليس حساساً الى ذلك الحد ، وان بوسعه مواصلة العمل . رغم صوت خطاها . وردت لويز ، بانها تستهدف بهذا الحرص ، شيئاً آخر ، وهو عدم ازعاج الصبي او ايقاظه من النوم . وامتلأ فؤاد يوناس اعجاباً ، باعجاز حب الأمومة ، وقهقه بجماع فؤاده من سوء فهمه . وكنتيجة لذلك ، لم يستطع الاعتراف بأن دخول لويز الحريص كان يزعجه كل الازعاج ، بل واكثر من ازعاج أية اغارة عنيفة من الخارج . ويرجع ذلك الى سببين اولهما ان دخول لويز كان يستغرق وقتاً طويلاً ، وثانيهما لانه كان يشبه التمثيل الايمائي ، اذ ان لويز تدخل وقد مدت ذراعيها ، ودفعت بكتفيها الى الوراء ورفعت ساقها عالية ، بحيث يصعب عليه عدم ملاحظتها . وكانت هذه الطريقة كثيراً ما تؤدي الى عكس ما تقصده ، لأنها في مشيتها ، طالما عثرت بلوحة من اللوحات التي اكتظ بها المرسم . وكان الصوت الناتج عن

الاصطدام في هذه الحالة بوقظ الطفل ، فيعرب عن عدم رضاه بالطريقة التي يراها ، وبقدرته على البكاء ، وهي قدرة كبيرة . وكان الوالد يفرح بقوة طفله الرئوية ، فيسرع ليهدهده وتأتي زوجته بعد ذلك ، فتتولى المهمة عنه . ويلتقط يوناس آنذاك لوحته وفرشاته بيده وهو يصغي منتشياً الى صوت ولده المسيطر والمستمر .

وكان هذا الذي ادى الى نجاح يوناس باكتسابه في نفس الوقت عدداً من الاصدقاء . وكان هؤلاء يتصلون بهم هاتفياً أو يأتون لزيارتهم اعتباطاً ، ودون سابق ترتيب او موعد . وكان جهاز الهاتف ، قد وضع بعد مشاورات طويلة في المرسم ، وكان رنينه المستمر يزعج نوم الطفل الرضيع ، الذي ينطلق عويله مع رنين الهاتف . واذا حدث وكانت لويز مشغولة مع الطفلين الاخرين ، فقد كانت تجاهد لتصل الى الهاتف معهما ، فتجد غالباً يوناس ، وقد امسك بالرضيع في احدى يديه وبفراشي الرسم في اليد الأخرى ، ومعها جهاز الهاتف ، الذي ينقل اليه دعوة صديقه الى الغداء . وكثيراً ما دهش يوناس من رؤيته أحد الناس راغباً في تناول الغداء معه ، ذلك لأن حديثه كان بليداً جامداً ، وكان يفضل انَ يخرج في المساء ، لئلا يقطع عمل يومه . لكن هذا الصديق ، كان في معظم الوقت ولسوء الحظ ، لا يجد متسعاً من الوقت لدعوته لغير الغداء ، وهذا الغداء بالذات ، ولذا فهو يصر على اقامته ليوناس العزيز . ويقبل يوناس العزيز الدعوة . بقوله المأثور « كما ترى » . وبعد ان يضع السماعة ، يقول وهو يسلم الطفل الى لويز : « الا ترين انه يذكر اصدقاءه » . ويعود الى العمل ، لينقطع بعد قليل ، لتناول الغداء أو العشاء . وعليه ان يرفع اللوحات من الطريق ، وان يفتح المنضدة الخاصة المعدة لذلك ، وان يجلس مع اطفاله ويواصل يوناس اثناء الطعام التطلع الى الصورة التي كان يرسمها ، وكثيراً ، ما وجد

اولاده ، ولا سيما في البداية ، بطيئين في مضغ الطعام وابتلاعه ، مما يطيل أمد كل وجبة اطالة كبـــيرة . ولكنه قرأ في صحيفته المفضلة ، ان من الضروري ان يأكل الانسان ببطء ، حتى يتمكن من الهضم ، ولهذا فان كل وجبة كانت تخلق لديه من الاسباب ، ما يحمله على الفرح والسرور .

وكثيراً ما جاء اصدقاؤه الجدد في ظروف اخرى لزيارته . اما راتيو ، فلم يزره قط الا بعد العشاء ، فهو يقضي ساعات نهاره في مكتبه ، كما يدرك ان الرسامين يعملون في ساعات النهار . لكن اصدقاء يوناس الجدد ، يمتون جميعاً الى فئة من الفنانين ، والنقـّاد . فبعضهم قد رسم ، والبعض الآخر في طريقه الى الرسم ، اما البقية ، فيهتمون بما رسم أو يرسم . وجميعهم ، بالتأكيد ، يضعون متاعب الفن ، في منزلة محترمة سامية ، ويتذمرون من ان نظام العالم المعاصر ، يضع العراقيل في طريق اعمال اهل الفن ، وفي تمرين الخيال ، وهو أمر لا غنى عنه لكل فنان . وكانوا يقضون جميع اوقات ما بعد الظهيرة ، عنده وهم يتذمرون ، ولكنهم يرجون اليه مواصلة العمل ، وكأنهم ليسوا موجودين ، وان يعاملهم بفروسية ونبل ، اذ انهم ليسوا من السفسطائيين ، ويدركون ما لوقت الفنان من قيمة وأهمية . وكان يوناس يسر من صداقة اناس كهؤلاء قادرين على السماح له بمتابعة عمله في حضورهم ، فيعود الى الصورة التي يرسمها ، غير متوقف عن الرد على الاسئلة التي توجه اليه او الضحك ، عندما ترد على مسامعه طرفة أو نكتة .

وكانت هذه البساطة ، تجعل اصدقاءه ، يشعرون بالراحة ، وينسون واجبات الزيارة ، وكانت معنوياتهم العالية من العراقة والاصالة ، بحيث ينسون ساعات الطعــام ، لكن ذاكرة الاطفال اقوى من ذاكرتهم ، فيقتحمون الغرفة ويختلطون بالضيوف فيصرخون ويولولون ، ويداعبهم الزوار ، وينتقلون من حضن الى حضن . واخيراً يخفت الضوء ، في مربع

السماء الذي يخططه المنظر من النافذة ، ويضع يوناس فراشيه . ولم يكن هناك مناص من دعوتهم الى مشاطرته الطعام ، ليواصلوا الحديث الى ساعة متأخرة من الليل عن الفن بالطبع ، وبصورة خاصة عن الفنانين غير الموهوبين ، والمنتحلين ، والادعياء ، الذين لا يوجدون هناك حتماً . ويحب يوناس اليقظة مبكراً ليفيد من اولى ساعات النهار . وكان يدرك بالطبع مشقة هذا ، وان طعام الفطور لن يكون جاهزاً في الساعات المعينة ، وانه سيتعب نفسه . ولكنه من الناحية الاخرى ، ابتهج بأن يعرف ذات مساء ، كثيراً من الأمور التي برهنت على عونها له ، ولو بصورة غير مرئية في فنه . وكثيراً ما قال : « في الفن ، كما في الطبيعة ، لا يضيع عبثاً أي شيء . وهذا بالطبع ثمرة كوكب السعد » .

وكان ينضم الى الاصدقاء احياناً عدد من الحواريين ، فقد اصبح ليوناس الآن طلابه وتلامذته . وقد دهش في بادىء الأمر من ان يتعلم على يديه أي انسان ، وهو نفسه ما زال في مرحلة الاستكشاف . فشخصية الفنان عنده ، ما زالت تتلمس طريقها في الظلام ، فكيف بوسعه ان يرشد الآخرين الى الطريق السوي؟!ولكنه سرعان ما ادرك ، ان ليس من الضروري ان يكون الحواري انساناً تواقاً الى تعلم أي شيء . اذ على العكس ، وفي احايين كثيرة ، يصبح الانسان حوارياً او تلميذاً ، بدافع الرغبة الخالصة في تعليم استاذه . وهكذا اصبح بوسعه ان يتقبل باذعان مثل هذه التخمة من التكريم . وشرح له حواريوه مطولاً ، ماذا رسم ، ولماذا رسمه . واكتشف يوناس ، في رسومه ، كثيراً من النوايا التي ادهشته ، ومجموعات عديدة من الاشياء التي لم يضعها فيها . وكان يخيل اليه انه انسان فقير ، ولكن الفضل لتلامذته ، فقد وجد نفسه بصورة مفاجئة عنيفاً ، وكثيراً ما رأى هذه الثروة المفاجئة فأحس بوخز من الكبرياء ، فيقول لنفسه : « ومع ذلك ، فما

يقولونه صحيح . فذلك الوجه في مؤخرة الصورة ، بارز ، ولا استطيع ان افهم ما يعنونه « بالتهذيب غير المباشر » . ولكنني كما يبدو قطعت شوطاً بعيداً في هذه الناحية ولكنه سرعان ما ينقل هذه المهارة الفنية ، التي لا يربحها الا كوكب سعده فيقول « انه كوكب السعد ، جال في تلك الافاق ؛ أما انا فأقيم في البيت مع لويز والاطفال » .

وكانت للحواريين ايضاً فائدة اخرى ، فقد ارغموا يوناس على ان يكون اكثر قسوة مع نفسه ، فقد وضعوه في احاديثهم في منزلة عالية ولا سيما بالنسبة الى حاسته الواعية وحيويته ، ولذا ، أصبح أي ضعف منذ مجيئهم حراماً عليه . وهكذا تخلى عن عادته القديمة في قضم قطعة من السكر او الشوكولاته ، عندما ينتهي من رسم جزء صعب في الصورة ، وقبل العودة الى العمل ولو كان وحيداً لكان استسلم بصورة خفية لهذا الضعف لولا وجود حوارييه واصدقائه الدائم الذي ساعد على هذا الاصلاح الروحي الذي يمر فيه ، اذ كان يشعر أمامهم بالخجل من قضم قطعة من الشوكولاته ، لا سيما ولم يكن من اللائق ان يقطع عليهم احاديثهم الممتعة بسبب مثل هذا المزاج الذاتي التافة .

وكان حواريوه ، يصرون من الناحية الاخرى على وجوب بقائه اميناً لجماليته . أما يوناس فقد كان يعمل طويلاً ليحصل بصورة عرضية على لمحة خاطفة من الحقيقة تتراءى له في ضوء جديد ، وكانت فكرته غامضة كل الغموض عن جماليته . لكن لحوارييه ، من الناحية الاخرى ، افكاراً متعددة قد تتشابه وقد تتعارض ، وهم ليسوا في وضع يمكنهم من السماح بأية سخرية حول الموضوع . وود يوناس في بعض الاحيان لو اتيح له ان يعود الى نزوات خياله ، وهي الصديقة المتواضعة لكل فنان ، لكن ما يلوح على وجوه تلامذته من العبوس ، عندما يرون بعض الرسوم وقد خرجت على الاراء التي يحملونها ، كانت ترغمه على توسيع تفكيره في فنه . وكان هذا في

مصلحته بالطبع .

وساعد الحواريون يوناس اخيراً ، في ناحية اخرى ، بارغامه على ابداء رأيه في نتاجهم . فلا يمضي يوم واحد ، دون ان يأتي احدهم بصورة خططها ، ويضعها بين يوناس واللوحة التي يرسمها ، ليستفيد من الضوء . وهو ينتظر بالطبع رأي استاذه . وكان يوناس ، حتى تلك اللحظة دائم الخجل بصورة خفية من عجزه الجوهري عن الحكم على عمل فني . وباستثناء قلة من الصور ، كانت تخرجه عن حدود صبره واحتماله ، بسبب ما فيها من عيوب واضحة فجة ، بدت له جميع الصور الاخرى متساوية في الجمال والتأثير . وقد اضطر في النتيجة ، الى بناء ذخيرة من الاحكام ، كانت تختلف لان تلامذته كغيرهم من فناني العاصمة ، كانت لهم مقاييسهم من الموهبة ، وعندما يجتمعون حوله ، يضطر الى وضع خطوط رائعة من التمييز ليرضيهم جميعاً . وارغمه هذا الواجب السعيد ، على ان يحشد مجموعة من الالفاظ والآراء التي تتعلق بالفن . لكن دماثته الطبيعية لم تكن لتتأثر بهذا المجهود وسرعان ما ادرك ان تلامذته لا يطلبون منه انتقاداته ، التي قد لا يستفيدون منها . وانما يسألونه التشجيع والمديح ان امكن . وتحتم عليه بالطبع ان يستخدم جملاً مختلفة للمديح . ولم يكن يوناس راضياً بأن يعود الى نفسه المقبولة الاخرى . وقد اظهر عبقرية في اتخاذ هذا الموقف .

وهكذا مرت الايام ، ويوناس يرسم صوره بين اصدقائه وطلابه . وقد اقتعدوا مقاعدهم ، في حلقات دائرية حول الحامل الذي يرسم عليه . وكثيراً ما بدا الجيران في النوافذ عبر الشارع ، ليزيدوا في عـدد جمهوره . أما يوناس ، فهو يتحدث ويناقش ويتبادل الاراء ، ويفحص الرسوم التي تعرض عليه ، ويبتسم للويز عندما تمر ، ويداعب الاطفال ويرد بحماس على المكالمات

الهاتفية دون ان يتخلى عن الفرشاة في يده التي يعود بها بين الآونة والاخرى الى رسم لم يتم بعد . وهكذا مضت حياته ، مكتظة للغاية ، دون ان يضيع ساعة واحدة منها ، وكان يشكر القدر الذي اتاح له ما يزيل عنه الضجر والملل . وكان اكمال احدى الصور يتطلب منه بعض الوقت ، وكثيراً ما دار بخلده ان للفجر منفعته ، وهو ان تجنبه يكون بالعمل الجاد الشاق . وبدأ انتاج يوناس يبطىء كثيراً بنسبة زيادة اهتمامه باحاديث اصدقائه وأخذ يشعر في اللحظات النادرة التي يكون فيها وحيداً ، بالاجهاد والعجز عن العمل . فيلجأ في هذه اللحظات الى تخيل نظام جديد يوفق بين مباهج الصداقة وفضائل الفجر .

وطرق هذا الموضوع مع لويز التي بـــدأت تقلق بصورة مستقلة على الطفلين الكبيرين ، وضيق الغرفة المخصصة لهما . واقترحت نقلهما الى الغرفة الكبيرة ، على ان يوضع سريرهما وراء ستارة ، وينقل الطفل الرضيع الى الغرفة الصغيرة حيث لا يزعجه رنين الهاتف . ومضت تقول ان في وسعه ان يحيل هذه الغرفة الى مرسم له ، لان الرضيع لا يحتل الا جزءاً صغيرا منها، بينما تظل الغرفة الكبيرة مكاناً للاجتماعات اليومية . وفي مكنة يوناس ان ينتقل بين الغرفتين جيئة وذهاباً ليرسم هنا او يتحدث هناك ، ما دام على ثقة من ان اصدقاءه يقدرون حاجته الى الوحدة ، يضاف الى هذا ان ضرورة نوم الطفلين باكراً ، تحتم على الاصدقاء اختصار زيارتهم في الامسيات ،وفكر يوناس قليلاً في اقتراحها ، ثم قال : « رائع » . ومضت لويز تقول : « يضاف الى هذا ان اصدقاءك اذا ذهبوا مبكرين ، فسيتوفر لنا الوقت لنرى بعضنا » .
ونظر اليها يوناس ، فرأى في وجهها تعبيراً عن الحزن الصامت ، فتأثر ، ووضع يديه حول صدرها ، وقبلها ، كأعذب ما تكون القبل . واستسلمت له ، وأحسا لحظة واحدة بالسعادة التي كانا يشعران بها ، في بدء حياتهما

الزوجية . وسرعان ما تخلصت من بين ذراعيه ، وقد تكون الغرفة الجديدة صغيرة بالنسبة ليوناس .وجاءت لويز بمسطرة . وشرعت في قياساتها فوجدت انه بالنظر الى اكتظاظ المكان بلوحاته واصدقائه وطلابه الكثيرين ، فان المساحة التي يشتغل فيها ،ليست اوسع من المساحة الجديدة التي تعرضها عليه. وسارع يوناس الى نقل الاثاث تطبيقاً للترتيب الجديد .

ومن حسن حظه ان سمعته كانت تتضخم ، كلما قل انتاجه ، وكان الناس ينتظرون كل معرض من معارضه بفارغ الصبر ، وتكتب عنه مقالات الاجلال والتعظيم قبل افتتاحه . وكان عدد قليل من النقاد ، اذا اردنا التأكيد ، بينهم اثنان من الذين يزورون مرسمه بانتظام ، يخففون من حرارة عرضهم ، ببعض التحفظات . لكن ثورة تلاميذه كانت تشتد على هذه النازلة البسيطة . وكان هؤلاء ، يؤكدون بكل حزم طبعاً ، انهم يضعون الرسوم التي رسمها في الفترة الاولى فوق كل اعتبار ، لكن التجارب الراهنة توحي بثورة حقيقية وينحي يوناس على نفسه بالملامة ، لما يشعر به من انزعاج طفيف ، في كل مرة يمجدون فيها اثاره الاولى ، ويوجه اليهم شكره الدافق الجم . ويتأفف راتيو ، قائلاً « يا لغرابتهم ... انهم يريدونك جامداً كتمثال . ثم ينكرون عليك حق الحياة كانسان » . ولكن يوناس يدافع عن حوارييه قائلاً : « ليس في وسعك ان تفهم ، لانك تحب كل ما اعمل . » ويضحك راتيو قائلاً : « طبعاً ، انني لا احب صورك ، بل رسمك » .

ومع ذلك فقد ظلت الصور تلقى النجاح تلو النجاح ، واقترح التاجر ، بعد أحد المعارض الذي استقبل بحماس منقطع النظير ، ان يرفع المرتب الشهري . فقبل يوناس معرباً عن امتنانه ، وعلق التاجر على ذلك بقوله : « ان من يسمع حديثك الآن ، يتصور ان المال يعني لك شيئاً » . وسلبت هـــذه الطيبة في قلب التاجر من الرسام كل سلاح ، ومع ذلك فعندما

طلب الرسام من التاجر ، الاذن بتقديم احدى لوحاته الى سوق خيري ، اراد التاجر ان يعرف ما اذا كان هذا الاحسان مقابل الثمن . ولم يكن في وسع يوناس ان يرد على هذا الاستفهام ، فاقترح التاجر تبعاً لذلك ، التمسك بنصوص الاتفاق الذي يمنحه وحده حق بيع لوحاته ، وقال : « ان الاتفاق ، اتفاق ، وهو لا ينص على الاحسان » ، فاذعن الرسام قائلاً جملته المعهودة : « كما ترى » .

وأدى الترتيب الجديد الى قيام قناعة دائمة لدى يوناس . واصبح في امكانه الآن ، ان يرد بنفسه على الرسائل الكثيرة التي تصله ، والتي تحتم عليه كياسته ان يرد عليها . وكان بعض هذه الرسائل يتناول فن يوناس ، بينما يتناول البعض الآخر ، وهو الاكثر عدداً رسائل من اشخاص ينشدون التشجيع في عملهم الفني ، أو يحتاجون الى المشورة أو العون المالي . وكلما كثر ظهور اسم يوناس في الصحف ، كلما نشده الناس ، كما ينشدون غيره من المشهورين ، ليؤدي دوراً عملياً ، في ازالة المظالم المثيرة . وكان يوناس يرد على هـــذه الرسائل ، فيكتب عن الفن ، ويشكر الناس ، ويقدم المشورة ، ويستعيض عن شراء ربطة عنق ، بارسال عون مالي ضئيل ، ويوقع اخيراً الاحتجاجات العادلة التي كانت تصله ، طالبة توقيعه . وكثيراً ما قال له راتيو ، دعك من هذه الاحتجاجات التي تقحمك في السياسة ، واتركهـــا للادباء والعجائز من العوانس . لكن يوناس يصر على توقيع الاحتجاجات التي تحمل أي طابع حزين معين . وكانت معظم هـــذه الاحتجاجات والبيانات تنشد الاستقلال الجميل الصورة . وفي نهاية كل اسبوع ، كان يوناس ، يمضي وقد امتلأت جيوبه بالرسائل ، التي اهمل بعضها من الاسابيع السابقة ، فجاءه ما يذكره بها . ويجلس الى مكتبه ، يرد على المستعجل منها ، ومعظمها من اناس مجهولين ، تاركاً لفرصة اخرى

اكثر ملاءمة ، الرد على الرسائل الباقية ، ومعظمها من اصدقائه . وتراكمت عليه المسؤوليات حتى انها حرمته من الهذر والثرثرة ، والاذعان لانطلاق الروح . وأحس دائماً بأنه متأخر عن هذه المسؤوليات ، وانه الملوم على هذا التأخر ، حتى ولو كان يعمل ، كما كان يفعل بين وقت وآخر .

وعبأت لويز جميع قواها لخدمة منزلها واطفالها واجهدت نفسها ، بالقيام بكل شيء ، حتى بالاعمال التي كان باستطاعته في ظروف اعتيادية ان يقوم بها بنفسه في بيته . واثار هذا الوضع الألم في نفسه . فهو على كل حال ، يعمل ما يلذه ويسره ، بينما كانت حصتها من الصفقة اسوأ الحصص . وكان يدرك هذه عندما تذهب الى السوق لشراء حاجياتها ، فيصرخ طفله الاكبر : « الهاتف ، الهاتف » . ويضع يوناس الصورة التي كان يعمل فيها ليركض الى الهاتف بعد ان تلقى دعوة لغداء او عشاء ولا يلبث ان يعود الى صورته ، حتى يسمع صوت الطفل الآخر ، وقد فتح الباب « رجل الغاز ، الذي يقرأ المقياس » ، فهتف لوالده ، « ها انا قادم » . وعندما يترك يوناس الباب أو الهاتف ، ليعود الى غرفته الصغيرة ، يلحق به أحد اصدقائه او تلامذته ، لاستئناف الحديث الذي انقطع . واصبحوا تدريجاً ، من الزائرين المنتظمين للقاعة ، حيث يقفون ، ويتحدثون ، ويسألون يوناس رأيه عن كثب ، او يتدفقون لفترة صغيرة على الغرفة الصغيرة . ويقول هؤلاء الذين يدخلون : « هنا على الاقل ، يمكن للانسان ان يراك بعض الوقت دون مقاطعة أو تدخل » . وكان هذا القول يعزف على اوتار فؤاده فيقول « معكم الحق ، فليست لدينا الفرصة ليرى الواحد منا الآخر » . وكان يدرك في الوقت نفسه ، ان الالم يحز في قلوب الذين لا يراهم ، وهذا ما احزنه : وكثيراً ما كانوا من الاصدقاء الذين يود ان يلقاهم ، لكن الوقت لا يتوفر لديه ، وليس باستطاعته ان يقبل كل شيء . وكنتيجة لذلك ، فقد لحق الأذى بسمعته ،

واصبحت تجد اناساً يقولون : « آه ، لقد صار متكبراً ، بعد ان نجح . فهو لا يرى اي انسان بعد الآن » ، او آخرين يهمسون « انه لا يحب احداً الا نفسه » . لا . انه يحب لويز، ويحب اطفاله ، ويحب راتيو، وعدداً قليلاً من اصدقائه، كما انه لا يضيق بالجميع، بل يألفهم . لكن الحياة قصيرة ، والزمن يسابقه ، ولطاقته حدودها . فمن الصعب عليه ان يرسم العالم والناس ، وان يعيش معهم في الوقت نفسه . وهو لا يستطيع أن يشكو او يشرح الأمور التي تقف في طريقه . اذ لو عمل ذلك ، لربت الناس على ظهره قائلين : « ايها السعيد الحظ . هذا هو ثمن الشهرة ! »

وبدأ بريده يتراكم امامه ، والحواريون لا يسمحون له بأي عزلة ، بينما بدأت شخصيات المجتمع تلتف من حوله . ومن الحق ان يقال ان يوناس كان يعجب بهم لاهتمامهم بالرسم ، بينما كان في وسعهم كغيرهم من الناس ، ان يهتموا فقط بالاسرة المالكة البريطانية او بآدب الطعام . وكان معظم هذه الشخصيات من نساء المجتمع ، اللائي ينم سلوكهن عن بساطة . فهن لا يبتعن من صور الفنان لانفسهن ، ويقدمن اصدقاءهن اليه ، يحفزهن الأمل الذي لا مبرر له بان يشتري هؤلاء الاصدقاء الرسوم نيابة عنهن . وكن ،من الناحيـــة الاخرى ، يساعدن لويز في تقديم الشاي الى الزائرين . وكانت اقداح الشاي ، تنتقل من يد الى يد ، عبر القاعة ، من المطبخ الى الغرفة الكبيرة ثم تعود ثانية لتجثم في المرسم الصغير ، حيث يجلس يوناس وسط لفيف من اصدقائه وزائريه يملأون عليه الغرفة، يمضي في تصويره حتى يضطر الى القاء فرشاته ليتناول مع الشكر القدح الذي صبته ، خصيصاً له ، سيدة رائعة جميلة .

ويحتسي يوناس شايه ، ويتطلع الى رسم وضعه احد تلامذته أمامه على الحاملة ، ويضحك مع اصدقائه ، ويقطع ضحكته ، ليطلب الى احدهم ،

ان يحمل رزمة الرسائل التي كتبها في الليل الى دائرة البريد ، ثم يلتقط طفله الثاني الذي تعثر على قدمه ، ثم يقف ليلتقط له احد المعجبين صورة فوتوغرافية ، واذا بصوت يتعالى من الغرفة الكبيرة : « الهاتف ، يا يوناس » ، فيحمل قدح الشاي في الهواء ملوحاً به ، ويشق طريقه عبر الحشد الضخم من اصدقائه الواقفين في القاعة ، معتذراً لهذا أو ذاك ، لانه قد صدمه ، ثم يعود ، ويحمل فرشاته ، فيملأ الفراغ في زاوية من الصورة التي يرسمها ، ثم يتوقف ليرد على سيدة جذابة ، معرباً عن سعادته بأن يرسم لها صورتها ، ثم يعود الى عمله ليستأنفه ، واذا بصوت يهتف : « توقيعك يا يوناس » ، فيسأل : (ماذا ارسالة مسجلة ؟ » فيرد الصوت قائلا : « لا ، ولكنها مشكلة المسجونين في كشمير » . ويهتف ، « ها انا قادم » ، ويركض الى الباب ليستقبل صديقاً شاباً من المحكوم عليهم ، ويستمع الى احتجاجه ، فيعرب عن قلقه ، بأن الموضوع قد يتناول السياسة ، ثم لا يلبث ان يوقع بعد ان يتلقى تأكيداً جازماً حول هذا الشأن مع التحذير بان هذه الواجبات لا يمكن فصلها عن الامتيازات التي نالها كفنان ، ويعود ثانية الى الظهور ، ليقابل ملاكماً نسي اسمه ، احرز انتصاراً رائعاً في الآونة الاخيرة ، او احد اعلام التمثيل في بلد اجنبي . ويقف الممثل امام الفنان خمس دقائق ، معرباً بالعواطف المتدفقة من عينيه ، عمّا يعجز التعبير عنه بلسانه نظراً لجهله للغة الفرنسية ، بينما يحني يوناس رأسه شاعراً باحساس يغمره من الاخوة . وينقذه لحسن حظه من هذا الموقف الجامد ، اقتحام الخطيب المفوّه ، ساحر المنابر للمكان ، طالباً التعرف الى الفنان العظيم . ويعرب يوناس عن سروره الذي يحس به حقيقة ، ثم يلمس رزمة الرسائل التي لم يرد عليها بعد ، والموجودة في جيبه ، ويتناول فرشاته ، ويستعد للعودة الى استئناف عمله ، ولكنه يدرك ضرورة التوجه بالشكر الى ذلك

الشخص الذي جاء قبل قليل بزوج جميل من « الكلاب » اودعه في غرفة الفنان فيجدها سيدة ويشكرها ، كما يقبل دعوتها الى الغداء ثم يسرع ثانية تلبية لنداء لويز ، ليرى بنفسه ، ولا يعلق بخاطره اية ذرة من الشك ، في ان هذين الكلبين لم يتعودا على حياة الشقق ، وانها قد نقلتهما الى غرفة « الدوش » حيث يمكنهما ان ينبحا كما يشاءان ، دون ان يسمعهما انسان . وكان يوناس يرى بين آونة واخرى ، فوق رؤوس الزائرين نظرة تنطق بالحزن في عيني لويز . واخيراً ينتهي النهار ، وينصرف الزائرون ، بينما يظل بعضهم في الغرفة الكبيرة ينظرون بحنان الى لويز وهي تحمل الطفلين الى فراشيهما ، تساعدها في ذلك سيدة انيقة ترتدي ثياباً فاخرة ، تتذمر من انها ستعود الى بيتها الفخم ، حيث تنتشر الحياة فوق طبقتين ، مفتقرة الى هذه الالفة التي تراها في بيت يوناس .

وجاء راتيو بعد ظهر يوم من ايام السبت حاملا معه مجففة ثياب رائعة يمكن تعليقها في سقف المطبخ . ووجد الشقة مكتظة ، ويوناس جالس في غرفته الصغيرة محاطاً بمحبي الفن ، يرسم السيدة التي أهدته الكلبين ، بينما يقوم فنان رسمي برسم صورته . وذكرت لويز ان هذا الرسام منتدب من الحكومة ليرسم صورة اسمها « الفنان يعمل» . وانسحب راتيو الى زاوية من الغرفة ليرقب صديقه وهو يبدو مستغرقاً في عمله . ومال عليه أحد محبي الفن ، وهو لا يعرفه ، وقال : « انه يبدو رائعاً ، أليس كذلك ؟ » . ولم يرد راتيو بينما استطرد الآخر يقول : « اعتقد انك ترسم ايضاً . انني ارسم حسناً . صدقني ،لقد بـــدأ في دور التأخر والانحطاط . » وتساءل راتيو : « ابمثل هذه السرعة ؟ » . فقال الفنان الغريب : نعم ، انها سبة النجاح . ليس في وسعك ان تقاوم النجاح . لقد انتهى . وهو اما ان يكون في طريق الهبوط ، أو انه انتهى . «فالفنان الذي يبدأ في الهبوط ، قد انتهى.

انظر . ليس فيه أي شيء ، يمكنه من ان يمضي في الرسم . يرسمونه الآن ، وسيعلقون صورته في المتحف » .

وحل منتصف الليل ، وكانت لويز تجلس في زاوية من السرير والى جانبها يجلس راتيو ، بينما وقف يوناس ، وقد خيم عليهم الصمت جميعاً .وكان الاطفال نائمين ، والكلاب تجول في الخارج ، وقد انهت لويز قبل قليل غسل الصحون والحاجيات بينما قام يوناس وراتيو بتجفيفها ، وشعروا جميعاً بالتعب والانهاك . وعندما رأى راتيو كومة الاطباق قال : « لماذا لا تأتون بخادمة » ؟ فردت لويز بصوت يشوبه الحزن ، « ولكن اين سنضعها ؟ » وسكتوا جميعاً ولم يحيروا جواباً . وفجأة قال راتيو متسائلا : « هل انت سعيد ؟ وابتسم يوناس ، ولكن التعب كان بادياً على محياه ثم قال : « نعم . فالكل يبدي لي منتهى اللطف » . وقال راتيو : « لا ، عليك ان تراقب . فهم ليسوا جميعاً بطيبين » . « ومن مثلاً ؟ » . « اصدقاؤك الرسامون مثلا ». وقال يوناس : « اعرف ذلك . ولكن كثيرين من الفنانين هم على هذه الشاكلة . انهم لا يثقون من وجودهم . حتى العظماء منهم ولذا فهم يبحثون عن الادلة ، فيصدرون الاحكام ويقضون . وهذا يمنحهم القوة . انه بداية الوجود . انهم يشعرون بالوحدة » . وهز راتيو رأسه معرباً عن شكه فقال يوناس : « صدق ما أقول . انني اعرفهم . وعليك ان تحبهم » . ورد راتيو قائلاً . « وماذا بصددك ؟ هل انت موجود ؟ لم اسمع منك يوماً شيئاً سيئاً عن أي منهم » . وشرع يوناس يضحك وقال : « كثيراً ما حملت عنهم فكرة سيئة ولكن سرعان ما أنسى . » واكتسب هيئة جدية ومضى يقول : « لا انا لست بواثق من وجودي ، ولكن سأصبح موجوداً في يوم مـا . وانا واثق من هذا » .

وسأل راتيو لويز رأيها في الموضوع ، فدفعت عن نفسها ما تشعر به من

تعب واجهاد وقالت انها تظن بان يوناس على حق ، وأن رأي زوارهما لا قيمة له ولا اهمية . وان المهم هو عمل يوناس . وهي شاعرة بان الطفل سيقف في طريقه ، فهو ينمو على كل حال . وعليهما ان يبتاعا له سريراً ، سيملأ فراغاً في الغرفة . وماذا بوسعهما ان يفعلا حتى يتم انتقالهما الى شقة اكبر ، وتطلع يوناس الى غرفة نومه ، بالطبع انها ليست المثل الاعلى ، فالسرير عريض وواسع ، ولكن الغرفة خالية طوال النهار . وعرض الفكرة على لويز ، التي أخذت تدرسها . وفي وسع يوناس ان يعمل في غرفة نومه دون ازعاج . اذ ان الضيوف على كل حال لن يجرأوا على الاستلقاء على فراشها ووجهت لويز بدورها سؤالها الى راتيو وقالت ... « وما رأيك بهذه الفكرة ؟ » فتطلع الى يوناس ، الذي كان يتجه بنظره عبر النافذة الى الطريق . ثم رفع عينيه الى السماء التي لا نجوم فيها ، ومضى فأسدل الستائر . وعندما عاد ابتسم الى راتيو وجلس الى جانبه على السرير دون ان يقول شيئاً. ويبدو ان لويز ، قد لحق بها الاعياء ، فأعلنت انها ماضية الى المسحاح لتتلقى رشاشاً من الماء . وعندما اصبح الصديقان وحدهما ، شعر يوناس بكتف راتيو يمس كتفه . وقال دون ان ينظر اليه : « انني احب الرسم . بل واحب ان ارسم طيلة حياتي ، ليلها ونهارها ، اليس هذا من حسن طالعي ؟ » ونظر اليه راتيو بحنان صادق وقال : « اجل ، انه من حسن الحظ » .

ومضى الاطفال في طريق النمو ، ويوناس سعيد بان يراهم اصحاء سعداء. وأخذوا يذهبون الى المدرسة ويعودون منها كل يوم في الساعة الرابعة . وكان في وسع يوناس ان يتمتع بصحبتهم بعد ظهر ايام السبت ، أو في ايام الخميس أو اياماً بكاملها اثناء عطلاتهم المتكررة والطويلة . ولم يكونوا قد وصلوا بعد السن الكافي ليجعلهم يصرفون اوقاتهم بهدوء ، ولذا فقد ظلوا

يملأون البيت بشجارهم وضحكهم . وكان عليه ان يهدىء من ثائرتهم ، وان يتوعدهم ، بل واحياناً يتظاهر بضربهم . وكانت هنـاك ايضاً مشكلة غسل ثيابهم ، وتثبيت ازرار ملابسهم . ولم يكن في وسع لويز ان تقوم بجميـع هذه الامور وحدها ولما كانوا عاجزين عن ايواء خـــادمة في البيت ، أو السماح لواحدة منهن بأن تهدم جو الالفة الذي يعيشان فيـــه ، فقد اقترح يوناس استدعاء شقيقة لويز ، روز ، التي توفي عنها زوجها ، تاركاً لهـا ابنة كبيرة . وردت لويز بقولها : « أجل ، فمع روز لسنا بحاجة الى اصطنـاع التكلف ، وفي وسعنا اخراجها عندما نريد » . وفرح يوناس بهذا الحـــل ، الذي يريح لويز كما يريح ضميره في الوقت نفسه الذي يشعر بالعذاب لما تعانيه زوجه من اجهاد . وكان العون اكثر اثراً لان روز كانت تأتي معها في الغالب بابنتها لمساعدتها . وكانتا معاً مثلاً للطيبة ، كالتبر الخالص ، وقـــد تميزت طبيعتهما النبيلة بالفضيلة وعدم الاثرة . وقد بذلا كل جهد ممكن لتقديم المساعدة ، ولم يضنا بوقتهما في سبيل هذه الغاية . وقد أعانهما في ذلك ، ما تشعران به في حياة وحدتهما من ضجر وملل . وما تحسان به من متعة ، في الظروف الهنيـــة التي تغلب على بيت لويز . وهكذا تحققت نبوءة لويز ، وعاشت قريبتاها معهما دون كلفة ، منذ البداية ، وأحستا وكأنهما في بيتهما. وغدت الغرفة الكبيرة مكاناً مشتركاً ، فهي غرفـة طعـــام ، وخزانة ملابس ، ومكان عناية بالاطفال . أما الغرفة الصغيرة ، التي ينام فيها الطفل الصغير ، فقد غدت مخزناً للصور ، وسريراً ، مطوياً تنام عليه روز احياناً ، عندما تأتي وحدها ، دون كريمتها .

واحتل يوناس غرفة نومه ، واخذ يعمل في الفراغ القائم بـيـن السرير والنافذة . وكان عليه ان ينتظر في الصباح ، حتى يتم اعداد الغرفة ، بعد الانتهاء من غرفة الاطفال . وبعد بدء هذا الترتيب الجديد مضى في عمله ،

دون ازعاج من احد ، الا عندما تأتي لويز او روز لتناول ملاءة سرير او منشفة من خزانة البيت الوحيدة الموجودة في تلك الغرفة . اما بالنسبة الى الزائرين ، فعلى الرغم من ان عددهم قد انخفض ، الا انهم اتخذوا لانفسهم عادات معينة ، وكان بعضهم ، خلافاً لما تتوقعه لويز ، لا يرعوي عن الاستلقاء على فراش الزوجية المزدوج ، ليشعر بالراحة وهو يتحدث الى يوناس . وكثيراً ما جاء الاطفال الى الغرفة لتحية ابيهم قائلين ... « دعنا نرى الصورة » ويعرض يوناس عليهم الصورة التي يرسمها ، ويقبلهم بحب وحنان . وعندما كانوا يفارقونه ، كان يحس بأنهم يملأون عليه شغاف قلبه ، دون أي تحفظ . وانه لو فقدهم ، لاصبحت حياته وحدة وخواء . وكان يحبهم كما يحب رسومه لانهم كانوا الاشياء الحية الوحيدة في العالم الى جانب رسومه .

وأخذ انتاج يوناس يقل كمّاً ، وهو لا يدري سبباً لذلك . وعلى الرغم من مثابرته ، فقد اضحى يشعر بصعوبة الرسم ، حتى في اللحظات التي يكون فيها وحيداً ، واصبح يفضل قضاء هذه اللحظات ، متطلعاً الى السماء . ولقد كان طيلة حياته ، تائه الذهن ، يضيع بسهولة في افكاره ، اما الآن فقد اضحى من الحالمين ، وبدأ يفكر بالرسم كمهنة يمتهنها ، بدلاً من التفكير به كفن . وعلى الرغم من انه واصل مناجاة نفسه بقوله « انني احب الرسم » الا ان يده التي تحمل الفرشاة ، كانت تظل معلقة الى جانبه ، عندما يصغي الى صوت مذياع بعيد .

وبدأت سمعته في الوقت نفسه ، تسير في طريق الهبوط ، وشرع يقرأ في الصحف التي يأتون بها اليه ، مقالات ملأى بالتحفظات ، او اخرى تحمل طابعاً غير ودي بصراحة ، أو ثالثة ملأى بالهجوم القذر ، مما يثير في نفسه الألم العميق . وكان يقول لنفسه ، ان هذه الحملات قد تؤدي الى الخير ، إذ

ترغمه على تحسين انتاجه ، وأخذ الذين واصلوا زيارته من اصدقائه ومن الفنانين ، يعاملونه معاملة لا تكلّف فيها ، كما يعاملون أي صديق قديم ، لا يتحتم عليهم التكلف في حضوره . وعندما كان يعرب عن رغبته في العودة الى العمل ، كانوا يقولون له ... « أوه ، لا يزال أمامك وقت طويل » ، وادرك يوناس انهم الى حد ما ، أخذوا يضمونه الى زمرتهم من الفاشلين . ولكن في هذا التضامن الجديد ، بعض النفع والعزاء . وكثيراً ما هز راتيو كتفيه ، قائلا له : « انك لمجنون . انهم لا يهتمون بك مطلقاً». فيرد يوناس بقوله : « لا انهم يضمرون لي بعض الحب الآن ، وهذا القدر من الحب شيء رائع ، وليس من المهم البحث في طريقة الحصول عليه » . ومضى في حياته الرتيبة من الحديث وكتابة الرسائل ورسم الصور ، بأحسن ما يستطيع . وكان بين آونة واخرى يجيد الرسم حقيقة ، ولا سيما بعد ظهر ايام الآحاد ، عندما يخرج الاطفال مع لويز وروز . وفي المساء كان يعرب عن فرحه . لما استطاع انجازه من عمل في الصورة التي يرسمها . وكان في هذا الوقت قد شغف برسم السماوات .

وعندما حل اليوم الذي فاجأه فيه التاجر باضطراره آسفاً الى تخفيض الراتب نظراً للهبوط الذي طرأ على بيع لوحاته ، وافق يوناس على ذلك دون نقاش ، لكن لويز شعرت بالقلق الشديد . فقد حل شهر ايلول ، واصبح الاطفال بحاجة الى الملابس الجديدة للذهاب الى المدرسة . واقبلت على العمل بنفسها بشجاعتها المعهودة ، وسرعان ما استهلك جميع أوقاتها ، بينما مضت روز في اصلاح الملابس القديمة ، ووضع الازرار ، وخياطة العرى ، فصرفها عن القيام بحاجات المنزل الاخرى ، التي عهد بها الى ابنة عم زوجها التي اصبحت تؤم المنزل لمساعدة لويز في الخياطة ، وكثيراً ما جلست على مقعد في زاوية غرفة يوناس ساعات وساعات ، وهي صامتة .

وعندما رأت لويز هدوءهـــا ، اقترحت على يوناس ان يرسم صورة « الخياطة » . واعجبته الفكرة ، وحاول البدء بها ، واتلف لوحتين ، ثم عاد الى صورة سماء يرسمها ولم يكملها بعد . وفي اليوم التالي ، أخذ يوناس يذرع الشقة جيئة وذهاباً بعض الوقت وهو يتخيّل بدلاً من ان يرسم . وجاءه أحد حوارييه ، ثائراً ، يحمل مقالاً طويلا لم يكن قد اطلع عليه بعـــد ، يقول كاتبه آن رسومه يفرط في تقديرها ، مع انها في الحقيقة اضحت قديمة الاسلوب . وهتف له التاجر ليقول له من جديد انه يشعر بالقلق من هبوط البيع للوحاته . ومع ذلك ، فقد واصل العيش في احلامه وخيالاته . وقال للحواري ، ان هناك بعض الصدق في المقال ، ولكنه ، أي يوناس ، يستطيع المضي في العمل عدة سنوات اخرى . ورد على التاجر بأنه يفهم قلقه دون ان يشاطره اياه . فهو مقدم على عمل عظيم وجديد ، من الطراز الخلاق ، وسيبدأ كل شيء من جديد . وعندما كان ينطق بهذه الاقوال ، أحس بأنه يقول الحقيقة ، وان كوكب سعده يطل عليه . ان كل ما يحتاج اليه هو نظام طيب .

وحاول في غضون الايام التالية ان يعمل في الصالة ، وانتقل بعد يومين الى غرفة الحمام مستخدماً الضوء الكهربائي ، ثم الى المطبخ في اليوم التالي . وأخذ يشعر بالبرم لأول مرة من هؤلاء الناس الذين يدفع بهم الى كل مكان وهم اولئك الاشخاص الذين لا يعرفهم حق معرفة ، وافراد عائلته الذين يحبهم . وتوقف عن العمل فترة ما وأخذ يفكر . كان في وسعه ان يرسم مناظر الطبيعة في الخارج ، لو كان الطقس مناسباً ولسوء الحظ ، كان الشتاء قد بدأ ، وكان من الصعب ان يرسم صور الريف أو الطبيعة قبـــل حلول الربيع . وقام بالمحاولة ولكنه تراجع عنها ، فقد اخترق البرد الشديد لباب جسده . وعاش بضعة ايام مع لوحاته ، جالساً الى جانبهـــا ، أمام

النافذة دون ان يرسم شيئاً . وبدأ يتعود على الخروج من منزله في كل صباح . فيضع على عاتقه مهمة رسم الخطوط التفصيلية الاولى لشجرة أو بيت ما ، او قطاع جانبي . ويحل المساء ، ولا يكون قد قام بأي عمل فأقل اغراء ، كالصحف ، او مقابلة المعارف او التطلع الى واجهات العرض في الحوانيت ، او الدفء في احد المقاهي ، كان يضله عن غايته . ويجلس في كل مساء يختلق الاعذار المناسبة الى ضميره السيء الذي لم يفارقه لحظة واحدة . انه سيرسم ، وهذا أمر مؤكد ، وسيكون رسمه هذه المرة ، أحسن من الماضي بعد هذه الفترة من اتلاف الوقت الواضح . ان هذه العواطف والافكار تتفاعل في نفسه ، وسيبزغ كوكب سعده ، جديداً ومشرقاً من وراء هذه السحب السوداء . وفي غضون ذلك لم يكن يفارق المقاهي ، وقد اكتشف ان الخمر تمنحه من شعور العظمة والتعالي ، مثل ما كان يمنحه اياه يوم من العمل المنتج في ذلك الوقت ، عندما كان يفكر برسومه ، بنفس الحب والحرارة التي يحس بها نحو اطفاله . وعندما يصل الى الكأس الثاني من الكونياك ، كان يسترد ذلك الاحساس البارز الذي يجعل منه ، في نفس الوقت ، سيداً وخادماً لجميع العالم . والفرق الوحيد ، انه يلتذ بهذا الشعور وهو في فراغ ، ويداه عاطلتان ، وليس في وسعه ان ينقله الى شيء يعمله . ومع ذلك ، فقد كان هذا الشعور قريباً من الفرح الذي عاش من اجله ، وأخذ يقضي الآن ساعات جالساً يحلم في اماكن صاخبة تعج بالدخان .

وأخذ يهرب من الأماكن والقطاعات التي يؤمها الفنانون . وعندما يلتقي باحد معارفه فيحدثه عن فنه ، كان يوناس يحس بالفزع . انه يريد ان يفر ، وهذا واضح ، ثم يهرب فعلاً . وعرف ما يدور حوله من اقوال ، وما يتهامسون به خلفه من انه يظن نفسه « ريرمبراندت » ، فيزداد انزعاجه

واضطرابه . على أي حال ، توقف يوناس عن الابتسام ، وأخذ اصدقاؤه السابقون يستخلصون نتائج غريبة ، ولا مناص منها ، من هـــذه الظاهرة قائلين : اذا كان قد عدل عن الابتسام ، فلانه راض بنفسه قانـع بها . » وغدا تبعاً لذلك ، ميالاً الى تجنب الناس والنفرة منهم . ويكفيه اذا دخل احد المقـــاهي ان يحس بأن احد الموجودين فيه قد عرفه ، حتى تتسلط عليه سحابة من الأسى . ويتوقف ثانية واحدة ،عاجزاً، يملؤه حزن غريب، وقد أخفى وجهه الغامض قلقه وحاجته الفجائية الواضحة الى الصداقـة . ويتذكر نظرة راتيو المشجعة ، فيسارع الى الخروج . وسمع ذات يوم شخصاً يقف على مقربة منه يقول عندمـــا اراد الخروج : « انظروا الى إطلالة هذا الرجل . »

وبدأ يؤم النواحي البعيدة المعزولة التي لا يعرفه فيها انسان . وفي هذه الاماكن كان في وسعه أن يتحدث ويبتسم ، وان يرد الناس على لطفه ، لأن أياً منهم لا يتوقع منه شيئاً . واتخذ لنفسه عدداً من الأصدقاء الجدد الذين لم يكن من الصعب عليه ارضاؤهم . وكان يلتذّ برفقة شخص معين ، كان يخدمه في احد مشارب المحطات التي اعتاد عـلى ارتيادها . وكان ذلك الشخص يسأله عن مهنته في الحياة فيرد يوناس بانه رسام . ويسأل الشخص : « هل انت رسّام صور او داهن بيوت » ؟ ، فيرد بأنه يرسم الصور ، ويعلق الشخص على ذلك بقوله ان هذه المهنة ليست بالأمر السهل . ولم يطرقا هذا الموضوع بعد تلك المرة . حقاً ان هذه المهنة ليست بالأمر السهل ، ولكن يوناس سيدبر أمره تمام التدبير فيها عندما يجد الطريقة اللازمة لتنظيم عمله .

ومضت الايام واحداً اثر اخر ، وتوالت الكؤوس ، وكثرت المقابـلات مع النساء ، فشعر بشيء من العون والمساعدة . ففي وسعه أن يتحدث الى هؤلاء النسوة ، قبل عملية الحب او بعدها ، وان يزهو بنفسه امامهن ، فهنّ

يفهمنه ، حتى ولو لم يقتنعن باقواله . وخيل اليه مرات عدة انه قد استرجع قواه القديمة . وفي ذات يوم ، شجعته احدى معارفه ، فحزم أمره ، وعاد الى بيته ، وحاول ان يعمل ثانية في غرفة نومه ، اذ كانت الخياطة غير موجودة ذلك النهار . ولكن بعد ساعة من المحاولات الفاشلة وضع لوحته بعيداً ، وابتسم للويز دون ان يراها ، وخرج من البيت . وقضى طيلة اليوم يحتسي الخمر ، كما قضى ليلته مع صديقته دون ان يكون في وضع يجعله راغباً فيها . وطالعته في الصباح صورة الألم ، ممثلاً في وجه معذب ، عندما رأى لويز . لقد ارادت ان تعرف ما اذا كان قد عاشر تلك المرأة جنسياً تلك الليلة . فاعترف يوناس انه ، نتيجة لكثرة ما احتسى من خمر ، لم يستطع ان يفعل شيئاً ، ولكنه استطاع ، في مرات سابقة مع غيرها . وتمزق فؤاده لأول مرة ، فقد رأى في لويز فجأة صورة المرأة الغريقة ، التي تنبعث من الدهشة والألم المفرط . وبزغ في فكره رأي ، انه لم يفكر بلويز طيلة هذه المدة ، وأحس بالخجل من نفسه . وسألها ان تغفر له ، فقد انتهى كل شيء ، وسيبدأ في الغد من جديد ، كما كان في الماضي . ولم تستطع لويز ان تقول شيئاً بل ادارت وجهها وقد اغرورقت عيناها بالدموع .

وخرج يوناس في اليوم التالي، مبكراً للغاية من بيته . كانت السماء تمطر، وعندما عاد ، وقد ابتل كل ما عليه ، كان ينوء باحمال من الألواح ،فوجد صديقين من اصدقائه القدامى في البيت يحتسيان القهوة ، وقد جاءا يسألان عنه . وقالا : « يبدو انك تريد تغيير طريقتك ، والرسم على الخشب » . فابتسم يوناس وقال : « لا ، ابداً ، ولكنني سأبدأ بشيء جديد . ومضى الى الرواق الصغير المؤدي الى الحمام والمطبخ وبيت الخلاء . وتوقف في الزاوية اليمنى حيث يلتقي الرواق بالقاعة ، واخذ يدرس تفصيلاً ، الجدران العالية التي ترتفع الى السقف المظلم . وشعر بالحاجة الى سلم . فهبط الدرج ، وأتى

به من حارس البناية .

ورأى عندما عاد ، عدداً آخر من الناس في شقته ، وكان عليه أن يصطرع مع عواطف زائريه الذين فرحوا بالعثور عليه من جديد ، ومع اسئلة افراد اسرته ، قبل ان يصل الى نهاية القاعة . وخرجت زوجته في تلك اللحظة من مطبخها . ووضع يوناس السلم الذي يحمله ، وضم لويز الى صدره ، وتطلعت لويز اليه وقالت « ارجوك ان لا تعود الى مثلها ثانية » . وقال يوناس : « سأرسم . يجب أن ارسم . » وبدا وكأنه يتحدث الى نفسه ، لأنه كان يتطلع الى ناحية ثانية . ان عليه ان يعمل . واقام من الالواح التي أتى بها منصة على الحائط ضيقة ولكنها عميقة وعالية . وعندما جاءت ساعات بعد الظهر ، كان كل شيء قد انتهى . واستعان يوناس بالسلم ، ليعلق نفسه بالمنصة ، ليختبر متانتها فوجدها قوية ثابتة . وعاد الى الآخرين فاختلط بهم ، وفرحوا جميعاً بعودته الى سابق عهده من الألفة والود . وعندما خلت الشقة من الناس في المساء ، جاء يوناس بمصباح غازي ومقعد وحاملة ولوحة للرسم . وحمل جميع هذه الحاجيات الى المنصة ، أمام عيون النسوة الثلاث المندهشة والاطفال . وقال من محفته العالية : « في وسعي الآن ان اعمل ، دون ان اضايق احداً . وسألته لويز عما اذا كان واثقاً مما يقول ، فرد بقوله : « طبعاً ، انني لست بحاجة الى مساحة واسعة . سأكون هنا اكثر حرية وانطلاقاً ، وقد عرف التاريخ عدداً من مشاهير الرسامين الذين كانوا يعملون على اضواء الشموع... ثم ... » فقاطعته زوجته قائلة : « وهل الارض ثابتة ؟ » فرد بالايجاب ، طالباً اليها ألا تقلق ، ومؤكداً ان هذا الحل رائع وطيب . ثم هبط ثانية من منصته .

وصعد في صباح اليوم التالي الى المنصة ، واتخذ مجلسه ، ووضع اللوحة على الحمالة ، التي اسندها الى الحائط ، وتريث قبل ان يشعل الضوء . وكانت

الاصوات المباشرة التي تصله صادرة اما من المطبخ أو من بيت الخلاء ، أما الاصوات الاخرى فتبدو بعيدة نائية ، ولم يعد يسمع اصوات الزيارات، وقرع الاجراس ، ورنين الهاتف ، والذهاب والاياب ، والاحاديث ، الا كاشياء خافتة ، وكأنها آتية من الشارع أو من الباحة الخارجية . وعلى الرغم من ان الضوء كان يغمر الشقة باسرها ، فان الظلام يخيم على منصته فيضفي عليها نوعاً من الهدوء والراحة . وكان احد الاصدقاء يأتي من حين الى آخر فيقف تحت المنصة ويهتف قائلاً : « ماذا تعمل هناك يا يوناس ؟ » فيرد عليه بقوله: « انني اشتغل » . « وهل تشتغل بدون ضوء ؟ » ،«نعم الى فترة من الزمن». انه لا يرسم ، ولكنه يتصور ويتخيل . وأخذ يصغي في هذا الظلام ،وذلك الهدوء الذي تصوره اذا ما قورن بما جرى عليه في الماضي كصمت الصحراء او القبور ، الى دقات قلبه ، ولم تعد الاصوات التي تصل اليه وهو على منصته لتهمه ، حتى ولو انها كانت موجهة اليه . فقد غدا مثل اولئك الذين يموتون وحيدين في بيوتهم وهم نائمون ، فيقرع جرس الهاتف في الصباح محموماً، وعنيداً ، من البيت المهجور ، فوق جسد اصابه الصمم الى الابد . ولكنه كان لا يزال على قيد الحياة ، وهو يصغي الى ذلك السكون في داخله ، وينتظر كوكب سعده ، الذي ما زال غائباً ولكن على استعداد للاشراق من جديد ، والاندفاع بقوة ، دون ان يتغير ، او يتعرض للتغير ، فوق هذا الوجود من الفوضى الذي طبع خواء ايامه الاخيرة . واخذ يهتف مناجياً نفسه : « اشرق ، اشرق ايها الكوكب ، ولا تحرمني من ضيائك » . انه سيضيء ثانية ، وهو واثق من هذا كل الثقة . ولكن عليه ان يعيش في تأملاته مدة اطول . ما دام ان الفرصة قد اتيحت له اخيراً ، ليعيش وحيداً دون ان يفترق عن عائلته . وعليه ان يكتشف ، ما لم يستطع فهمه بوضوح حتى الآن ، على الرغم من معرفته له دائماً ، ومن اقباله على الرسم وكأنه

يعرفه . اجل عليه ان يمتلك اخيراً ناحية ذلك السر ، الذي ليس بسر الفن المجرد ، كما يراه الآن . وهذا هو السبب الذي حمله على عدم اضاءة المصباح.

ويصعد يوناس في كل يوم الى منصته .وبدأ زواره ، يقل عددهم،تدريجياً. لان لويز ، كانت تنشغل عنهم باعمالها البيتية الكثيرة ، ولا تلقي بالاً الى احاديثهم . ويهبط يوناس ليتناول وجبات طعـــامه ، ثم يعود الى منصته فيجلس دون حراك في الظلام طيلة النهار . وفي المساء ، يذهب الى زوجته التي تكون قد آوت الى فراشها . وبعد بضعة أيام ، طلب من لويز ، انتعد له غداءه ، فعملت ما اراد ، مع احساس بالالم اثار يوناس ، فطلب اليها لكي يجنبها المشقة مرة ثانية ان تعد له بعض الحاجيات من المواد الغذائيـــة المعلبة التي يستطيع اختزانها على المنصة . وأخذ بالتدريج يكف عن الهبوط منها طيلة اليوم على الرغم من انه لم يكن ليمس المعلبات التي حملها .

ونادى لويز ذات مساء وطلب اليها أن تأتيه ببعض البطانيـات قائلا انه سيقضي الليل في مكانه . ونظرت اليه لويز ،وقد ارتد رأسها الى الوراء، وارادت ان تقول شيئاً ، ولكنها سرعان ما اغلقت فمها ، وظلت تفحص يوناس بنظرة حزينة مشوبة بالقلق . ورأى فجأة ، ما لحق بها من كهولة ، وكيف اثرت عليها متاعب الحياة التي قطعاها معاً . وادرك انه في الحقيقة لم يحاول قط مساعدتها . ولكن ،قبل ان ينطق بحرف واحد ، كانت تبتسم له ابتسامة تتدفق بالحب والحنان ، عصرت فؤاده . قالت له : « تمامـــاً كما تقول ، ايها العزيز » .

وأخذ منذ تلك الليلة يقضي لياليه على منصته ، ولا يهبط منها الا لماماً. وخلت الشقة ، نتيجة لذلك ، من الاصدقاء ، لان يوناس لم يعد يظهر اليهم ، لا في الليل ولا في النهار . وكثيراً ما قيل للبعض منهم انـــه ذهب الى الريف ، وللبعض الآخر ، عندما استحال الكذب ، انه قد وجد مرسماً

بعيداً عن البيت . وظل راتيو الصديق الوحيد الذي يؤم البيت باخلاص فيرتقي السلم ، الى ان يرتفع رأسه الودود الكبير فوق ارض المنصة ويبادر صديقه بقوله « كيف تسير الامور معك » فيرد هذا بانها مدهشة ، ويسأله راتيو : «وهل تشتغل ؟ » فيرد يوناس : « تمامــاً ، كالشغل ، عين النتيجة » ، ويقول راتيو : « ولكن ليست لديك لوحة » فيرد هــذا قائلا : « انني اعمل على كل حال » . وكان من الشاق ان يطول الحديث اكثر من هذا بين السلّم والمنصة ، فيهز راتيو رأسه ، ويهبط ثانية ويساعد لويز في اصلاح عطل كهربائي ، او قفل باب ، ثم يودع يوناس بتحية المساء دون ان يصعد السلم ، فيرد هذا على التحية بمثلها . وفي ذات يوم ، اضاف يوناس على التحية كلمة الشكر ، فقال راتيو : « وعلام الشكر ؟ » فرد يوناس : « لانك تحبني » . وقال راتيو وهو يمضي : « حقاً ، ان هذا نبأ جديد ! » .

واستدعى يوناس راتيو ذات ليلة ، فجاء هذا راكضاً ، وكان يوناس قد اشعل الضوء لأول مرة ، وأخذ يطل من المنصة وقال : « اعطني لوحة ! » وقال راتيو « ولكن ماذا دهاك! انكتبدو نحيلا للغاية ، بل انك كالشبح. » فرد يوناس : « انني لم اتذوق شيئاً منذ يومين . ولكن هذا لا يهم مطلقاً ، يجب ان اعمل ! » . « كل اولا ! » « لا ، لست بجائع » . وأتى له راتيو بلوحة . وعندما اوشك يوناس على الاختفاء في منصته قال : « وكيف هم ؟» « من هم ؟ » . « لويز والاطفــال » . « انهم بخير ، وسيكونون اسعد لو كنت معهم . » . « انني ما زلت معهم . قل لهم . انني ما زلت معهم». ثم اختفى . وعاد راتيو فأعرب للويز عن قلقه . فاعترفت بأنها تحس بمثل هذا القلق منذ بضعة ايام ثم قالت « ولكن ما العمل ؟ آه لو كان بوسعي ، ان اعمل بدلا منه » . وتطلعت الى راتيو وفي عينيها تعاسة وقالت : « لا

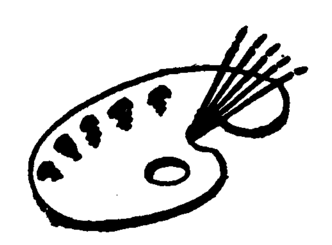
استطيع الحياة بدونه » . وبدت وكأنها الفتاة التي كانتها قبل الزواج ، مما ادهش راتيو . وادرك هذا لتوه ان وجهها قد تضرّج خجلاً .

وظل المصباح مضيئاً طيلة تلك الليلة وفي الصباح التالي ، وكان يرد على من يأتي ليحدثه كراتيو ولويز بانه يعمل . وطلب قليلا من الكيروسين عند الظهيرة . وظل المصباح مضيئاً حتى المساء . ولم يغادر راتيو المنزل ، فقد تناول العشاء مع لويز والاطفال . وعند منتصف الليل ، وقف تحت المنصة ليودع يوناس ، ولكنه ، بعد تردد قليل ، غادر المكان دون ان ينبس ببنت شفة . وعندما استيقظت لويز في صباح اليوم الثاني وجدت المصباح لا يزال مضيئاً .

وبدأ نهار جميل ، لكن يوناس لم يحس به . فقد ادار اللوحة الى الحائط . وظل جالساً في مكانه ، وقد انهكه الاعياء ، ينتظر . وقد وضع كفيه على ركبتيه . وناجى نفسه بانه لن يعمل ثانية ، فقد كان سعيداً . وسمع صوت أطفاله يصرخون،والماء يجري ، وطقطقة الاطباق . كانت لويز تتحدث . واهتزت النوافذ الضخمة عندما مرت سيارة شاحنة في البولفار المجاور . واصغى يوناس الى همس الترحيب منبعثاً من الانسانية . ولم ينطلق هذا الهمس ،من بعيد معاكساً لتلك القوة المرحة التي يشعر بها في قرارة نفسه والتي هي فنه ، لأنها الافكار الصامتة بصورة ازلية ، التي لم يستطع التعبير عنها والتي جعلته يحس،قبل كل شيء ، بالحرية والانطلاق في الهواء . وكان الاطفال يلهون داخل الشقة . والبنت الصغيرة تضحك ضحكاً عالياً ،وهاهي لويز تضحك ايضاً . لقد انقضى امد طويل منذ رآها تضحك لاخر مرة . انه يحبهم . آه لشد ما يحبهم . واطفأ المصباح ، وخيم الظلام الذي عادفجأة وهناك ! أليس ذلك هو كوكب سعده ما زال مشرقاً ؟ انه الكوكب ،وقد عرفه بجماع قلبه المفعم بالشكر،وكان لا يزال يرقبه عندما سقط دونحراك .

واعلن الطبيب الذي استدعوه على التو بعد لحظات : « ليس الأمر خطيراً. انه يجهد نفسه في العمل . وسيمشي على قدميه بعد اسبوع » . وقالت لويز ، وقد علا الأسى وجهها « هل انت واثق من انه سيشفى ؟ » . فرد الطبيب قائلا : « اجل سيشفى » .

وكان راتيو يتطلع في الغرفة الاخرى الى اللوحة ، البيضاء الخالية ، التي كتب يوناس في وسطها مجرد حروف صغيرة ، اذا جمعت الى بعضها ، كوّنت كلمة واحدة . ولكنه لم يكن واثقاً منها كل الثقة ، وهل تعني « العزلة » أو « التضامن » .





الحجر النامي



دارت السيارة برعونة حول المنعطف ، في الطريق الرملية الحمراء ، التي غدت الآن كتلة من الطـــين . والتقطت المصابيح الكاشفة فجأة في دجى الليل ، كهفين خشبيين ، لهما سقوف من الالواح المعدنية ، يقوم احدهما على هذا الجانب من الطريق ، ويقوم الآخر على الجانب الثاني . والى اليمين على مقربة من الكوخ الثاني شوهد برج من العوارض الخشبية ، الخشنة ، امكن رؤيته عبر الضباب الخفيف وسطع على ظهر البرج سلك معدني لا يرى المكان الذي يبدأ فيه ، عندما انعكست عليه اضواء السيارة قبل ان يختفي وراء الحاجز الذي يغلق الطريق . وابطأت السيارة في سيرها وتوقفت على بعد بضع ياردات من الكوخين .

وجاهد الرجل الذي كان يجلس الى جانب السائق ، في الخروج من السيارة ، وعندما وقف على قدميه ، ترنح جسده الضخم بعض الترنح . وبدا وقد وقف في ظل السيارة ، بعد ان ثبت قدميه ، اللذين انهكهما الاجهاد في الارض . انه يصغي الى صوت المحرك المسترخي ، ثم خطا باتجاه الحاجز ، ودخل في المخروط من النور الذي تشكله المصابيح الكاشفة .

وتوقف عند قمة المنحدر ، وقـــد برز كتفاه العريضتان في الظلام المحيط بالمنطقة ، وعاد بعد لحظات فالتفت وراءه ، وابصر على الضوء المنبعث من لوحة السيارة الداخلية ، وجه السائق الاسود ، وقد افتر عن ابتسامة . واشار الرجل ، فأطفأ السائق المحرك . وخيم على الفور سكون جامد على الطريق وعلى الصحراء ، واصبح في الامكان سماع خرير المياه .

وتطلع الرجل الى النهر الذي يجري تحته ، والذي لا يرى الا عندما تتألق عرضاً بعض البقع ، في انسيابه المظلم الواسع . وبدت ظلمة كثيفة لا حراك فيهـــا تشير الى الضفة الاخرى البعيدة . واذا ما ثبت الانسان نظره ، في الضفة البعيدة الهادئة ، امكنه ان يرى ضوءاً وكأنه مصباح غازي ، يبعث بضوئه من بعيد . والتفت الرجل الضخم الى السيارة واومأ برأسه . وأطفأ السائق الانوار ، ثم اضاءها ثانية ، وأخذ يكرر العملية بانتظام . وكان الرجـــل يظهر ويختفي وراء الحاجز ، وفي كل مرة يبدو فيها ، كان حجمه يبدو اكثر ضخامة وطولاً . ولاح على الضفة الاخرى من النهر فجأة ، مصباح تحمله ذراع غير مرئية ، تتقدم به وتتأخر عدة مرات . وعلى اثر اشارة اخيرة ، اطفأ السائق الانوار للمرة الاخيرة ، فبانت صفحة النهر ، وأخذت بعض امواجه ، تبرق بصورة غير متقطعة ، بينما اختفت السيارة والرجل في ظلمة الليل البهيم . ولاحت على جانبي الطريق ، اشجار الغابة المظلمة ، وقد ارتفعت بهاماتها الى السماء ، وبدت قريبة منها . وكان المطر المنهمر ، الذي غمر الطريق ، قبل أقل من ساعة ، لا يزال يرف في الهواء الدافىء ، مضخماً السكون والجمود ، في هذه الارض الفسيحة الخالية في قلب الغابة العذراء . وتلألأت في السماء السوداء ، نجوم يلفها الضباب .

وارتفعت من الضفة الأخرى اصوات سلاسل حديدية وخضخضة مخنوقة

في الماء . وظل السلك المعدني يمتد متوتراً فوق الكوخ القائم الى يمين الرجل ، الذي لا يزال ينتظر . وبدأ صرير بليد ، يسمع على طول السلك المشدود ، بينما ارتفعت من النهر اصوات خافتة ولكنها مسموعة ، تشير الى حركة في الماء . وأخذ الصرير ينتظم ، وانتشر الصوت في النهر ، ثم بدأ في التركيز ، بينما شرع المصباح ، في التضخم شيئاً فشيئاً . واصبح في الامكان الان رؤية نوره الاصفر بكل وضوح . وامتد النور شيئاً فشيئاً ، بينما ظل المصباح منيراً عبر الضباب ، ليرتفع بعد قليل ، فوق سقف مربع من سعف النخيل الجاف ، يرتكز على دعائم من الخيزران الغليظ . وأخذ هذا المأوى الغريب ، الذي تظهر فيه اشباح غامضة تتحرك ، يتقدم ببطء من الضفة . وعندما اصبح في وسط النهر ، بدا ثلاثة رجال ، قصار ، سود الوجه في الضوء الاصفر ، وقد عريت الاجزاء العليا من اجسادهم من اللباس ، وعلى رؤوسهم قبعات مخروطية الشكل . ووقف الرجال الثلاثة جامدين ، وقد انفرجت اقدامهم ، ومالوا بعض الميل ، ليوازنوا اجسامهم ، مع تيار النهر القوي ، الذي يضغط بكل ما فيه من مياه غير مرئية ، على جانب زورق كبير غريب الشكل يندفع من الظلام . وعندما دنا القارب اكثر فأكثر ، استطاع الرجل ، ان يرى تحت سقف القارب ، الى الجانب الذي يتجه فيه التيار ، زنجيين طويلين ، عاريي الصدر ، وعلى رأسيهما قبعتان واسعتان من القش ، وسراويل من القطن . وكانا يرتكزان جنباً الى جنب بجميع قواهما ، على عمودين طويلين ، يهبطان ببطء في النهر ، باتجاه المقدمة ، بينما يقومان بحركة بطيئة ، وقد انحنيا على الماء ، الى المدى الذي يسمح فيه توازنهما لهما بالانحناء .. أما في المؤخرة ، فيقف الثلاثة الخلاسيون ، هادئين ، صامتين ، يرقبون اقتراب الضفة منهم ، دون ان يرفعوا اعينهم الى الرجل الذي ينتظرهم عليها .

واصطدم الزورق فجأة بشيء . وتأرجح المصباح من الصدمة ، فحط

على رافدة ، تمتد الى الماء . ووقف الزنجيان الطويلان ، هادئين ، وقد وضعا ايديهما فوق رأسيهما ، يمسكان بطرفي العمودين اللذين ظهرا وكأنهما قد تثبتا في قعر النهر ، بينما ظلت عضلاتهما القوية ، تتمدد وتنكمش بصورة مستمرة في حركة ، تبدو وكأنها ناجمة عن اندفاع الماء . والقى بقية رجال القارب بسلاسل حديدية ربطوها الى الاوتاد القائمة على الرصيف ، ثم قفزوا اليه وانزلوا نوعاً من «الصقالة» ،غطت مقدمة القارب ووصلت بينها وبين الرصيف.

وعاد الرجل الى السيارة وانسل اليها، بينما ادار السائق محركها.وارتفعت السيارة ببطء فوق الحاجز ، متجهة بمقدمها الى السماء ، ثم هبطت به نحو النهر على المنخفض المنحدر . وتقدمت السيارة، بعد ان احكم السائق فراملها، فانزلقت على الوحل ، وتوقفت لتستأنف الحركة من جديد ، وتخطو على « الصقالة » ، بهدير عنيف ، حتى وصلت نهايتها ، حيث يقف الخلاسيون صامتين ، على الجانبين ، وهبطت ببطء فوق الزورق ، الذي غطس مقدمه في الماء ، من البداية ، ثم عاد الى توازنه الطبيعي ، عندما اصبحت السيارة بكاملها عليه . وقاد السائق سيارته الى المؤخرة أمام السقف المربع ، حيث كان المصباح معلقاً ، وقام الخلاسيون على الفور ، بسحب « الصقالة » واسلاك التثبيت ، وابتعدوا بالقارب عن الضفة الملأى بالوحل . وجاهد النهر تحت الزورق ورفعه على سطح الماء ، فسار ببطء الى الضفة المقابلة . وخفف الزنجيان الطويلان من جهودهما ، واخرجا اعمدتهما من الماء وخرج الرجل والسائق من السيارة ، وجاءا ليقفا في طرف العوامة مواجهين مجرى النهر . ولم يفه أي انسان بكلمة اثناء العملية كلها ، وظلوا جميعاً ، كل في مكانه ، هادئاً وبدون حراك، باستثناء احد الزنجيين الطويلين الذي اخذ يلف سيكارته في ورقة عادية .

وكان الرجل يتطلع الى الفتحة التي يتدفق منها النهر خارجاً من الغابة

البرازيلية الهائلة ، مندفعاً نحوهم . وكان النهر في تلك الناحية يتسع الى مسافة عدة مئات من الياردات وتضغط مياهه التي ذاب فيها الطين ، على جوانب العوامة . دون ان يحول بينها وبين هذه الاطراف شيء ، ثم تعود ، فتلتف حول العوامة ، وتنتشر ، منسابة ، في طوفان قوي وبنعومة عبر الغابـة المظلمة ، باتجاه البحر والليل . وتهب رائحة عفنة ، من الماء ، أو من السماء التي تبدو كالاسفنج ، معلقة في الفضاء . وأخذ صوت اصطفاق المـاء على الجوانب يسمع بوضوح ، كما اخترق هدأة الليل ، نقيق الضفادع منبعثاً من الضفتين ، مصحوباً مع زعيق الطيور الغريب . واقترب الرجل الضخم من السائق الصغير النحيل الذي كان يتكىء على أحد اعمدة الخيزران ، وقـد وضع يديه في جيوب لباسه المصنوع من الأقمشة الهندية ، التي كانت في يوم ما زرقاء ، ولكنها أصبحت مغطاة الآن بالاتربة الحمراء ، التي كانت تهب في وجوههم طيلة النهار . وانتشرت ابتسامة عريضة على وجهه المليء بالتجعدات على الرغم من حداثة سنه . وكان يحملق في النجوم الباهتة السابحة في السماء الرطبة دون ان يراها .

وارتفع زعيق الطيور وقد اختلط بهمهمات غير مألوفـة ، وبدأ السلك المعدني في صريره من جديد . ووضع الزنجيان قبضتيهما في الماء ، باحثين ، عن القعر . والتفت الرجل الى الساحل الذي تركوه قبل لحظات ، فرآه ، وقد غمرته الظلمة والمياه ، واسعاً ومتوحشاً مثل تلك القارة من الاشجار الممتدة وراءه الوف الكيلومترات . وبين المحيط القريب ، وهذا البحر من الخضرة ، بدت حفنة الرجال الذين يسوقهم التيار تلك اللحظة فوق ذلك النهر الثائر ، وكأنهم ضائعين . وعندما قذفت « العوامة » ، باسلاك تثبيتها ، وصقالتها ، بدت وكأنها ترسو الى جزيرة في الظلام ، بعد أيام شاقة من الابحار المستمر .

وأخذت أصوات الرجال تتضح أخيراً بعد ان وصلوا الى البر . ودفع لهم

السائق ، أجرهم ، وأخذوا يودعونه بالبرتغالية ، باصوات تبدو غريبة وفرحة في الليل الثقيل ، واستأنفت السيارة ، سيرها .

وقال السائق : « يقولون ان المسافة الى ايغواب ستون كيلو متراً ، وبعد ثلاث ساعات تكون الرحلة قد انتهت . ان سقراط مسرور .

وقهقه الرجل ، واندفعت منه ضحكة دافئة نابعة من القلب . ضحكة تشبهه تماماً في مرحها وقال : « وانا سعيد كذلك ، يا سقراط . فقد كانت الطريق شاقة » .

– « انها ثقيلة يا مسيو داراست ، وانت ثقيل للغاية ايضاً .. قال السائق ذلك ، وأخذ يضحك ، وكأنه لا يريد ان يتوقف ابداً .

ومضت السيارة تغذّ سيرها . وكانت تتقدم بين جدارين عاليين من الاشجار ، والخضرة المتشابكة ، تحيط بها رائحة حلوة ناعمة . وطارت الحباحب ، من هنا وهناك ، تبرق بضوئها في ظلمة الصحراء ، وبين آونة واخرى ، تندفع طيور ذات عيون حمراء ، فتصطدم باللوحة الزجاجية الأمامية للسيارة . وكثيراً ما وصل الى اذانهما صوت غريب متوحش ، صادر من أعماق الليل ، فيتطلع السائق ، الى الرجل ، وفي عينيه نظرة هازئة .

واستمرت الطريق في التفافها وتعوّجها ، عابرة فوق الجداول الصغيرة ، فوق جسور من الالواح المتحركة . وأخذ الضباب بعد مرور ساعة يتكاثف ويشتد . وهطل رذاذ ، رائع ، اعتم أضواء السيارة ، وأغفى داراست نصف اغفاءة ، على الرغم من الهدير المتواصل .. فهو لا يسير في الغابة الرطبة بل في طرقات الهضبة التي مشى فيها عند الصباح ، عندما تركا سان باولو . ويتصاعد من هذه الطريق القذرة باستمرار غبار أحمر ، ما زال طعمه في فمه ، وهو يغطي على جانبي الطريق الى مدى النظر الخضرة المتفرقة فوق السهل .

وتميزت الصحراء التي لا نهاية لها . والتي مرا بها ، بالشمس المحرقة ، والجبال الشاحبة الملأى بالأخاديد ، وقطعان البقر الهندي الجـائعة ، تحرسها اسراب من النسور السوداء التي تعيش في اواسط امريكا وجنوبها ، وتوقفت السيارة . فقد اصبحا الآن في اليابان ، فهناك مساكن نحيلة على جانبي الطريق ، وفي داخل هذه المساكن تبدو ازياء الكيمونو التي تختلس النظر . وأخـذ السائق يتحدث الى ياباني يرتدي « الدنفاري » ، وقد وضع على رأسه قبعة برازيليـة من القش . وعـاد السائق ليستأنف السير ، قائلاً : لم يبق امامنـا سوى اربعين كيلومتراً .

– اين كنا ؟ في طوكيو ؟

– لا . انها ريجيسترو . فجميع اليابانيين في البرازيل يعيشون فيها .

– لماذا ؟

– لا ادري . إنهم من الصفر ، كما تعرف يا مستر داراست .

وأخذت كثافة الغابة تخف شيئاً فشيئاً ، وبدأت الطريق تصبح اكثر سهولة ، رغم ما فيها من انحدار وانزلاق ، اذ ان السيارة تسير على الرمال . وتسرب من النافذة نسيم دافىء ، فيه بعض الملوحة .

وقال السائق وهو يلعق شفتيه : « هل تشمّه ، انه البحر الطيب ثانية ، سنصل عما قريب ايغواب .

– اذا كان لدينا ما يكفينا من البترول . وعاد داراست الى اغفاءته .

* * *

وعندما استيقظ داراست في الصباح الباكر ، تطلع مندهشاً الى الغرفة الواسعة التي وجد نفسه فيها . وكان النصف الاسفل من الجدران العالية قد

صبغ مؤخراً باللون البني . أما النصف العلوي ، فقد كان في يوم ما مدهوناً باللون الابيض ، وقد بدت فيه بقع صفراء تمتد الى السقف . وكان ثمة صفان من الاسرة يواجه الواحد منهما الآخر ، ورأى داراست سريراً واحداً ، غير مرتب في نهاية الصف الذي ينام فيه ، وقد خلا من أي انسان . وسمع صوتاً ، الى شماله ، فالتفت ناحية الباب ورأى سقراط ، يحمل زجاجة من المياه المعدنية في كل من يديه ، وقد وقف يضحك ثم قال : « ذكرى مرحة » . وهزّ داراست نفسه . وتذكر ان المستشفى الذي وضعها فيه رئيس البلدية السالفة ، كان يدعى « ذكرى مرحة » . وواصل سقراط حديثه قائلاً : « ذكرى اكيدة . وقد قيل لي انهم يبنون المستشفى اولاً ، ثم يعثرون له على الماء . وفي غضون ذلك ، عليك ان تغتسل في « ذكرى مرحه » ، في مياه معدنية فاترة . واختفى سقراط ، وهو يضحك ، ويغني ، وكأنه لا يشعر بالاجهاد من العطاس الجائح ، الذي هزّه طيلة الليل ، والذي حرم داراست من النوم ثانية واحدة .

واصبح داراست الآن في يقظة كاملة . ورأى عبر النافذة الذي وضع عليها شباك حديدي ، باحة ، صغيرة ، ارضها حمراء ، غمرها المطر ، الذي ينصب دون صوت على اجمة من اشجار الند العالية . وأبصر بامرأة تمر ، وقد وضعت وشاحاً اصفر على رأسها . واستلقى داراست في سريره ،لينهض بعد ثوان ، فيجلس فيه برهة ، ثم يتركه وقد احدث صريراً من ثقل جسمه . وعاد سقراط في تلك اللحظة ليقول : « ان رئيس البلديـة ينتظرك يا مستر داراست في الخارج» . وعندما رأى النظرة التي عبرت في وجه داراست اضاف قائلاً : « لا تقلق ، فهو على غير عجلة من امره » .

وحلق داراست ذقنه بالمياه المعدنية ، ثم مضى خارجاً الى رواق البناء ، وكان رئيس البلدية ، الذي يشبه في حجمه الصغير ، ونظراته التي تبدو وراء

نظارتيه المذهبتين ، ابن عرس ، غارقاً في تأملات واسعة عن المطر المنهمر . وعندما رأى داراست،تبدلت هيئته تماماً ، بتلك البسمة الجذابة التي اشرقت على وجهه . وانتصب بجسمه الصغير ، واسرع ، ماداً ذراعيه القصيرتين ، يحاول بهما عناق المهندس . وجاءت سيارة في تلك اللحظة ، فوقفت امامهما، على الجانب الثاني من السور المنخفض ، وانزلقت في الطين الرطب ، وتوقفت اخيراً ، وقال رئيس البلدية : « انه القاضي » . وكان هذا ، كزميله رئيس البلدية ، مرتدياً بدلة زرقاء ، وقد بدا اصغر سناً بكثير ، من رئيس البلدية، وربما كان الفضل في ذلك ، لقوامه الانيق ، ونظرة الفتوة البادية في عينيه . واخذ القاضي يتجه اليهما مجتازاً الساحة ، ومتجنباً ،برك ماء المطر المتجمع . وعندما اصبح على بعد بضع خطوات من داراست ، مد يديه ، مرحباً به . وكان معتزاً ، بأن يحيي المهندس النبيل ، الذي يشرف قريتهم المسكينة بزيارته ، كما امتلأ قلبه بالسرور ، من الخدمة التي لا تقدر بثمن ، التي كان المهندس النبيل يعتزم القيام بها لايغوايب ، ببناء ، ذلك الحاجز الصغير الذي يمنع الفيضانات الموسمية ، من ان تغمر الاجزاء المنخفضة من البلدة . يالها من مهنة نبيلة ، ان يسيطر صاحبها على المياه ، ويشرف على الانهار . آه ، ومن المؤكد ان الشعب المسكين ، في ايغوايب ، سيذكر دائماً ، اسم المهندس النبيل ، وسيذكرونه في صلواتهم ، لعدة سنوات قادمة . وأسرت هذه البلاغة والجاذبية داراست فشكر القاضي ، ولم يجرؤ على ان يظهر استغرابه من العلاقة الممكنة التي تربط بين القاضي وبين الحاجز . وذكر رئيس البلدية أن الوقت قد حان للذهاب الى النادي ، حيث يود كبار اهل البلدة ان يقابلوا المهندس النبيل ، وان يرحبوا به ، قبل ان يبدأ طوافه في الاحياء الفقيرة . ومن هم وجهاء البلدة ؟

وقال رئيس البلدية : « حسناً انهم ، انا كرئيس للبلدية والقاضي المستر

كارفالهو ، الموجود هنا ، وقائد الميناء ، وعدد آخر من الناس اقل اهمية . ولن يتحتم عليك ان تظهر اهتماماً كبيراً بهم ، اذ انهم يجهلون الفرنسية » .

واستدعى داراست سقراط ، وابلغه انه سيلقاه عندما تنتهي ساعات الصباح . وقال سقراط : « حسناً ، سأذهب الى حديقة الينبوع » .

– حديقة الـ ؟

– نعم . كل انسان يعرفها . لا تخف يا مستر داراست .

ولاحظ داراست ، عندما ترك المستشفى ، ان هذا البناء قد اقيم في طرف الغابة ، وان الاوراق الخضراء ، الكثيفة تتدلى على سقف المستشفى . وأخذت الامطار تتساقط على سطح الاشجار ، فتمتصها الغابة الكثيفة دون أي صوت ، وكأنها قطعة كبيرة من الاسفنج . وكانت البلدة تتألف من نحو من مائة بيت ، تغطيها سقوف من « القرميد » المنبسط ، تمتد ، بين الغابة والنهر ، بينما تصل وشوشات المياه البعيدة الى المستشفى . ودخلت السيارة في شوارع مخضلّة ، ثم خرجت فجأة الى ساحة كبيرة مستطيلة، تبدو فيها ، الحفر وقد امتلأت بالماء الآسن ، ممزوجاً بالطين الاحمر ، الذي تظهر فيه اثار العجلات ، من مطاطية وحديدية ، واقدام الخيل . وحول هذه الساحة ، تقوم دور خفيضة ، مطلية بالجص ، وهي مغلقة على الساحة ، ومن ورائها ، تظهر ابراج مزدوجة لكنيسة ذات لون يمتزج فيه البياض بالزرقه ، وقد بنيت على الطراز الذي يظهر في المستعمرات . وتسيطر على هذا المنظر ، رائحة الماء المالح ، منتشرة من مصب النهر . ورأى داراست ، أمام البيوت حشداً متنافر الألوان من رعاة الابقار من نسل الاسبان والهنود بعد تزاوجهم ، واليابانيين ، وانصاف الهنود ووجهاء المواطنين ببدلاتهم السوداء ، وهم يتقدمون بتحيات واشارات بطيئة، بينما بدا في منتصف الساحة اشباح بللها المطر . وهي تتجول فيها . وكان الجميع يخلون الطريق بمظاهر النبل ،

مفسحين المجال أمام السيارة ، ويقفون ليرقبوا من فيها . وعندما توقفت السيارة في مدخل أحد البيوت في الساحة ، التفت حولها دائرة ، من هؤلاء الرعاة ، وقد ابتلت ملابسهم من المطر ، تحلقوا حول السيارة ومن فيها .

وعندما دخل داراست النادي ، وهو أشبه ما يكون بحانة في الطابق العلوي ، مجهزة بقاطع من الخيزران ومناضد الحديد ، رأى وجهاء القوم ، وقد تضخم عددهم . وقد شرب الجميع خمراً مصنوعة من قصب السكر ، على نخب داراست الذي اقترحه رئيس البلدية وهو يحمل الكأس في يده ، مرحباً به ، ومتمنياً له أقصى السعادة . وبينما كان داراست يحتسي كأسه ، على مقربة من النافذة ، اندفع انسان ضخم غليظ ، يرتدي ملابس الركوب وهو يترنح بعض الشيء ، والقى خطاباً سريعاً وغامضاً لم يفهم منه المهندس الا كلمة واحدة أعادها كثيراً وهي « جواز السفر » . وتردد المهندس قليلاً ، ثم أخرج الوثيقة التي أمسك بها ذلك الشخص بشراهة ، وبعد ان قلب صفحات الجواز ، أعرب عن الاستياء الواضح ، ثم استأنف خطابه وهو يهز الوثيقة تحت أنف المهندس . الذي أخذ يتطلع دون تأثر او هياج ، الى الرجل الغاضب . وتقدم القاضي آنذاك مبتسماً ، وسأل عن الموضوع . وتطلع الرجل الثمل ، الى هذا المخلوق الضئيل ، الذي جرؤ على مقاطعته متفحصاً اياه ، ثم تقدم مترنحاً ، بصورة خطرة ، وأخذ يهز الجواز في وجه محدثه الجديد . واحتد النقاش ، وفجأة ، تفجر القاضي عن صوت كهزيم الرعد ، ما كان لانسان ان يتصور صدوره عنه . وتراجع الرجل الضخم دون سابق انذار ، كالطفل الذي يقبض عليه متلبساً . وخطا تنفيذاً لأمر اخير من القاضي نحو الباب كما يخطو أي طالب يتعرض للعقاب ، ومضى في طريقه .

واقترب القاضي ليشرح لداراست ، بصوت عاد الى طبيعته الهادئة ،

تصرفات هـــذا الانسان الغريب الاطوار ، الذي غادر المكان ، وذكر انه رئيس الشرطة ، وانه تجاسر فزعم ان جواز السفر ، لم يكن سليماً ، وأكد انه سيعاقب على هذا الانفجار الذي بدا منه . وخاطب القاضي كارفالهو ، آنذاك كبار المواطنين الذين تحلّقوا حوله في دائرة ، وبدا وكأنه يوجه اليهم الاسئلة . وبعد نقاش قصير ، اعرب القاضي لداراست ، عن اعتذارات الاهلين الصادقة ، ورجاه ان يعتبر الموضوع ثمرة السكر الشديد ، الذي جعل ذلك الرجل يتجاهل ما يكنه جميع أهل البلدة من احترام واعتراف بجميله ، وطلب اليه أخيراً ان يقرر بنفسه العقوبة التي يرى وجوب ايقاعها في ذلك الانسان التعيس . وقال داراست ، انه لا يريد ايقاع اية عقوبة بالرجل ، وانه يعتبر الموضوع حادثاً تافها ، وانه على غاية من الشوق للذهاب الى النهر . وتحدث رئيس البلدية ، بعد ذلك ، فاكد بروح طيبة وبسيطة ، ان العقوبة أمر يمكن ان يوكل بها ، وان الرجل المذنب سيظل رهن السجن ، وانهم جميعـــاً سينتظرون ما يقرره زائرهم العظيم بشأنه . ولم يكن بوسع اي احتجاج من داراست ان يخفف من شأن هذه القسوة المصحوبة بالابتسام ، فاضطر ان يعدهم بدراسة الموضوع . وقرروا على التو ان يقوموا بزيارة الاحياء الفقيرة في البلدة .

وكان النهر ، قد بدأ ينشر مياهه الصفراء على الضفاف الخفيضة المائلة . وكانوا قد خلفوا وراءهم ، آخر بيوت بلدة الغوبي ، ووقفوا بين النهر وبين حاجز منحدر ، تتعلق به اكواخ مبنية من الطين وغصون الاشجار . وتمتد الغابة امامهم ، في نهاية الحاجز ، بصورة مفاجئة ، بنفس الطريقة الموجودة على الضفة الثانية من النهر . ولكن الثغرة التي احدثها الماء ، كانت تتسع بسرعة بين الاشجار حتى تصل الى خط رمادي غير واضح ، يشير الى بداية البحر ، وتقدم داراست دون ان ينبس ببنت شفة من المنحدر ، حيث

تركت مستويات الفيضانات المتعددة اثاراً ما زالت حديثة . وانطلقت طريق موحلة ، صاعدة نحو الاكواخ التي وقف امامهـــا عدد من الزنوج ، صامتين يرقبون الوافدين ، وكان عدد من الأزواج قـد تشابكت ايديهم ، كما وقف صف من الاطفال السود على طرف المرتفع ، أمام ذويهم ، وقـــد اندفعت بطونهم والتوت ارجلهم ، يتطلعون بعيونهم المستديرة .

ولما وصل داراست ، إلى مدخل الاكواخ ، اشار بيده الى ضابط الميناء، وكان زنجياً بديناً ضحوكاً ، يرتدي لباساً عسكرياً ابيض . وسأله داراست بالأسبانية ، اذا كان بامكانه ان يقوم بزيارة احد الاكواخ . وكان الضابط واثقاً من امكانية ذلك ، واعتقد انهـــا فكرة طيبة ، وان بوسع المهندس النبيل ، ان يرى اشياء تهمه كثيراً . فألقى خطاباً مسهباً وجهه الى الزنوج مشيراً الى داراست والى النهر . وكانوا يصغون اليه ، دون ان ينطقوا بحرف واحد وعندما انتهى الضابط ، من خطابه ، لم يتحرك ، أي منهم . فعاد الى الحديث من جديد ، وقد فرغ صبره . ثم اشار الى واحد منهم مستدعياً اياه ، فهز هذا رأسه . وآنذاك نطق الضابط ببضع كلمات مختصرة ، في لهجة الأمر . وخرج ذلك الرجل من صفوف جماعته ، وواجه داراست ، ثم اشار اليه بيده ، مرشداً اياه الى الطريق . لكن نظرتـــه كانت تحمل طابع العداء . وكان الرجل كهلا ، وقد ابيض شعره القصير ، فوق وجهه النحيل الجاف ، ومع ذلك ، فقد كان جسده لا يزال فتياً ، يظهر فيه كتفاه النحيلتان ، وعضلاته البارزة ، من قميصه الممزق ، وسراويله القطنيـــة . ومضوا في طريقهم يتبعهم الضابط ، وحشد من الزنوج ، فارتقوا ، حاجزاً جداً منحدراً ، حيث تلتصق الاكواخ المبنية من الطين والصفيح ، والقصب بالارض ، بصعوبة شديدة ، مما يضطرهم الى تقويتها في قواعدها ، باحجار ثقيـــلة . وقابلوا امرأة ، تهبط الطريق ، وهي تتعرض للانزلاق بقدميها

الحافيين ، وقد حملت على رأسها برميلاً من الحديد مملوءاً بالماء . ووصلوا اخيراً الى ساحة صغيرة ، غير منتظمة ، محاطة بثلاثة اكواخ . واتجه الرجل الى أحد هذه الاكواخ ، ودفع باباً من الخيزران ، يدور على « فصّالات » من النباتات الاستوائية المعترشة . وتنحى جانباً دون ان ينطق بكلمة واحدة ، متفرساً في المهندس ، بنفس النظرة غير الودودة . ولم ير داراست في الكوخ شيئاً ، في البداية الا ناراً خامدة ، اشعلت على الارض في وسط الغرفة تماما . ثم شاهد في زاوية خلفية ، سريراً من النحاس الاصفر ، وقد وضعت عليه خشبة عارية مكسرة ، وفي الزاوية الاخرى ، منضدة ، عليها اطباق من الطين المحروق ، وبين الزاويتين ، نوع من المنصة ، عليها صورة ملوّنة تمثل القديس جورجيوس . ولم يكن في الكهف باستثناء ما ذكرنا ، الا كومة من الاسمال البالية تقوم الى يمين المدخل . كما علقت الى السقف بعض الملابس المختلفة الالوان لتجف على النار . ووقف داراست ساكناً جامداً ، يشم رائحة الدخان والفقر ، المنبعثة من الارض ، فكادت تخنقه . وسمع الضابط يصفق بيديه وراءه ، فالتفت خلفه ورأى في الضوء ، قلنسوة فتاة سوداء جميلة ، تمد له شيئاً . وتناول كأس الخمر المصنوعة من قصب السكر واحتساها . وظلت الفتاة واقفة ، لتأخذ منه الكأس الفارغة ، ثم مضت بحركة مرنة مطواع ، فشعر داراست فجأة بالرغبة في ان يمسك بها .

وعندما خرج ، لم يميزها بين حشد الزنوج ووجهاء القوم الذين احتشدوا ، حول الكوخ . فشكر الرجل الكهل ، الذي انحنى دون ان يقول شيئاً . ثم غادر المكان يتبعه الضابط ، الذي استأنف شروحه ، سائلاً متى سيكون في وسع الشركة الفرنسية في ريو ، ان تبدأ العمل ، وهل بالامكان اتمام بناء الحاجز المائي قبل حلول فصل الامطار . ولم يعرف داراست ، ماذا يجيب فقد كان يفكر حقاً في شيء اخر . ومضى هابطاً الى النهر البارد ينساب

تحت الضباب الرائع . وكان لا يزال مصغياً الى ذلك الصوت العظيم النفاذ ، الذي كان يسمعه باستمرار منذ وصوله ، والذي لا يدري أينبعث من الماء أو من الاشجار . وعندما وصل الى الضفة ، تطلع الى المدى البعيد عند خط البحر الذي لا يرى ؛ وهو البحر الذي يمتد الوف الكيلومترات من المياه المنعزلة ، التي تصل حتى افريقيا ، وحتى مسقط رأسه في اوروبا .

وقال داراست : « علام يعيش هؤلاء الناس الذين رأيناهم قبل قليل ايها الضابط » ؟

– انهم يشتغلون عندما يطلب اليهم العمل . اننا فقراء .

– وهل هم افقر اهل المنطقة ؟

– نعم الافقر .

ووصل القاضي في تلك اللحظة ، ينزلق في حذائيه الجميلين ، فقال ، ان الفقراء ، قد بدأوا يحبون المهندس النبيل ، الذي سيقدم لهم ، فرص العمل . ومضى يقول انهم يرقصون ويغنون في كل يوم . ثم سأل داراست دون ان يقطع حديثه عما اذا كان قد فكر في العقوبة .

– أية عقوبة ؟

– عقوبة رئيس شرطتنا .

– اطلقوا سراحه . ولكن القاضي اعلن ان هذا مستحيل ، وان من الواجب معاقبته ، وكان داراست قد مضى في طريقه نحو ايغوابي .

* * *

وفي حديقة الينبوع الصغيرة ، الجميلة والرائعة ، في هذا الجو الماطر ، تدلت عناقيد من الازهار الغريبة ، على النباتات المفترشة ، بين اشجار الموز والفندنوس . وكانت اكوام الاحجار المبتلّة تشير الى تقاطع الطرق التي

يخطو عليها حشود من الناس المتنافري الالوان ، فبينهم الخلاسيون وذرية العناصر المتبادلة المتزاوجة ، كالاسبان والهنود ، وهم يتحدثون في اصوات هامسة خفيضة ، او يتجولون على الممرات التي تحيط بها اشجار الخيزران منتهية الى نقاط ، تكثف فيها الدغلان، والاجمات ، ويصبح من العسير المرور فيها . وهنا تبدأ الغابة بشكل مفاجىء .

وكان داراست يبحث عن سقراط بين حشود الجماهير عندما فاجأه هذا من الخلف بوكزة خفيفة قائلا ، وهو يضحك ، وقد تعلق باكتاف داراست العالية قافزاً ، ومرحاً ... انه يوم عيد .

– « أي عيد ? » .

وقال داراست دهشاً مستغرباً : « الا تدري ? انه عيد يسوع الطيب . وهم يأتون في كل سنة الى الكهوف حاملين مطارقهم .

واشار سقراط ، لا الى كهف ، بل الى حشد من الناس ، يبدو منتظراً في زاوية من الحديقة .

وقال سقراط « اتدري ? في ذات يوم حمل النهر من البحر ، تمثال المسيح الطيب ، لقد عثر عليه بعض الصيادين ، آه ما أجمله ، ما أجمل هذا التمثال ، وجاءوا به فغسلوه في الكهف . وأخذ احد الحجارة في الكهف ينمو شيئاً فشيئاً ، وفي كل سنة يحل العيد ، ويذهب الناس بمطارقهم فيقطعون من الحجر ، اجزاء يحفظونها للبركة، ولتجلب لهم السعادة ، وهذا الحجر يستمر في النمو ، ويواصل الناس قطع اجزاء منه . انها المعجزة » .

وكانا قد وصلا الى الكهف ، وأبصرا بمدخله المنخفض ، وراء الناس المجتمعين امامه ينتظرون دورهم ، ورأيا على ضوء الشموع في ظلمة الكهف ، شخصاً متعباً ، وهو يطرق الحجر بطرقته . وخرج الرجل ، وهو خلاسي

نحيف البنية ، يحمل شارباً طويلاً ، وقد حمل في كفه المفتوحة ، حتى يراها الجميع قطعة صغيرة من الصخر الرطب ، سرعان ما اغلق عليها يده قبل ان يمضي . وأحنى رجل آخر هامته ودخل الى الكهف .

والتفت داراست في كل ناحية واتجاه ، فرأى الحجاج من كل جانب ينتظرون دورهم ، دون ان يتطلعوا اليه ، ولا يكترثون بالماء المتساقط من الاشجار ، في الواح رقيقة . ووجد نفسه يقف امام الكهف ، متعرضاً لنفس الغشاوة من الماء ، وهو لا يدري سبباً لوقوفه . وها هو يقف امامه باستمرار ، مدة شهر واحد ، أي منذ هبطت قدماه ارض هذه البلاد . انه ينتظر ، في حرارة الايام الحمراء ، وتحت نجوم الليل الصغيرة ، على الرغم من المهام الملقاة على عاتقه ، والسدود التي يجب ان يقيمها ، والطرق التي يتحتم عليه ان يشقها ، وكان العمل الذي جاء من اجله الى هنا ، لم يكن الا ذريعة ، لمفاجأة أو مقابلة لم يكن قط يتصورها ، وانما كانت تنتظر قدومه صابرة في هذا الطرف من العالم . وصحا الى نفسه ، فمضى ، دون ان يلتفت اليه أحد من المجموعة الصغيرة من الناس ، التي وقفت الى جانبه ، ومضى الى المخرج . فعليه ان يعود الى النهر والى عمله .

وكان سقراط ينتظره عند الباب ، وقد ضاع في حديث ذرب مع رجل بدين قصير ذي بشرة صفراء ، لا سوداء . وكان رأسه حليقاً ، تماماً ، ويظهر جبهة عريضة واسعة . وكان وجهه العريض الناعم من الناحية الاخرى ، وقد ازدان بلحية سوداء للغاية مربعة الشكل .

وقال سقراط مقدماً إياه الى داراست : « انه بطل ، وسنراه غداً في الموكب » .

كان الرجل يرتدي ملابس البحارة من القماش السميك ، وتحت جاكيتته ،

قميص مخطط ، باللونين الابيض والازرق ، وأخذ يدرس داراست بعينيه السوداوين الهادئتين . وكان يبتسم في نفس الوقت ، وقد ظهرت جميع اسنانه البيضاء ، بين شفتيه الغليظتين اللامعتين .

وقال سقراط : « انه يتحدث الاسبانية » ثم التفت الى الرجل الغريب قائلاً : « تحدث الى المستر داراست . ومضى سقراط راقصاً نحو جماعة جديدة وتوقف الرجل عن الابتسام متطلعاً الى داراست ، بنظرة فيها فضول صارخ: « هل يهمك ان تتحدث ايها القبطان ؟ »

– انا لست قبطاناً .

– هذا لا يهم ، ولكنك نبيل ، وقد ابلغني ذلك سقراط .

– لا . انا لست نبيلاً ، ولكن والدي كان نبيلا ، وكان والده وجميع اسلافه كذلك . أما الآن ، فلم يعد هناك نبلاء في بلادنا .

وقال الزنجي ضاحكاً : – آه ، فهمت ، كل انسان نبيل .

– لا ، ليس الأمر كذلك ، فليس هناك الآن نبلاء أو عامة شعب .

وفكر الزنجي قليلاً ثم حزم امره وقال : « ألا يعمل احد في بلادكم ؟ أو لا يتألم احد ؟

– بلى ، ملايين الناس .

– اذن هؤلاء هم عامة الشعب .

– نعم ، من هذه الناحية ، هم عامة الشعب ، ولكن السادة هم التجار والشُرَط.

وقطب الخلاسي وجهه اللطيف ، ثم همهم قائلاً : « آه ، البيع والشراء ، يا للقذارة . ومع الشُرَط ، تسيطر الكلاب » .

وانفجر الرجل ضاحكاً بصورة مفاجئة . ثم قال : « وأنت ، هل تبيع؟

– لا . ابداً ، انا اضع الجسور والطرق .

هذا حسن . أما انا فطباخ في باخرة . واذا رغبت اعددت لك طبقاً من الفول الاسود .

– حسناً .

واقترب الطباخ من داراست وامسك بذراعه وقال : « اسمع ، انا احب ما تقوله ، وسأحدثك بدوري عن اشياء قد تحبها ».

وقاده قرب الباب الى مقعد من الخيزران تحت اجمة من اشجاره ، ثم قال : « كنت في البحر على بعد من ايغوابي ، على ظهر ناقلة بترول ساحلية صغيرة تقوم بتموين الموانىء على طول الشاطىء.واشتعلت النيران في السفينة. ولم يكن ذلك بسبب خطأ مني ، فقد كنت اعرف عملي وانما نتيجة سوء الطالع . وتمكنا من انزال قوارب النجاة . وفي الليل ، هاج البحر ، وقلب القارب ، فنزلت في الماء ، وعندما صعدت الى سطح البحر ثانية ، اصبت القارب برأسي . فأبعدت عنه . وكان الليل مظلماً ، والامواج رهيبة ، بالاضافة الى جهلي بالسباحة . وسيطر عليّ الفزع . وآنذاك رأيت ضوءاً عن كثب عرفت فيه ضوء كنيسة المسيح الطيب في ايغوابي . ونذرت للمسيح انه اذا انقذني حملت على رأسي حجراً زنته مائة رطل في موكبه السنوي . وقد لا تصدقني ، ولكن سرعان ما هبطت الامواج وهدأ البحر ، كما شعرت بالطمأنينة تغمر قلبي . وسبحت ببطء ، وكنت سعيداً حتى وصلت الشاطىء وغداً سأفي بنذري .

وتطلع الى داراست في نظرة تنطق بالشك وقال : « انك لا تضحك ؟ »

– ، انا لا اضحك ، على الانسان أن يفي بما يعد .

وربت الرجل على كتفه وقال : « والآن تعال معي الى بيت اخي قرب النهر . سأطبخ لك بعض الفول .

فرد داراست بقوله : « لا ، لدي بعض الاعمـال الان . لتكن دعوتك في المساء اذا رغبت .

– حسناً . ولكن الليلة ، هناك رقص وصلوات في الكوخ الكبيـر . فاليوم عيد القديس جورجيوس .

وسأله داراست اذا كان قد رقص ايضاً ، فظهر العبوس على وجه الطباخ فجأة ، واصبحت عيناه لأول مرة ، تتحركان . وقال : « لا . لا . انـا لا ارقص . علي ان احمل غداً الحجر . انه ثقيل . وسأذهب هذا المساء لاحتفي بالقديس ، ثم اذهب مبكراً .

– وهل يطول الاحتفال ؟

– طيلة الليل ، وقد يمتد الى ساعات الصباح .

وتطلع الى داراست بنظرة تحمل طابع الخجل ثم قال: «تعال الىالرقص، ففي وسعك ان تأخذني الى البيت فيما بعد . والا ، فسأظل هنـاك ارقص . وقد لا اتمكن من البقاء بعيداً عنه .

– هل تحب الرقص ؟

– نعم . كل الحب. ويضاف الى هذا هناك السيكار، والقديسون والنساء. فقد تنسى كل شيء وتكف عن الاطاعة .

– وهل ثمة نساء ايضاً ؟ جميع نساء البلدة ؟

– لا ، جميع نساء الأكواخ ، لا البلدة .

واسترد طباخ الباخرة ابتسامته وقال: « تعال . سأطيع اوامر القبطان، وستساعدني على الوفاء بنذري في الغد».

وأحس داراست ببعض القلق ، فماذا يعني ذلك النـذر السخيف له ؟

ولكنه تطلع الى ذلك الوجه الجميل الصريح يتطلع اليه بثقة ، وقد علته بسمة مشرقة ونضحت بشرته السوداء بالصحة والحيوية . وقــال : « سآتي وسأسير معك الان قليلا .

وتخيّل دون ان يدري سبباً ، تلك الفتاة السوداء ، وهي تقدم له كأس الترحيب ذلك اليوم .

وخرجا من الحديقة ، وسارا عبر عدة شوارع موحـــلة ، ثم وصلا الى الساحة المترعة وقد بدت اكبر من حجمها بفضل هذه البيوت الخفيضة التي تحيط بها . وكانت الرطوبة تتساقط الان على الجدران المطليّة بالجص ، على الرغم من هطول المطر ، لم يزد عمّا كان عليه . وكان هـــدير النهر وحفيف الاشجار ، يصلان اليهما عبر السماء الاسفنجية الممتدة الى ما لا نهاية ، وقــد خفتا بعض الشيء . وكانا يسيران في خطو متزن ، فداراست يمشي متثاقلا ، بينما الطباخ ، يخطو خطوات مرنة. وكان هذا ، يرفع رأسه بين آونة واخرى ليبتسم الى صديقه . ومضيا في اتجاه الكنيسة . التي كانت تبدو لهما مرتفعة فوق البيوت ، حتى وصلا الى نهاية الساحة ، ثم انتقلا الى شوارع موحـــلة اخرى امتلأت بروائــح الطهي المستفزّة.وكانا يريان بيــن آونة واخرى ، امرأة تحمل طبقاً ، او قدر مطبخ ، تطل برأسها فضولا ، من احد الابواب ثم تعود لتختفي على التو . ومرا بمدخل الكنيسة ، ثم سرعان ما ولجا حياً قديماً من احياء البلدة ، تمتد فيه البيوت الخفيضة المتشابهة ، وخرجا منـــه فجأة على هدير النهر الذي لا يرى والذي يسير وراء منطقة الاكواخ ، التي تذكرها داراست .

وقال داراست : « حسناً ، سأتركك الان ، لاراك عند المساء .

– أجل . أمام الكنيسة .

ولكن الطباخ لم يتخل عن يد داراست ، ثم تردد واخــيراً حزم امره

وقال : « وأنت ألم يسبق لك في حياتك ان استغثت ، ووعدت بنذر .

– بلى ، مرة واحدة كما اعتقد .

– في حادث غرق باخرة ؟

– اذا احببت ان تكون . وسحب داراست يده من يد الطباخ بخشونة وعندما كان على وشك ان يمضي في طريقه التقت عيناه بعيني الطباخ . فتردد لحظة ثم ابتسم .

وقال داراست : « في وسعي ان اخبرك بالحادث على الرغم من عـــدم اهميته ، كان ثمة شخص على وشك الموت بسبب غلطة ارتكبتها ، ويبدو لي انني قد استغثت .

– وهل نذرت ؟

– لا. وكنت احب ان انذر .

– أوقع الحادث منذ عهد بعيد ؟

– قبل أن آتي الى هنا بوقت قصير .

وأمسك الطباخ بذقنه بجماع يديه ، وكانت عيناه تومضان ؛ وقال :

– انك قبطان . وبيتي هو بيتك . ثم انك ستحملني على الوفاء بنذري ، وكأنك الذي وفيت به . وهذا مما يريحك قليلا .

وابتسم داراست وهو يقول : لا أظن ذلك .

إنك متعجرف يا قبطان

– كنت متعجرفاً . أما الآن ، فأنا وحيد . ولكن قل لي .هل كان مسيحك الطيب يرد على استغاثتك دائماً ؟

– دائماً ! .... لا يا قبطان ؟

— اذن ؟

وانفجر الطباخ في ضحكة مرحة ، صبيانية وقال : حسناً ، انه حر ، أليس كذلك ؟ .

وكان رئيس البلدية قد طلب من داراست في النادي حيث تناول طعام الغداء مع وجهاء البلدة ، ان يوقع على سجل الزائرين ، لتحتفظ البلدة بأثر من الحادث العظيم ، الممثل بمجيئه الى ايغوابي . وعثر القاضي على جملتين او ثلاث جمل مفيدة ، يكيل بواسطتها المديح اليه ، مضيفاً إليها الثناء على فضائل الضيف ومواهبه ، وعلى البساطة التي يمثل فيها بينهم البلد العظيم الذي يعتز بالانتماء اليه . ورد داراست ببساطة ، ان مما يشرفه حقاً ويشرف الشركة التي ينتمي اليهـا ، ان تنال هـذا العمل البناء الضخم الذي ستنجزه في البلدة . وهنا اعرب القاضي عن اعجابه بهذا التواضع ثم قال : « على أي حال ، هل فكرت بمـا يجب عمله مع رئيس الشرط » ؟ . وابتسم داراست وقال : « نعم ، لقد وجدت الحل » ومضى يقول انه يعتبره مأثرة شخصية ، وفضلا ممتازاً ، اذا عفي عن الشخص الاحمق ، باسمه حتى يتيسر له ، ان تكون اقامته في ايغوابي التي أحبها كل الحب ، كما احب اهلها ، ستبدأ في جو من السلام والصداقة . وهز القاضي الذي كان يصغي لاقواله ويبتسم ، رأسه ، وبعد ان تأمل لحظة واحدة في الكلمات التي نطق بها داراست ، وصياغتها تأمل الخبير ، دعا الحاضرين الى تمجيد التقاليد الفرنسية العظيمة ، واستدار الى داراست ثانية معرباً عن اقتناعه ، وقال منهياً حديثه : « واذا كان هذا هو ما تريد ، فسنتناول اليوم طعام العشاء معاً » ومعنا رئيس الشرط . واعتذر داراست بانه مدعو لدى بعض الاصدقاء ، لحضور حفلة الرقص في الاكواخ ، فعلق القاضي على ذلك بقوله : « آه ، هذا احسن ، يسرني انك ماض الى هناك . وسترى بنفسك ان

الانسان لا يستطيع ان يقاوم ، عاطفة الحب القوية التي يشعر بها لشعبنا » .

* * *

وجلس داراست ذلك المساء ، مع طباخ السفينة واخيه ، حول بقايا نار مشتعلة في وسط الكوخ الذي كان المهندس قد زاره في الصباح . ولم يندهش الأخ لرؤيته عائداً ، وكان يتحدث الاسبانية بصعوبة . ولذا فقد اكتفى بهزات رأسه ، طيلة الوقت . أما الطباخ ، فقد ابدى اهتماماً شديداً بالكاتدرائية ، كما اخذ يطنب في الحديث عن حساء الفول . وهبط الليل ، وعلى الرغم من ان داراست كان لا يزال يرى الطباخ وأخاه ، الا انه لم يكن قادراً على التمييز في طرف الكوخ البعيد ، بين شخصين ، امرأة عجوز ، والفتاة التي قدمت له الكأس . ومضى في الوقت نفسه ، يسمع هدير النهر الرتيب .

ونهض الطباخ قائلاً : « لقد حان الوقت » . وهبوا على اقدامهم، ولكن المرأتين لم تتحركا . وخرج الرجال وحدهم . وتردد داراست ثانية ثم انضم الى الاخرين . كان الليل ، قد ادلهمت ظلمته ، وتوقف المطر ، عن الهطول ، بينما ظلت السماء السوداء الشاحبة على حالها من الميوعة . وبدأت النجوم ، تلمع عبر مياهها السوداء الشفافة هناك في الافق البعيد . وسرعان ما اهتزت هذه النجوم ، وتساقطت واحدة اثر اخرى ، في النهر ، وكان آخر الاضواء ، ينضح من السماء وامتلأ الهواء الثقيل برائحة الماء والدخان . وسمعت اصوات الغابة الهائلة القريبة ، على الرغم من جمودها ، وسكونها . وانفجرت عن كثب ، بصورة مفاجئة ، اصوات الطبول والغناء ، وكانت خافقة في البداية ، ثم اخذت تتضح شيئاً فشيئاً ، كلما اقترب مصدرها ، ثم توقفت اخيراً . ورأى داراست بعد قليل ، موكباً من الفتيات السوداوات ،

يرتدين ملابس بيضاء من الحرير الخام . وكان يلحق بهذا الموكب زنجي طويل وقد ارتدى جاكيتة حمراء ضيقة ، تزينها قلادة من الاسنان المختلفة الالوان ، ووراء هذا الرجل ، يسير حشد غير منظم من الرجال يرتدون البيجامات البيضاء ، ولفيف من الموسيقيين يحملون طبولاً قصيرة واسعة ومثلثة الشكل . واقترح الطباخ ان يلحقوا بالرجال .

وساروا مع النهر بضع مئات من الياردات ، ووصلوا الى كوخ يقوم وراء آخر الاكواخ الاخرى ، وكان كبيراً وخالياً ومريحاً وقد طليت جدرانه بالجص. وكانت ارضه من الطين ، وسقفه من البوص وسعف النخيل ، يقوم على عمود مركزي في الاوسط وجدران عارية . وفي نهاية الكوخ ، مذبح ، تغطيه الشموع التي لا تضيء اكثر من نصف القاعة ، وفوق هذا المذبح صورة كبيرة ملوّنة للقديس جورجيوس ، بجلاله الجذاب وهو يقتل التنّين . وتحت المذبح كوة مزخرفة بورق « الروكوكو » الملوّن ، وفي داخلها تمثال صغير ، من الآجر الاحمر اللون ، يمثل الهاً له قرون ، يقف بين شمعة ، وطست للماء . وكان الاله ، وقد علت وجهه نظرة متوحشة ، يلوح بيده ، مطواة ضخمة ، مصنوعة من ورق الفضة .

وقاد الطباخ داراست الى زاوية ، حيث وقفا مستندين الى الحائط قرب الباب ، وهمس قائلاً : « في وسعنا بهذه الطريقة ان نترك المكان دون ان نزعج احداً . وكان الكوخ والحق يقال مكتظاً بالرجال والنساء . وأخذت الحرارة في الارتفاع ، واتخذ الموسيقيون اماكنهم ، على جانبي المذبح الصغير. وافترق الرجال عن النساء ، والفوا حلقتين متراكزتين للرقص ، مع الرجال في الدائرة الداخلية. ووقف في المركز القائد الاسود بجاكتته الحمراء . واتكأ داراست على الجدار ، ضاماً يديه .

واخترق القائد ، حلقة الراقصين وتقدم اليهما ، ونطق ببضع عبارات

بطريقة جدية وجهها الى الطباخ . وقال الطباخ « افتح يديك ، يا قبطان ، فأنت بضمها الى صدرك ، تمنع روح القديس من الهبوط ». واطاع داراست، فأرخى يديه الى جانبيه. ولكنه ظل واقفاً وقد استند الى الحائط ، باعضائه الطويلة الثقيلة وجسمه الكبير ، وهو ينضح بالعرق . وبــدا داراست نفسه مثل إله حيوانيّ خيّر . وبعد ان تطلع اليهما الزنجي الطويل ، وارتضى من وقفتها عاد الى موضعه . وافتتح الانشاد بصوت مجلجل، رد عليه الحاضرون كمجموعة تصحبهم الطبول . وبدأت الحلقتان تدوران في اتجاهين متعاكسين في رقص ثقيل مثابر اكثر منه مجرد دوس بباطن القدم ، تؤكــــده حركات الارداف الثقيلة .

واشتدت الحرارة ، وانكمشت الوقفات بين الرقصات ، وأخــــذ الرقص يسرع في خطوه . ودون ان يعترض ايقاع الاخرين، او يتوقف عن الرقص ، فقد خطا الزنجي الطويل عبر الحلقتين ، متجهاً الى المذبح . وعاد الى موضعه وهو يحمل قدحاً مملوءاً بالماء ، وشمعة مضاءة ثبتهــــا في الارض في منتصف الكوخ . وصب الماء حول الشمعة في دائرتين متراكزتين ، ثم انتصب بقامته وتطلع بعينيه المجنونتين نحو السقف . لقد وقف بجسده المشدود ، ساكنـــاً ينتظر . وهمس الطباخ قائلاً : « انظر ! انظر ! هــــا هو القديس جورج آت . » وكانت عيناه تكادان تقفزان من محجريهما .

وبالفعل ، بدا على بعض الراقصين انهم في غيبوبة ، ولكنها غيبوبـــة متزمتة ، وقد وضعوا ايديهم في خصورهم ، وصلبت خطاهم، وراحت عيونهم تتفرس في الفراغ . أما البعض الآخر ، فقد اسرعوا في ايقاعهم ، وانحنوا في حالة تشنجية ، يهتزون باجسادهم ، واخذوا يخرجون صيحات غير واضحة ، وارتفعت الصيحات شيئاً فشيئاً ، وعندما انطلقت في زعيق جماعي ، صرخ القائد ، وكانت عيناه لا تزالان صاعدتين ، صرخة عالية جامدة ، خرجت

من صميم رئتيه . وظلت نفس الكلمات تنطلق مع هذا الصراخ . وقال الطباخ : « اترى انه يصف نفسه بميدان معركة الاله . وتطلع داراست الى الطباخ ، وقد ادهشه التبدل الذي طرأ على صوته . وكان هذا قد مال الى الامام ، وقد انكمشت قبضتاه ، وبرزت عيناه ، يتابع خطوات الراقصين دون ان يتحرك من موضعه . واخيراً لاحظ ، انه هو نفسه ، قد شرع يرقص بجميع ثقله دون ان يحرك قدميه .

وبدأت الطبول تدق بعنف مرة واحدة ، وفجأة ، انطلق الشيطان الكبير الاحمر من عقاله . كانت عيناه تبرقان ، وأعضاؤه الاربعة تدور حوله بشدة ، وكان يقفز وقد ثنى ركبته على قدم واحدة ، ليعود فيقفز على القدم الثانية ، مسرعاً في الايقاع الى الحد الذي بدا فيه وكأنه على وشك الطيران في أجزاء مفتتة . ووقف فجأة على حدود احدى قفزاته ليتفرّس في من حوله بنظرة فظيعة متكبرة ، بينما كانت الطبول تقصف كالرعد . وقفز على الفور راقص من الزاوية المظلمة ، وركع أمامه مقدماً رمحاً صغيراً الى الرجل الذي حلت فيه الروح . وأخذ الزنجي الطويل الرمح دون ان يتطلع الى من حوله ، وحوّم به فوق رأسه . ورأى داراست في تلك اللحظة صديقه الطباخ يرقص بين الآخرين . ولم يكن المهندس قد رآه ، وهو يذهب من جانبه .

وارتفعت من الارض ، سحابة من الغبار في الضوء الاحمر ، غير الواثق ، فأحالت الهواء الى كتلة كثيفة ، تكاد تلتصق بجلد الانسان ، وشعر داراست بالاعياء بصورة تدريجية يتغلب عليه ، وأخذ يتنفس بصعوبة شديدة . ولم يستطع ان ير كيف أمسك الراقصون بالسيكارات الطويلة التي يدخنونها وهم يرقصون ، وامتلأ الكوخ برائحة السيكار ، وأحس برأسه يسبح ، وابصر بالطباخ يمر بقربه وهو لا يزال يرقص وينفث الدخان من سيكاره . وقال

داراست « لا تدخن ! » .وقبع الطباخ كالخنزير دون ان يضيع ايقاع الموسيقى ، محلقاً في العمود الاوسط . في هيئة الملاكم الذي أوشك على الانهيـــار ، بينما يدور عموده الفقري في هزات طويلة . وكانت الى جانبه زنجية بدينة تدور برأسها البهيمي من جانب لآخر ، وهي تعوي . اما الزنجيات الشابات بصورة خاصة ، فقد ضعن في غيبوبة مخيفة وقد التصقت اقدامهن بالارض بينما اهتزت اجسامهن من اخمص القدم حتى هامة الرأس ، في حركات تشنجية ، تشتد عنفاً كلما وصلت الى الاكتاف . وكانت رؤوسهن تترنح جيئة وذهاباً وكأنها انفصلت عن اجسادهن المبتورة وشرع الجميع في الوقت نفسه يعوون باستمرار، عواء جماعياً لا نغمة فيه ، دون ان يتوقفوا لحظة واحدة ، ليستريحوا أو ليدخلوا تلحيناً جديداً وكان الاجساد قد توثقت عضلاً واعصاباً ، في انفجار متعب ، لتحدث صوتاً صادراً عن مخلوقات كانت حتى الآن صامتة في قرارة نفوسهم . وأخذت النساء ، وهن يعوين ، يسقطن واحـــدة اثر اخرى ، فيقترب القائد الاسود ، ويركـــع الى جانب كل منهن ، ويضغط بسرعـة وبصورة تشنجية على صدغيها بيده الضخمة التي تنفجر منها العضلات السوداء ، فتنهض ، وهي تترنح ، وتعود الى الرقص والعواء ، بصورة ضعيفة في البداية لا تلبث ان تشتد وتعلو فيما بعد ، قبل ان تسقط من جديد ، لتنهض ثانية ، وتبدأ الرقص وهكذا باستمرار ، حتى ينخفض صوت العواء بصورة عامة . ويتبدل ، الى نوع من النباح الحزين ، يقطعه اللهـــاث . وأحس داراست بالانهاك ، وقد تصلبت عضلاته ، من الرقصة الطويلة التي رقصها وهو جامد في مكانه ، وكاد يختنق من صمته ، فشعر بنفسه يترنح . وقد تضافرت الحرارة مع الغبار ، ودخان السيكار ، ورائحة الاجساد ، فجعلت الهواء ، غير قابل للتنفس . وتطلع الى الطباخ الذي اختفى . وسمح داراست لنفسه بالانزلاق على الجدار ، حتى اندفع خارجاً وهو يحاول ان يمنع الغثيان في احشائه .

وعندما فتح عينيه ، كان الهواء لا يزال خامداً ، وان كانت الاصوات قد خفتت . وكانت الطبول وحدها تقرع نغماً موزوناً ، والجماعات في كل زاوية من زوايا الكوخ ، وقد غطوا انفسهم باقمشة بيضاء ، يقضون الوقت بقراع الارض باقدامهم . أما في منتصف الغرفة ، التي رفع منها الشمع والزجاج . فقد رأى مجموعة من الفتيات السود يرقصن وهن اشبه ما يكن في حالة تنويم مغناطيسي ، رقصاً بطيئاً ناعماً ، حتى انهن تركن قرع الطبول يسبقهن . وكن قد اغلقن اعينهن ولكنهن ظللن واقفات ، يتأرجحن على اخمص اقدامهن ، دائماً في نفس البقعة . وكانت اثنتان منهما بدينتين ، تغطيان وجهيهما بقناع من الياف النخيل . وهما تحيطان بفتاة اخرى طويلة رقيقة ، ترتدي لباساً تنكرياً . وتعرف داراست فيهـــا على الفور ابنة مضيفه . وكانت تلبس لباساً اخضر ، وقد وضعت على رأسها قبعة صيّاد من القز الازرق مقلوبة من مقدمها ، وقد ازدانت بالريش ، وهي تحمل في يدها قوساً اخضر واصفر ومعه سهم ، التصق بطرفه طير متعدد الألوان . وكان رأسها الجميـــل يترنح على جسدها الرقيق ببطء ، وتعود الى الوراء قليلاً فيعكس وجهها النائم حزناً بريئاً . وكانت عند توقف الموسيقى تتأود وكأنها نصف يقظى . ومع ذلك ، فقد وهبها قرع الطبول المتزايد ، نوعاً من العون غير المرئي لتضم حولها زخارفها الغريبة ، حتى تتوقف ثانية ، مـــع الموسيقى ، متأرجحة ، على حافة التوازن ، ومخرجة صوتـــاً كأصوات الطيور ، فيه نغم وفيه رقة .

وكان داراست مسحوراً بهذه الرقصة البطيئة تقوم بها ديانا السوداء ، عندما خرج الطباخ فجأة امامه . وقد اضطرب وجهه الرقيق ، اذ اختفت الرقة من عينيه ، ليحل محلها شراهة اكيدة . وقال ببرود ، وكأنه يحدث شخصاً غريباً : « لقد اصبح الوقت متأخراً يا قبطان . وسيواصلون الرقص

طيلة الليل ، ولكنهم لا يريدون ان تظل هنا » . ونهض داراست ، وقد ثقل رأسه ، وتبع الطباخ ، الذي مشى بجانب الحائط الى الباب . وعندما وصلا العتبة ، تنحى الطباخ ، فاتحاً باب الخيزران ، فدلف منه داراست الى الخارج . والتفت خلفه ليرى الطباخ ، لم يتحرك من مكانه . فقال : « تعال. فبعد قليل ، عليك ان تحمل الحجر .

وقال الطباخ ، في تعبير صامد : « سأظل هنا » .

— وهل تعود ؟

ولم يرد الطباخ بل أخذ يدفع الباب ببطء ، الذي كان لا يزال داراست يمسكه بيده . وظلا على هذه الحال نحواً من ثانية، حتى استسلم داراست هازاً كتفيه . ثم مضى في طريقه .

وكان الليل ، يعبق بالشذى العطري الذي انبعث في الهواء من جديد ، وبدت النجوم القليلة في السماء الجنوبية فوق الغابة ، وقد غشاها ضباب غير مرئي ، تلمع خافتة ، ضعيفة . وكان الهواء الرطب ثقيلاً قاسياً ، ومع ذلك فقد أحس ببرودته عندما خرج من الكوخ ، وصعد داراست المنحدر ، الكثير المزالق وهو يترنح كرجل ثمل ، يسير في طريق ملأى بالحفر . وكانت الغابة القريبة تزمجر ، زمجرة خافتة . وعلا هدير النهر . وبدت القارة باسرها وهي تخرج من الليل ، وغلب عليه الغثيان . وخيل اليه انه يود ، لو تقيأ جميع هذه البلاد ، وان يتقيأ معها أحزان ما فيها من مدى فسيح ، ونور أخضر ينبعث من غاباتها ، ومن الاحضان المظلمة لأنهارها الكبيرة المهجورة . وكانت هذه الارض واسعة يختلط فيها الدم بالفصول ، ويذوب الزمن . والحياة فيها تتدفق مع التربة ، وعلى الانسان لكي ينسجم معها ، ان يستلقي وينام سنوات طويلة على الارض الموحلة او الجافة . أما هناك في اوروبا ،

فيتمثل العار والغضب . أما هنا ، فالمنفى والوحدة ، بين هؤلاء المجانـــين الذين لا يتحركون ولكنهم تشنجوا في رقصات يواصلونهـــا حتى الموت . وظلت تصل الى اذنيه في ذلك الليل الرطب ، الثقيل برائحة الخضرة ، تلك الصيحة التي تشبه صوت الطائر الجريح ، والمنبعثة من تلك الفتاة الجميـــلة النائمة وهي تؤدي رقصتها .

* * *

وعندما استيقظ دارا ست بعد سبات سيء ، وكأنه يعاني فيــه كابوساً ، أحس بصداع شديد ، يكاد يعصف برأسه ، وكانت الحرارة مشبعة بالرطوبة تلقي بظلها الثقيل على البلدة والغابة الهادئــة . ووقف في رواق المستشفى ، ينتظر وهو يتطلع الى ساعته ، التي توقفت عن السير ، وقد بات متشككاً من الوقت وقد ادهشه وضح النهار وهدوء البلدة . وارتفعت السماء الزرقـاء الصافية على مدى خفيض فوق اسطحة المنازل . ونامت النسور الامريكيـة ذات الريش الاصفر وقد اكتوت بالحرارة ، على البيت المقابـل للمستشفى . وفجأة خفق احدها بجناحيه ، وفتح منقاره ، واستعد للطيران ، بعد ان رفرف مرتين باجنحته وارتفع عدة بوصات فوق السطح ليعود بعدهـــا الى اغفاءته فوراً .

ومضى المهندس باتجاه المدينة ، فرأى ساحتها الرئيسية العامــة خالية ، خلو الشوارع التي مر بها . وارتفعت ضبابة منخفضة بعيداً على ضفتي النهر ، فوق الغابة . وكانت الحرارة تهبـــط بصورة عمودية ، وبحث داراست عن مكان ظليل . ورأى في تلك اللحظة ، وراء السدف التي تغطي أحد البيوت رجلاً قصيراً يشير اليه ، وعندما اقترب منه عرف فيه سقراط .

وقال هذا : — « حسناً يا مستر داراست ، هل اعجبك الاحتفال .

وردد داراست بان الحر كان شديداً داخل الكوخ ، وانه فضـــل عليه السماء ونسيم الليل العليل .

وقال سقراط – « حسناً ففي بلادك ، ليس هنـــاك الا القداس ، اذ لا رقص عندكم » وفرك سقراط يديه ، وقفز على رجل واحـــدة ، ودار حول نفسه عدة دورات في الهواء ثم قهقه قهقهة عالية وهو يقول : « هــذا اليس ممكناً ، انه غير ممكن » . وتطلـع الى داراست بفضول وقـــال : « وانت هل تذهب الى القداس ؟ »

– لا .

– اذن ، اين تذهب الآن ؟

– لا هدف لي ولا اعرف .

وضحك داراست ايضاً وقال : « هذا ليس ممكنا ، ان يكون النبيـل دون كنيسة ودون أي شيء آخر .

وضحك داراست ايضاً وقال : « اجل ، وهكذا فلم أجد مكاناً لي ، ولذا تركت وطني .

– ابق معنا يا مستر داراست ، انني احبك .

– كم اود ياسقراط لو بقيت ، ولكنني لا اعرف الرقص .

وردد الصمت المخيم على مكان رجع قهقهتها .

وقال سقراط – « آه ، لقد نسيت . ان رئيس البلدية يريـد ان يراك انه يتناول غداءه في النادي .

ومضى سقراط دون وداع او انذار في الطريق الى المستشفى .

وهتف به داراست قائلا : « اين تذهب ؟ »

وقلد سقراط صوت الشخير وقال : « لا انام . فبعد قليـل يمر الموكب ، واستأنف شخيره ، وهو يركض نصف ركضة .

كان رئيس البلدية ، يريد ان يقدم لداراست ، مكان الشرف والصدارة ، ليرى الموكب . وشرح له الاحتفال بينما كان يشاركه في تناول طبق من الارز واللحم . تكفي معجزته لشفاء انسان مصاب بالشلل . وتقرر ان يأخـذا اولاً اماكنهما على شرفة دار القاضي المقابلة للكنيسة لرؤية الموكب خارجـاً منها . وبعد ذلك ينتقلان الى دار البلديـة في الشارع الرئيسي المؤدي الى الكنيسة ، الذي سيمر به الخطـاة في طريق العودة الى الكنيسة . على ان يرافقه اليها القاضي ورئيس الشرطة ، لاضطرار رئيس البلديـة للاشتراك في الاحتفال . وكان رئيس الشرطة في غرفة النادي ، يغدق المجـاملات على المستر داراست ، بابتسامة لا تكل ولا تمل ، مغرقـاً اياه بخطب لا يفهمها ولكنها تنطوي كما يبدو على كلمات ذات معان رائعة . وعندما غادر داراست دار النادي ، سارع رئيس الشرطة الى فتـح الطريق امامـه ، والامساك بالابواب ليمر منها .

ومضى الرجلان ، تحت الشمس المحرقة ، في المدينة الهادئـة الصامتة ، متجهين الى دار القاضي . وكان صوت خطواتهما ، الصوت الوحيـد الذي يسمع وسط ذلك الهدوء الشامل . وفجأة انطلق سهم ناري متفجراً في شارع مجاور ، فايقظ اسراب النسور ، التي كانت تغط في سباتها العميق على اسطحة المنازل . وارتفعت عشرات الاسهم النارية من كل مكان ، وانفتحت الابواب ، وبدأ الناس يخرجون من بيوتهم ويملأون الشوارع الضيقة .

واعرب القاضي عن اعتزازه باستقباله في داره التي لا تليق به ، وقاده فوق سلم جميل رائع ، مدهون باللون الطباشيري الازرق . وعندما وصل الى الدارة ، كانت الابواب تفتح ، وتطل منها رؤوس سوداء صغيرة ،

لتعود فتختفي وراء ضحكات مرحة . وكانت الغرفة الرئيسية جميلة في هندستها ، وتصميمها ولا تضم الا اثاثاً ، من خشب النخيل « الروطاني » ، وبعض الاقفاص ، الملأى بالطيور المتناغية . واطلت الشرفة التي جلس عليها القاضي ودار اوست ، على الساحة الصغيرة امام الكنيسة . وبدأت الجموع الآن تملأ هذه الساحة ، وقد سكنت سكوناً غريباً ، تحت هذه الحرارة الهابطة من السماء في موجات مرئية . وركض الاطفال وحدهم في الساحة ، ليشعلوا الاسهم النارية ، فيرتفع دوي تفجرها ، واحداً اثر آخر في سلسلة متلاحقة سريعة . وبدت الكنيسة من المكان الذي يقفان عليه ، بجدرانها المدهونة بالجصّ ودرجاتها الاثنتي عشرة ، وابراجها الزرقاء والمذهبة ، اصغر مما هي عليه .

وارتفع صوت الأرغون ، فجأة داخلها . والتفتت الجماهير الى الاروقة ، وانسحبت الى جوانب الساحة . ورفع الرجال قبعاتهم ، بينما ركعت النساء على ركبهن . وأخذ الارغون البعيد ، يعزف نغماً يشبه لحن النشيد العسكري . وارتفع صوت غريب من الاجنحة من الصحراء ، وظهرت طائرة صغيرة بجناحين شفافين ، وجسم واهن ضعيف ، لا مكان له في هذا العالم الذي لا عمر له ، فوق الاشجار ، وحلقت قليلا فوق الساحة ، ثم مرت فوق الرؤوس وهي ترسل ازيزاً عالياً ، واتجهت نحو مصب النهر ، حيث ، اختفت هناك .

وانبعثت من ظلال الكنيسة ضوضاء خافتة اثارت الاهتمام . فقد توقف الارغون ، ليحل محله صوت الطبول والصناجات ، التي لم تكن تظهر في الاروقة . وخرج الخطاة من الكنيسة وقد ارتدوا ثياباً سوداء كثياب الكهنة ، واحداً اثر آخر ، وشكلوا جماعات خارج الابواب بدأت تهبط الدرج . وخرج وراءهم عدد من التائبين في ثيابهم البيضاء ، يحملون الاعلام

البيضاء والزرقاء ، تتلوهم مجموعة صغيرة من الصبيان وقــد ارتدوا ثياباً كالملائكة ، يمثلون اخويات العذراء ورعوياتها ، بوجوههم السوداء الجادة . واخيراً ، ظهر تابوت متعدد الالوان ، يحمله عدد من وجوه البلدة ، وقـد تصبب العرق منهم ، وهم يرتدون ملابسهم السوداء ، وفي هذا التابوت تمثال المسيح الطيب نفسه ، وهو يحمل قصبة في يده ، وقد وضع على رأسه تاجاً من الاشواك والدماء تنزف منه ، وهو يترنح فوق الجماهير التي اصطفت على السلالم .

وعندما وصل التابوت الى اسفل السلم ، توقف الموكب قليلا بينما حاول الخطاة ان يسيروا في صفوف منتظمة . وعندئذ رأى داراست صديقه طباخ السفينة وقد تعرّى نصفه الاعلى من اللباس ، يخرج من الرواق ، يحمل على رأسه الملتحية صخرة مستطيلة كبيرة الحجم ، وقد وضعت على بساط من الفلين . وهبط الطباخ درج الكنيسة بخطوة ثابتة متزنة ، وقد توازن الحجر تماماً في القوس الذي شكلته ذراعاه القصيرتان المفتولتا العضلات . وعندما اصبح وراء التابوت تحرك الموكب . واندفع الموسيقيون من الاروقة ، يرتدون معاطف فاتحـــة اللون ، وينفخون في آلات نحاسية مربوطة بالاشرطة وسار الخطاة والتائبون على انغام العزف الموسيقي السريع ، حتى وصلوا الى احد الشوارع المؤدية الى الساحة العامة ، وعندما اختفى التابوت وراءهم ، لم يعـــد يظهر الا الطباخ وآخر الموسيقيين . وتحركت الجماهير وراءهم ، وسط تفجر الاسهم النارية ، بينما عادت الطائرة بأزيزها الذي يصم الآذان ، لتطير فوق الجماهير التي تسير في المؤخرة . وركز داراست اهتمامه بالطباخ ، الذي كان يختفي الآن في الشارع ، ورأى كتفيه وقد بدءا يميلان . ولكنه لم يستطع ان يرى بوضوح من هذه المسافة البعيدة .

ووصل القاضي ورئيس الشرط وداراست ، عبر الشوارع الخالية وبين

الحوانيت المغلقة والابواب المدرسية الى دار البلدية . وعندما ابتعدوا عن الفرقة الموسيقية وقاذفي الاسهم النارية ، عاد الصمت ليغلّف البلدة الهادئة ، كما عادت بعض النسور بالفعل الى اماكنها على اسطحة المنازل .
وكانت دار البلدية تقوم في شارع طويل ضيق يمتد من القطاعات الجانبية الى ساحة الكنيسة . وكان الشارع خالياً في تلك اللحظة . ولم يكن ليظهر من الشرفة على مدى النظر الا ارصفة الشوارع وقد امتلأت بالحفر التي امتلأت بالمياه الآسنة من الامطار الاخيرة . اما الشمس وقد انخفضت بعض الشيء ، فكانت لا تزال تقضم في جدران الابنية التي لا نوافذ فيها عبر الشارع .

وانتظروا وقتاً طويلاً ، طيلة المدة التي قضاها داراست وهو يشعر بالاجهاد والدوخان يعودان اليه من جراء تطلعه المستمر ، الى ذبذبات الشمس على الجدار المقابل . وأحس بان هذه الشوارع الخالية ببيوتها المهجورة تجتذبه في نفس الوقت الذي يشعر فيه بالنفور منها . واراد مرة ثانية ان يخرج من هذه البلاد ، وفكر من جديد بذلك الحجر الهائل ، وود ان تنتهي تلك التجربة ، وكان على وشك ان يقترح النزول من دار البلدية للبحث عن شيء ، عندما أخذت اجراس الكنيسة تقرع بعنف وشدة . وتدفقت ضجة شديدة في نفس الوقت من النهاية الأخرى للشارع الواقع الى اليسار ، كما ظهر جمهور غفير من الناس في وضع شديد الانفعال . وشوهد الناس من مسافة بعيدة ، يحتشدون حول التابوت ، وقد اختلطوا بالحجاج والخطاة والتائبين وهم يتقدمون وسط اسهم نارية تنفجر ، وهتافات معبرة عن الفرح ، عبر شارع ضيق . واكتظ الشارع بهم ، وهم يزحفون على دار البلدية في فوضى لا توصف ، وقد اختلطت الاعمار بالاجناس والازياء ،التي امتزجت في جماهير متباينة من الناس ، باعينهم المفتوحة وافواههم الصارخة . وظهرت من بين الحشود ، جماعات تحمل اشياء دقيقة كالرماح ، تنبعث منها مشاعل ، تختفي

في ضوء الشمس المحرقة . وعندما اقتربت هذه الحشود من دار البلدية ، وكانت كثيفة وكبيرة ، ووقفت تحت الشرفة ، وكأنها تريد ان تتسلق الجدران ، لم ير داراست طباخ الباخرة بينها .

وغادر داراست الشرفة مسرعاً كالبرق الخاطف ، دون ان يعتذر ، وهبط السلم بعجلة ولهفة الى ان وصل الشارع ، فوقف بين الاصوات المزمجرة ، من الاجراس والصواريخ النارية . وكان عليه ان يشق طريقه عبر حشود المحتفلين وحملة المشاعل والخطاة والتائبين . ولكنه استطاع بثقل جسمه وبالغ قوته ، ان يدفع عن نفسه مد الجماهير الطاغي ، وان يشق طريقه بصعوبة ، حتى انه ترنح وكاد يسقط عندما وجد نفسه وقد خرج من الزحمة ، اصبح حراً طليقاً في نهاية الشارع . واستند الى الجدار الذي يحترق كالنار من الحرارة ، منتظراً ، التقاط انفاسه . ثم استأنف طريقه . ورأى في تلك اللحظة جماعة من الرجال ، تظهر في الشارع . وكان الذين في المقدمة يسيرون الى الوراء ، ورأى داراست انهم يحيطون بالطباخ .

وكان من الواضح ان الجهد قد قتله . فقد كان يقف بعد كل خطوة، تحت عبء الحجر الثقيل ، ثم يركض عدة خطوات بسرعة عمال الطرق أو وساق السفن التجارية ، مهرولاً ، هرولة الكادحين وراء خبزهم اليومي . وقد التف حوله عدد من التائبين في ملابسهم الكهنوتية ، التي انتشر عليها الغبار ، وقطرات الشمع يشجعونه كلما توقف . وكان اخوه يسير الى جانبه صامتاً ، ويركض عندما يركض . وبدا لداراست ان وقتاً سرمدياً سينقضي قبل ان يجتازوا ، المسافة التي تفصلهم عنه . وعندما وصلوا اليه ، توقف الطباخ ثانية ، والتفت حوله ، بعينين بليدتين خاملتين . وعندما رأى داراست ، بدا وكأنه لم يعرفه ، فوقف صامتاً ثم التفت اليه ، وكان العرق القذر الذي يشبه الزيت يغطي وجهه ، الذي اصبح شاحباً ، وقد امتلأت لحيته باللعاب ،

بينما علا الزبد شدقيه . وحاول ان يبتسم . ولكنه لم يستطع حراكا تحت هذا العبء الثقيل الذي يحمله ، بينما كان جسمه يرتجف باستثناء كتفيـه ، حيث بدا أن عضلاتها قد انكمشت . وقال اخوه الذي عرف داراست لتوه ببساطة : « انه كاد ان يسقط . » وهمس سقراط ، الذي خرج فجـأة من مكان لم يره في اذنه قائلاً : لقد رقص كثيراً ليـلة امس يا مستر داراست . رقص طيلة الليل . وهو يشعر الآن بالتعب » .

وتقدم الطباخ ثانية ، بهرولته المترنحة ، لا كانسان يريد ان يتقدم ، بـل كشخص يهرب من الحمل الذي ينوء به ويود ان يخفف من ثقله بالحركة . ورأى داراست نفسه يسير الى يمينه دون ان يعرف سبباً لذلك ، ووضع يده خفيفاً على ظهر الطباخ ومشى بجانبه بخطوات ثقيلة سريعة . واختفى التـابوت في الطرف الثاني من الشارع ، وبدت الجماهير التي ملأت الساحة الآن وكأنهـا لا تريد ان تتقدم خطوة واحدة . واحرز الطباخ بعض التقدم عدة ثوان اخرى بين اخيه وداراست . ولم يبق بينه وبين الجماهير المحتشدة امـام دار البلدية لرؤيته وهو يمر اكثر من نحو عشرين ياردة ، ومـع ذلك فقد توقف من جديد . وثقلت يد داراست على ظهره وهو يقول : « واصـــل السير ، يا طباخ ، مسافة قصيرة اخرى » . وارتجف الرجل ، وتدفق اللعاب من فمه ثانية . بينما انساب العرق من جميع انحاء جسمه . وحاول ان يأخـــذ نفساً عميقاً ولكنه لم يستطع ، وكرر المحاولة ، ومشى ثلاث خطوات ثم ترنـح . وفجأة انزلق الحجر على كتفه ، محدثاً فيه جرحاً ، ثم تدحرج الى الارض ، بينما فقد الطباخ توازنه ، وسقط على جانبه ، وتراجع الرجـــال الذين كانوا يسيرون امامه . مشجعين ، وقد ارتفع صراخهم . وأمسك احدهم ، ببساط الفلين بينما امسك آخرون بالحجر ، ليرفعوه فوق رأسه من جديد .

ومسح داراست،الذي مال عليه ،الدم والغبار عن كتفه بيديه العاريتين ،

بينما لهث الرجل الصغير ، ووجهه قد انكفأ على الارض . ولم يسمع شيئاً ولم يتحرك . وانفتح فمه باشتهاء وجوع ،وكأنه يستنشق النفس الاخير. وأمسك به داراست وطوقه عند صدره ، ثم رفعه بسهولة كما يرفع طفلا صغيراً. وبعد ان اوقفه على قدميه بقبضة ثابتة ، وقد مال عليه بقوامه الفارع ، تحدث اليه وكأنه يحاول أن ينفخ في وجهه بعض قوته . وبعد لحظة واحدة ، خلّص الطباخ نفسه من قبضته ، وقد غمرته الاتربة والدماء ، وبانت في محياه تعبيرات حائرة . وترنح متجهاً الى الحجر ، الذي رفعه الآخرون ، عن الارض ، بعض الشيء . ولكنه توقف ، متطلعاً الى الحجر بنظرة خواء ، وهز رأسه . وسقط ذراعاه الى جانبيه ، وعاد على عقبيه الى داراست ، ودموع سخينة تهطل من عينيه بصمت على وجهه التالف . واراد ان يتكلم، بل وقد تكلم ، ولكن فمه لم ينطق بحرف واحد سوى تلك الجملة : « لقد نذرت ، آه ، يا قبطان ، آه ، يا قبطان» واغرقت الدموع صوته من جديد. وظهر أخوه فجأة وراءه ، وعانقه بذراعيه من ورائه ، وانهار الطباخ وهو يبكي ، بين يدي اخيه ، منهزماً وقد قذف برأسه الى الوراء .

وتطلع داراست اليه دون ان يدري ما يقول، والتفت الى الحشد البعيد، الذي بدأ في الصراخ من جديد . وفجأة ، أخذ بساط الفلين من الايدي التي تمسك به ، ومشى متجهاً الى الحجر . واشار الاخوين بان يرفعوه ، فحمله على رأسه ، دون جهد كبير . وانحنى رأسه بعض الشيء ، تحت ثقل الحجر، كما احدودب كتفاه ، واصبح يتنفس بصعوبة ، وهو يتطلع الى قدميه ، بينما يصغي الى عبرات الطباخ . وآنذاك مشى بخطو فيه حياة، ودون ان يسترخي أو يتقاعس ، قطع المسافة التي تفصله عن الحشد المجتمع في نهاية الشارع ، وشق طريقه بنشاط ، بين الصفوف الاولى ، التي انفتحت له من نفسها عندما تقدم . ودخل الساحة بين ضوضاء الاجراس والسهام النارية بين صفين

ضخمين من النظارة ، الذين عمتهم الدهشة ، فراحوا في صمت عميق يتطلعون اليه . وواصل السير بخطوة المتهور المندفع ، وأفسح له الحشد طريقاً الى الكنيسة . وعلى الرغم من الثقل الذي بدأ يرهق رأسه ورقبته ، فقد رأى الكنيسة والتابوت الذي بدا وكأنه يقف في مدخلها في انتظاره . وكان قد اجتاز منتصف الساحة في ذلك الاتجاه ، عندما أحس بشعور وحشي طاغ ، لا يدري سبباً له ، يحمله على الاستدارة الى الشمال ، والابتعاد عن الكنيسة، مواجهاً جماعات الجحيم . وسمع احدهم يركض وراءه . وتفتحت الافواه امامه من كل جانب . ولم يفهم ما صاحت به هذه الافواه او قالته ، على الرغم من انه ادرك الكلمة البرتغالية الوحيدة التي توجه اليه باستمرار. ورأى سقراط فجأة يقف امامه ، يفرك عينيه الدهشتين ، ويتكلم دون رابط ، ويشير الى الطريق المؤدية الى الكنيسة وراءه . وادرك ان سقراط والجموع كلها تهتف بصوت واحد : « الى الكنيسة ، الى الكنيسة » ، ولكن داراست واصل السير في الاتجاه الذي قصد اليه . وتنحى سقراط جانباً وقد رفع ذراعيه في الهواء بصورة مضحكة ، بينما خيم الصمت تدريجياً على الحشد . وعندما دخل داراست الشارع الأول ، الذي سبق له ان قطعه مع الطباخ ، والذي عرف انه يؤدي الى النهر ، انقلبت الساحة الى دمدمة مرتبكة لم يسمع منها شيئاً .

وشعر بوطأة الحجر على رأسه تؤلمه ، واحتاج الى كل ما في ذراعيه الطويلتين من قوة لتخفيف هذه الوطأة عن رأسه . وكان كتفاه قد بدءا يتحجران ، عندما وصل الشوارع الأولى في المنحدر الكثير الانزلاق . فتوقف عن السير واصغى . انه وحيد . وثبت الحجر على قاعدته الفلينية ، وهبط المنحدر حذراً ، ولكن بخطوات ثابتة نحو الاكواخ . وعندما وصل اليها ، كانت قواه قد بدأت تخونه وكانت ذراعاه ترتجفان تحت وطأة

الحجر . وغذ سيره ، ووصل أخيراً الى الساحة الصغيرة أمام كوخ الطباخ ، فركض نحوها ، وفتح باب الكوخ بقدمه ، وقذف بالحجر ، الى النار المتأججة ، في وسط الغرفة . وهناك أخذ ينتصب بقامته ، حتى استقامت ، وأخذ يعب ، بيأس من رائحة الفقر التي يعهدها ممزوجة مع الرماد ، وشعر في نفسه بسرور طاغ ولاهث ، ولم يستطع تسميته .

وعندما وصل اهـــل الكوخ ، وجدوا داراست ، واقفاً وقد اتكأ بكتفيه على الجدار الاسود واغلق عينيه . ورأوا في وسط الغرفة ، وفي مكان الموقد الحجر ، وقد غمر الرماد والأرض نصفه . وتوقفوا في الباب ، دون ان يتقدموا ، وهم يتطلعون الى داراست صامتين وكأنهم يوجهون الأسئلة اليه . ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، وآنذاك قاد الأخ ، الطباخ الى الحجر ، حيث سقط على الارض . وجلس الاخ ايضاً ، مشيراً الى الآخرين بان يجلسوا . وانضمت اليه المرأة العجوز ، ومن ثم صبيّة الليلة السالفة ، ولكن دون ان يتطلع اي منهم الى داراست . وأقعوا جميعاً في دائرة صامتة حول الحجر . ولم يعكر صفو صمتهم شيء الا همهمة النهر ، وهي تصل اليهم محمولة على الهواء الثقيل . ووقف داراست في الظلام مصغياً دون ان يرى شيئاً ، وبعثت اصوات المياه في نفسه سعادة غامرة . واغمض عينيه فشعر بسرور انه يستعيد قوته ، وانـــه يستعيد من جديد بداية اخرى للحياة . وانطلق صاروخ ناري في تلك اللحظة ، وبدا وكأنه صادر من مكان قريب . وابتعد الأخ قليلاً عن الطباخ ، والتفت نصف التفاتة الى داراست دون ان يتطلع اليه ، واشار الى المكان الخالي قائلاً : « اجلس معنا هنا » .



الفهرس

اقوال حول الكتاب

« اصبح كامو ضمير العصر الحاضر ... وكتابه هـــذا « المنفى والملكوت » يعبر عن الاوضاع الرواقية الانسانية ، تعبيرات مختلفة وقوية .

وتؤكد هذه القصص العنيفة ، المحكمة ، ان كامو ، ليس مجرد انساني ساذج مغرور ، بل انه يقف في صفوف الملائكة كما يجب ان يقف ، كما يعطي للشيطان حقه »

« ان قوة هذا الكتاب تبدو واضحة جلية »

جي وايتان (الاوبزفر) .

« ان بساطة البير كامو ، وحشد آرائه ، في كتاباته ، يبدوان واضحين تمام الوضوح في هـــذه القصص الست ، التي ادرجها في كتابه « المنفى والملكوت » .

« وفي كل قصة من هذه القصص تبدو عبقرية كامو ، في عرض الوضع ، في صورة دراماتية رائعة ، وفي قوتـــه عندما يخلق المنظر والجو ، اللذين تعرض فيهما هذه الصور ».

سكوتسمان .

« يبدي كامو في قصته الساخرة « الفنان يعمل » ان كامو ، يملك موهبة هائلة وغير متوقعة في النكتة الساخرة .

ملحق التايمس الأدبي .